الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

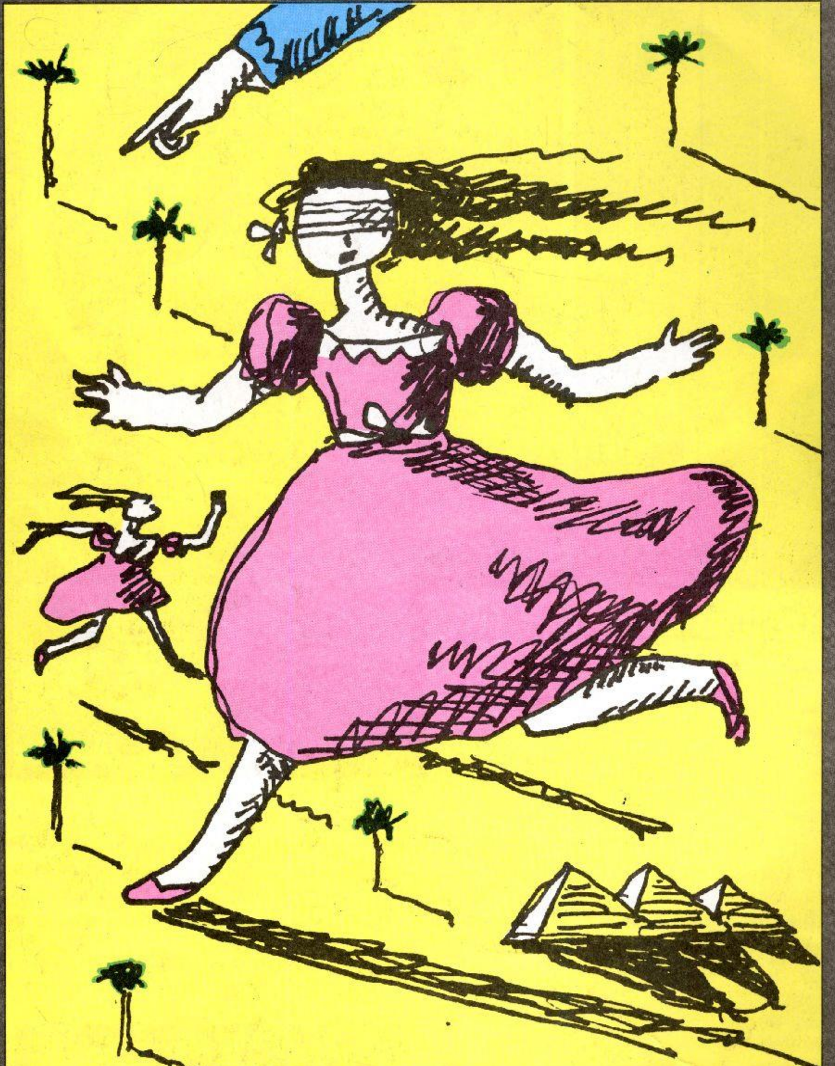
Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 75 - April 2005

مجلة شهرية . العدد الخامس والسبعون . السنة السابعة . أبريل ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

أرادوه "خاليا من الأسلحة".. فأصبح "خاليا من العلماء" / عماد خدورى

زيارة أولى.. للوطن / جمانة أبو غزالة ■ كان أبى.. وكان أيضا رئيسا للجمهورية / ليلى حافظ ■ عن الحريرى / غسان توينى

قراءة: العربى التائه.. والحرية الهادية / أيمن الصياد ■ "بنت ناس".. الكود العصرى لتوظيف البنات فى مصر / غادة برسوم



نون: تطوير جينات المثقف العربى / سلامة أحمد سلامة

السـنـة السـابعـة
العدد الخامس والسبعون
أبـريـل ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحـمـد الـزيـادى

الكتب وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- احمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- ثروت البحر.. فنان تشكيلى.
- جمانة أبو غزالة.. فلسطينية تقيم فى نيويورك وتعمل فى صناعة الإعلان.
- حازم حسن صبحى.. مدير مركز أبحاث التقدم العلمى ووكيل بمجلس الدفاع الوطنى سابقا.
- روجر كوهين.. صحفى فى جريدة «هيرالد تريبيون» الأمريكية.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- عبد العليم الأبيض.. الوزير المفوض الإعلامى فى واشنطن سابقا.
- عماد خدورى.. عالم عراقى مقيم فى كندا.
- غادة برسوم.. باحثة بقسم الاجتماع ـ جامعة تورنتو.
- غسان توينى.. سياسى وصحفى لبنانى.
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- ليلى حافظ.. صحفية.
- محمد أبو الغار.. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.
- نتاليا بايلى.. باحثة اقتصادية ـ لندن.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٨٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عددا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارا أمريكيا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارا أمريكيا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارا أمريكيا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٥٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazdr.net

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهما ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٢ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

سلامة أحمد سلامة

تحوير جينات المثقف العربي!

[١]

** أمضيت قرابة نصف العام إلا قليلاً أتأرجح بين العجز والاستطاعة، بين الاستسلام للمرض ومغالبته، بين الانكماش على النفس والخروج من قوقعة الضعف والوهن. بين اجترار الآلام والأوهام والتطلع إلى لحظة يتحرر فيها الجسد والعقل من قيود تخضعه لقوى لا يملك من أمرها شيئًا.

وعلى كثرة ما عبرت أفق الوعي من أفكار وما تناوشته من تأملات وخواطر، ظلت تروح وتجيء في مساحة زمنية بحكم القعود عن الحركة والالتزام بأوامر الطبيب؛ إلا أنها ظلت عصية على التشكل والنضوج. تتداخل وتتماوج مثل قطعان السحب في السماء. تظهر وتغيب دون سبب وتعصفها رياح تدفع بها في كل اتجاه. وبدا لي في وقت من الأوقات أنني في سباق بغير نهاية، ولكنه سباق لغير هدف، لتسابق لا أهمية له؛ وفي لحظة زمنية لا قيمة لها. وحينئذ خيل إلى أن العودة إلى حياتي الطبيعية، إلى عملي وورقي وقلمي، بعد فترة انقطاع مرهقة لن تكون سهلة، بل بدت وكأنها شبه مستحيلة.

أن يتعافى المرء من علة أشرفت به على الحافة، فقد خلالها قوته ولياقته، وتسرب الضعف إلى أعضائه وعضلاته، فلم يعد يستطيع المشى أو الوقوف أو الجلوس بمفرده دون مساعدة يد حانية ترعاه. أشبه بطفل يتعلم الحركة والمشى لأول مرة، تسانده أمه وتسنده خشية الوقوع.. فتلك تجربة شاقة. يزيد من مشقتها أن العليل في إبلاله لا يبدأ متدرجًا مثل الطفل ولكنه يحاول أن يستعيد ذاكرته الحركية وما دأب عليه من سكون وحركة، ووقوف وقعود، ومشى وجرى.. وكأنه لم يفقد كل هذه المهارات الحركية التى كان يمارسها في يسر ومرونة. وتبقى قدرة الإنسان على النطق - أى العقل - بكل ما فيه من ملكات تمكنه من الإدراك الحسى والعقلى والنفسى هي المخزون الذى لا يتبدد بسهولة مهما ضعفت الحواس وتداعى الجسد واشتعل الرأس شيبًا.

[٢]

كنت في كل مرة تعتريني أسباب الوهن، أفكر في الاعتزال والتقاعد، واستقر في وجداني أن دروب الحياة التى سلكتها لم تفض إلى شيء. ولكن لو أنني تقاعدت حتى بعد أن أستعيد صحتى فما الذى سأفعله؟ هل أهجر عملى في القراءة والكتابة والتفكير، وأمضى أوقاتى كما يفعل موظفو المعاشات على المقهى، أو تسكعًا في النادى، أو لقاء وثرثرة مع الصحاب والمعارف؟ أستعيد ذكريات أيام مضت وأناقش أحوال البلاد والعباد، وغلاء الأسعار وجور الزمان، ومشكلات العالم وحروبه. فإذا ضقت فهناك أحدث الأغانى وآخر الفضائح ومتاعب الأولاد والبنات.. ثم لا تلبث بمرور الوقت أن تخبو جذوة القراءة والاطلاع، والقدرة على التفكير وإعمال العقل في شئون الحياة، حتى إذا وصلت قدرات العقل إلى مرحلة الضمور والانقطاع؛ لم يبق غير اللجوء إلى الكتب الدينية التى يقف المرء منها موقف التلقى والإذعان، دون تفكير أو تأمل، ودون مناقشة أو حوار. غاية ما يستطيع المرء خارج هذا الإطار أن يتابع برامج التليفزيون العقيمة. فإذا أراد تنشيط ذهنه فقد يلجأ إلى حل الكلمات المتقاطعة!!

وحيدًا ينغلق المرء على نفسه، عاطلاً أو متقاعدًا عن العمل، تضمحل قدراته وتزداد عزلته وانفصاله.. ترهبه أشباح الشيخوخة وعللها وأعراضها، فيصبح التقاعد بداية لطريق يتوقع المرء نهايته في كل لحظة. ونحن نعيش في مجتمعات تجهل ثقافة الاستمتاع بالحياة حتى آخر مراحل العمر، فأين المفر؟

في المجتمعات المتقدمة ينتظر الكثيرون مرحلة التقاعد على أحر من الجمر بعد سنوات من العمل الشاق والانضباط القسرى، تأجلت خلالها كثير من متع الحياة والأمنيات الصغيرة والكبيرة. يعتقد الواحد منهم أن التقاعد سيوفر له فائضًا من الوقت يقضيه مع أسرته، أو ينفقه في الثقافة والفن، أو في متعة السفر والترحال، أو ممارسة هوايات كالرسم والموسيقى كان يتوق إليها. وتوفر هذه المجتمعات، فضلاً عن نظم التأمينات التى تكفل للمتقاعد معاشًا معقولاً، أنشطة اجتماعية ورحلات جماعية ونوادى أو روابط تملأ أوقات الفراغ.

ولكن تبقى المعضلة بالنسبة للذين أمضوا حياتهم في صناعة الفكر والثقافة والاشتغال بالعلم، سواء في القلب أو على الهامش؛ وهى معضلة إطالة حياة الجسد دون المحافظة على إطالة حياة العقل. وهو ما يجعل من طول العمر عبئًا على صاحبه وعلى المجتمع. فالمرء قد يعيش حياة أطول مع تقدم الطب واقتراب التوصل لعلاج السرطان وأمراض القلب، وخاصة بعد أن أصبحت الهندسة الوراثية وتنشيط الخلايا الجذعية في متناول اليد. ولكن يظل السؤال قائمًا: ما هو الهدف إذا افتقر الأديب أو المفكر أو العالم إلى النشاط الذهنى، والقدرة على التركيز والاستيعاب المتجدد للتفاصيل المتدفقة على الوعى من كل اتجاه حوله؟ ماذا يجدى إذا بقى الجسد وتلاشى العقل أو اضمحلت قدراته؟

مشكلة التقاعد في المجتمعات المتقدمة أضحت من المشكلات الاجتماعية العويصة. فكما أن العمل يعتبر من أهم الأشياء التى تنظم حياتنا، إلا أن القعود بلا عمل يعد قطعة من الجحيم. وقد أصبحت الوفاة بعد شهور من التقاعد أمرًا شائعًا حين يعجز المرء عن ملء فراغ حياته. ومع الزيادة المتوقعة في متوسط العمر، فإن الإنسان برغم كل شيء يفقد تدريجيًا جانبًا كبيرًا من قوته وجلده.. يضعف البصر وتنخفض كثافة العظام، ويسقط الشعر والأسنان، وتحدث آلاف المتغيرات في الأعضاء والأنسجة والخلايا. وتبقى فكرة الخلود مع ذلك وهمًا لا دليل عليه. ومهما أجهد العلماء أنفسهم فهناك حدود لعمر الإنسان لا يتخطاها. وهناك أسباب للموت لا يملك العلم منعها، حتى ولو كانت «تسونامى» التى انقضت على الملايين دون سابق إنذار فقضت على الآلاف منهم. وسوف يظل الموت مصدر قلق للإنسان وهاجسًا لا منجاة منه.

[٣]

في مهن عديدة يتقاعد الرياضيون والراقصون في الثلاثينيات والأربعينيات، وهى السن التى يحتاج فيها الواحد منهم إلى إعادة التدريب لتغير مجالات نشاطه. ويحتاج العمال والموظفون إلى إعادة التدريب ربما في الأربعينيات أو الخمسينيات. أما المديرون وكبار المسئولين فغيما بين الخمسينيات والستينيات. ويبقى السياسيون في مقاعدهم حتى مشارف السبعينيات.. هذا ما يحدث في الدول الصناعية والديمقراطية المتقدمة. أما عندنا فلا يعرف السياسيون متى يتقاعدون إلا إذا اضطرهم الموت إلى ذلك اضطرارًا، أو في حالة العجز الكلى الذى يصيب العقل والجسم معًا.. وقل لى بربك هل سمعت عن سياسى كبير أو صغير قرر اعتزال الحياة العامة في العالم العربى، أو تخلى عن موقعه الحزبى أو منصبه القيادى، إلا إذا وقع انقلاب عسكرى أو أقيل مغضوبًا عليه؟!

أما كبار الإعلاميين والأكاديميين وربما الممثلون والفنانون فيبقون إلى ما بعد السبعين مستفيدين من السنوات المبكرة في ممارسة المهنة، التى تعتمد على التدريب الذهنى والتنشيط العقلى، لتخفف في المراحل اللاحقة قدرًا من التوتر والاستسلام للبلادة والخمول وزحف الزمن وانهزام الآمال والتوقعات.

المثقف في الدول المتقدمة قد يترك موقعه أو يغير مهنته، ولكنه لا يتعرض - إلا في حالات استثنائية - لما يمكن أن يسمى بالمخاطر الذهنية التى تعوقه عن ممارسة نشاطه العقلى بحرية

كاملة فى أى مجال يقع عليه اختياره. فالقدرة المتجددة على التفكير التى تدرب عليها فى سنوات شبابه ونضجه، بما يقتضيه من إجراء أحاديث أو جمع معلومات، أو وضع الخطوط العريضة لكتاب يؤلفه أو بحث علمى يتقصى جوانبه، أو رواية ينسج فصولها، أو عمل فنى يبدعه.. لا تذهب هدرًا ولا تتعرض لضغوط وممارسات قمعية تقتل موهبته وتجفف ملكاته وتشوه معارفه.

وعلى العكس من ذلك ما يلاقيه المثقف فى أوطاننا العربية من عنت ومشقة. فالقابض على حريته العقلية والفكرية كالقابض على الجمر.. المثقف العربى أيًا كان مجال نشاطه، لابد أن تسلمه الأحوال والظروف المحيطة به إلى حال من الضجر السياسى، والإملاق الفكرى، والإجهاد العقلى، والقرف النفسى، أو إلى حالة من الذهول وعدم الاكتراث، فلا يبقى لديه رغبة فى التفكير أو الصبر على الحوار والجدل، وهى حالة لا تجدى معها إعادة التدريب والتركيز التى تقتضيها عوامل الزمن.

حتى فى مجال العلم والبحث العلمى، يضيق الحصار المادى والمعنوى. فلا يستطيع العالم أو الباحث أن يسهم فى مجالات التقدم والبحث ما لم تتح له فرصة الخروج من الحصار المضروب حوله نتيجة نقص الأموال والإمكانيات والمعامل، وتعقيدات البيروقراطية، وعدم وجود مدارس رائدة للبحث العلمى. ولذلك لم يكن غريبًا أن تخرج الجامعات ومراكز البحث علماء ذوى سمعة دولية مرموقة فى مراحل سابقة، وأن تشهد العقود الأخيرة من القرن الماضى هجرة ذوى الطموح من العلماء والباحثين إلى مراكز البحث والجامعات فى الخارج حين ضاقت حولهم الحلقات.. أكثر من ثلاثمائة ألف من العلماء والباحثين والمهنيين المصريين فقط يحتلون مواقع متقدمة فى جامعات أوروبا وأمريكا ومراكز أبحاثها. بينما تغيب عن قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة فى العالم أى جامعة مصرية أو عربية، وتغيب المؤسسات المساندة، وتنعدم تمامًا تلك العلاقة المركبة بين الصناعة والبحث العلمى، ويكثر الحديث عن فقدان القدرة على إنشاء قاعدة علمية رصينة فى أى بلد من بلادنا العربية.

هل يمكن استنساخ مثقف عربى
حر ليبرالى فى الظروف السياسية الراهنة؟
هل يمكن معالجة الجينات لأجيال من المثقفين
ولدت وترعرعت إما فى السجون والمعتقلات،
أو فى وزارات الإعلام والثقافة؟

[٤]

يستيقظ المثقف العربى على واقع يتغير بسرعة شديدة، تضيع فيه الهويات والخصوصيات أو تندمج فيه الثقافات، وتبسط العولمة قوانينها، حيث يتدفق رأس المال عبر الحواجز الجغرافية والقومية. ويبدو العالم متصلاً ومنفصلاً فى آن، مندمجًا ومتشطرًا فى وقت واحد. ومازالت المجتمعات العربية عاجزة عن التعايش مع هذه الأوضاع المتغيرة التى تعم العالم، غارقة فى جدل لا ينتهى بين عالمين متخاصمين: عالم تراثى إسلامى وعالم حداثى تقدمى. وفى ظل هذا الجدل الصاخب أخفقت المجتمعات العربية فى فض الاشتباك بين الطرفين، وفى تشكيل رأى عام متجانس فكريًا وثقافيًا واجتماعيًا. مما أدى إلى نشوء جزر فكرية واجتماعية منعزلة، وشوارع خلفية للفقر والجهل والمرض، وأحياء صفيحية تحت خط الفقر الفكرى والمعرفى، لا تجد لها سلوانًا إلا فى الغيبيات الروحية أو فى الأوهام المصطنعة بفعل مخدرات مادية أو معنوية. وقد استغلت النظم السياسية هذا الانقطاع المعرفى بين العالمين لتحكم قبضتها على المجتمع، مستعينة بسلطان الثقافة والمثقفين من ناحية وبسلطة الدين وعلماء الدين من ناحية أخرى، لتضع الطرفين فى صراع تنافسى للتقرب من السلطة الحاكمة واغتراف المكاسب منها.

وعلى الرغم مما بذلته النظم الحاكمة فى العالم العربى من جهود للاقتداء بالأشكال الحداثية فى ممارسة السلطة، مثل السماح بقيام أحزاب سياسية، ومنظمات للمجتمع المدنى، ونقابات مهنية، واتحادات عمالية.. إلا أنها نجحت فى تجويفها وتوظيفها لخدمة الفئة الحاكمة. وهى تستخدم نفس الأدوات التى تستخدمها النظم الديمقراطية مثل الانتخابات والاستفتاءات، ولكن لا بأس من التحايل والالتفاف عليها، عن طريق غابة متشابكة من القوانين واللوائح، لتصب فى قالب واحد وتسير فى طريق وحيد بغير منعطفات أو تقاطعات بحجة الحفاظ على السلام الاجتماعى ووحدة الصف. وهكذا فلا مجال للاختلاف فى الرأى أو المناقشة والحوار والمساءلة والشك.. فالحقيقة واحدة فى كل الأحوال، والقيادة هى وحدها المخولة بإقرارها أو نقضها واستبدالها. وكل محاولة غير ذلك مقضى عليها بالإقصاء ثم الموت.

[٥]

وفى كتابه «يوميات الواحات» للروائى المبدع صنع الله إبراهيم، تطالعنا صور حية واقعية للظروف والملابسات التى شكلت وأنتجت عددًا كبيرًا من المثقفين المصريين الذين عاشوا القهر السياسى والموت المعنوى والتعذيب الجسدي والنفسى فى الستينيات، حين كانت مطاردة اليسار الماركسى واليمين الإسلامى هى الشغل الشاغل لنظام الحكم، باعتبارهما مصدر الخطر الأول الذى يهدد الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر. وهو ما تكرر بصورة أو بأخرى فى سائر البلدان العربية. ولم تنجح أساليب القمع والمنع، والاعتقال والسجن إلا فى تعميق الهوة بين المثقف والنظام وإيجاد جو من العداوة وانعدام الثقة، أفرزت فى النهاية ألوانًا من التطرف والتعصب فى ناحية، أو النفاق والانتهازية فى ناحية أخرى.

وبعد ما يربو على أربعين سنة لا يكاد الموقف يختلف كثيرًا. ربما زالت بعض مظاهر العنف الوحشى الذى دأبت الأجهزة الأمنية على ممارسته مع المثقفين وغيرهم. وربما عادت للقضاء على بعض مظاهر هيبته واحترامه. وربما تطور الفكر السياسى نحو القبول بقدر من الاختلاف والتنوع. ولكنه اختلاف يبقى داخل إطار النظام السياسى الذى يمثله حزب واحد يحتكر السلطة من نصف قرن، ولا يتعدى حدوده.

ومن هنا ظهرت فى العالم العربى وبدرجات مختلفة، فكرة توظيف المثقفين وإغرائهم بالمكاسب والمناصب، وإغراقهم بالأموال والمنافع، ليتخرج الواحد منهم فى مدرسة النفاق واللعب مع الكبار. إنهم «مثقفون تحت الطلب» أصابتهم حالة الإعياء الثقافى فلا يخجل الواحد منهم من التباهى بذلك. ولا بأس من أن يكون للواحد منهم وجهان أو وجوه متعددة. فصاحب الوجه الواحد والقلم الواحد والرأى الواحد غريب عن العصر والمجتمع، يجرى وراء سراب للحقيقة والصدق لا وجود له وصاحب الوجود المتعددة مرشح لكل المناصب والوظائف فى كل العهود.

وإذا كان البعض قد أطلق لقب «فقهاء الاستبداد» على المثقفين الذين زينوا للثورات التى شهدها العالم العربى السند القانونى لتجاوز الدستور والخروج عن الشرعية الدستورية إلى ما سمى بالشرعية الثورية، فنحن الآن بصدد طراز جديد يطلق عليه «ترزية القوانين» يسايرون طبيعة التغيرات التى طرأت على المجتمع، مهمتهم تطويع القوانين والدساتير وتفريغها من مضمونها لخدمة أهداف النظام، وتثقيف أو تزييف الوعى العام، وإن فى ظروف أكثر انفتاحًا وبأساليب أكثر دهاءً والتواءً وتمسكًا بمنطق «التقية».

[٦]

فى هذه الأجواء، هل يمكن أن يكون ثمة اختلاف بين معالم الحياة الثقافية فى أى بلد عربى ومعالم الحياة السياسية فيها. وهل يمكن أن تقوم نهضة ثقافية دون نهضة سياسية أو العكس؟.. وهل يمكن استنساخ مثقف عربى حر ليبرالى فى ظروف سياسية مترعة بالفساد والغش والجشع واكتناز المنافع الذاتية؟ هل يمكن معالجة الجينات الوراثية لأجيال بأكملها من المثقفين والمفكرين ولدت وترعرعت إما فى السجون والمعتقلات، أو فى مخازن وزارات الإعلام والثقافة، أو تحت حصار معسكرات الأمن المركزى، أو فى أحسن الأحوال فى مستودعات المناطق الحرة ومجالس الإدارات العابرة للقارات والمحيطات؟ أم أن اعتزال المثقف وانعزاله هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بسلامة العقل والتوازن النفسى؟

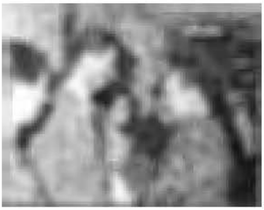
وفى النهاية يبقى السؤال: كيف يستطيع المجتمع العليل أن يستعيد بأبنائه ومثقفيه صحته العقلية حتى ولو استعاد صحته الجسدية؟ ومتى يخرج المثقف العربى من ورشة اليأس التى أكرهت الشاعر الكبير حافظ إبراهيم فى لحظة من لحظات الضيق والضجر على أن يحطم قلمه ويقيل يراعه:

حطمت اليراع فلا تعجبى
وعفت البيان فلا تعتبى
وكم فيك يا مصر من كاتب
أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت
فقد ضاق بى منك ما ضاق بى ■

هروب عالم عراقي



التنقيب عن اليورانيوم شمال العراق ١٩٧٦



انصهار يلتقي وسامًا ١٩٩٦

■ عامان على «الحرب على العراق»..

مياه كثيرة جرت في النهر. بعضها عذب.. وبعضها بمرارة العلقم.. ومعظمها بلون الدماء.

وبغض النظر عما انتهت إليه الأمور: حلوها ومرها، وأيًا ما كانت درجة التباين في وصف ـ ثم فهم ـ ما جرى ويجرى. والمترتب على اختلاف طبيعى في زاوية النظر، تبقى حقيقة أن حجر الزاوية في حجة الذين ذهبوا إلى الحرب قبل عامين هي امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. والقصة الطويلة ـ كثيرة التفاصيل معروفة.

على هامش القصة تبقى هناك حقيقة أن نهضة علمية حقيقية كانت تتراكم في العراق على مدى عقود. وأن العراق ربما كان في وقت من الأوقات الأغنى بين الدول العربية بعلمائه وخبرائه. خاصة في مجال الفيزياء والكيمياء وغيرهما من العلوم الطبيعية.

أين هم علماء العراق الآن؟ بعد عامين من الحرب، وعقد من الحصار، وسنوات من الاستبداد؟

تختلف الإجابات. ولكنها تتفق في مرارتها: فعشرات منهم باتوا هدفًا لرصاصات اغتيال غامضة لا يعرف أحدٌ أبدًا من وراءها. ومنهم من يقبع في سجون الاحتلال بتهمة أن «وطنه حاول الاستفادة من علمه..»(!) ومنهم من فر ـ أو كان قد فر ـ هربًا من فوضى الحرب، أو سغب الحصار، أو قهر الاستبداد. ومنهم من ساوموه أو راودوه عن علمه: دولٌ فوق الأرض، أو منظمات تحتها. وعلى الاختلاف بين هؤلاء وهؤلاء، تبقى لكل منهم قصة.

عماد خدورى الحائز على درجة الماجستير بالفيزياء من جامعة ميتشجان في الولايات المتحدة الأمريكية. والدكتوراة في «تكنولوجيا المفاعلات النووية» من جامعة برمنجهام في بريطانيا. رافق برنامج العراق النووى منذ نشأته حتى دماره، وكان على تماس مباشر مع جهازه الفعال طوال ثلاثين عامًا (١٩٦٨ ـ ١٩٩٨) قبل أن يعصف به استشراء فساد هو توأمٌ ـ بطبيعة الأمور ـ لاستبداد كان طبيعيًا أن يضع العراقَ كله على طريق مظلم.

من منفاه الاختياري ـ أو «القسري» إذا شئنا الدقة ـ خاض خدورى معركةً خاسرةً قبل عامين ليحاول تنبيه العالم ـ بحكم اطلاعه على التفاصيل ـ أن «لا أسلحة للدمار الشامل هناك» فأرسل بمقالات موثقة إلى كبريات الصحف العالمية وقت أن كان بوش يروج لحربه، ولما لم تجد مقالاته طريقها للنشر (في صحف اعتذرت بعد ذلك عن أنها ذهبت بعيدًا في تأييدها للحرب) لجأ خدورى إلى الإنترنت: النافذة الواسعة. فعرفه المهتمون من رواد الشبكة العنكبوتية قبل أن ينشر في كندا قبل أكثر من عام كتابًا ضخمًا بعنوان Iraq's Nuclear Mirage (نشرت ترجمته العربية في بيروت حديثًا عن الدار العربية للعلوم) يفصل فيه حكاية البرنامج النووى العراقي كيف نشأ. ولأى غرض. وكيف انتهى.. وكيف تداخلت القصة الطويلة مع تعقيدات السياسة وحسابات القوى في منطقتنا. وكيف أثرت على كثير من فصولها أطماع وأهواء وخيانات.

في تورنتو / كندا.. إحدى زوايا الشتات الكبير الذي تفرق فيه من تفرقت بهم السبل من علماء العراق وخبرائه، حطت راحلة عماد خدورى. وهنا يحكى لنا كيف انتهى به الأمر هناك؟

قصة الهروب، والبحث في بحار الله الواسعة عن مرفأ ـ والتي لعلها تكررت مع غيره وإن اختلفت التفاصيل ـ تظل مثيرة وكارثية. وهنا يحكى لنا عماد خدورى بلغة روائية لافتة بعضًا من مشاهدها: قصة هروب عالم من وطنه إلى (...)

لا توجد تسمية دقيقة. ■

المحرر

■■ أثناء السنوات القلائل التي عقبت حرب ١٩٩١، بدأ أقران نيران (زوجتي) في كلية المنصور الجامعة، حيث كانت تدرس علم لغات الحاسوب، بالاختفاء تدريجياً من العراق. غادر البعض بطريقة شرعية عبر الأردن والبعض الآخر بالخفية والكتمان. وبما أن السفر الجوي كان ممنوعاً بسبب العقوبات المفروضة على البلاد خلال التسعينيات، انحصرت طرق الهروب عن طريق المهربين الأكراد في الشمال عبر تركيا، وكان أحد هؤلاء خضر حمزة الذي درس في ذات الكلية مع نيران، أو المخاطرة الجسيمة عبر طريبيل، نقطة الحدود إلى الأردن، المصانة من قبل ضباط الأمن والمخابرات.

كانت نيران تنقل الى أنباء تسرب زملائها بأسلوبها المقتنع العادي. إلا أن ما أثار انتباهنا وحفزنا على التفكير جدياً هو نبأ اختفاء صديقة نيران المقربة، سميرة كتولة وزوجها توفيق مع أطفالهما، على حين غرة. كان الاثنان من حملة شهادة الدكتوراة، كما سبق أن عملا في منظمة الطاقة الذرية العراقية في الثمانينيات من القرن الماضي. قررنا أن نبحث عن الطريق الذي سلكاه، لعل وعسى أن يرشدنا إلى محاكاته.

تنتقل الأخبار بسرعة في بغداد حيث يصعب إخفاؤها، صحيحة كانت أم مجرد ثرثرة وإشاعة، إلا فيما ندر من قصاصات أخبار أجهزة المخابرات والأمن. دلتنا الأنباء على أن هناك من يدعى أبو عبدالله في مدينة الموصل كان الوسيط والقناة التي تسربت من خلالها تلك العائلة إلى الخارج. واستطعت بواسطة ابن عمي سلام خدوري الذي أوصلني إلى بعض المهربين الأكراد من التأكد من ذلك النبأ. أضف إلى ذلك أن أبا عبدالله كان مسيحياً، وبالتالي أجدر بالوثوق بالنسبة لنا.

في نفس الوقت الذي كنت ونيران نفكر فيه بطريقة نزوح عائلتنا، كان علينا أن نجد الحل لبعض المشاكل العويصة. المشكلة الأولى التي واجهتنا هي أن عمر نيران في ذلك الحين كان ٤٣ سنة، وكان القانون يمنع أي امرأة دون سن الخامسة والأربعين من مغادرة البلاد إلا بصحبة الزوج أو الأب أو الأخ أو العم أو الخال. كان السبب المعلن لذلك هو الحد من سفر بنات الهوى العراقيات إلى الخارج. أضف إلى ذلك المشكلة الثانية وهي حصول نيران على شهادة الماجستير في علم الحاسوب مما يعرقل نيلها تأشيرة خروج بسبب صدور قانون يحظر

"Iraq's Nuclear Mirage: Memoirs and Delusions"
Imad Khadduri
Ontario: Springhead Publishers, 224pp., 2003

وقد صدرت ترجمته العربية تحت عنوان «سراب السلاح النووي العراقي ـ مذكرات وأوهام». عماد خدوري عن الدار العربية للعلوم ببيروت، ٢٠٠٥.

فأصبح خاليا من العلماء

عماد خدوري

منحها للمدرسين الجامعيين الحاملين شهادات الماجستير أو الدكتوراة. إلا بموافقة وزير التعليم العالي والبحث العلمي، للحد من تسريبهم إلى الخارج. والمشكلة الثالثة والأصعب تمثلت بالاسم، إذ حيكت أسماء أفراد عائلتي بملفي الشخصي الموجود في أجهزة المخابرات والأمن. لذا فإن أي محاولة للحصول على تأشيرة سفر لأي فرد منهم سوف تثير انتباه تلك الأجهزة وتُعلن عن الرغبة في السفر بدون الحصول على الإذن المُسبق منهم.

وبالرغم من عدم قناعتنا التامة في الهروب عن طريق الشمال بسبب ما سمعناه من خطورة عبور الحدود العراقية التركية عبر طرق برية خافية تحت رحمة المهربين، سافرت مع نيران إلى الموصل لمقابلة أبي عبدالله وزوجته، مصففة الشعر ذات الشخصية المُسيطرة. حملت معي جوازات سفر افراد عائلتي فقط، والتي حصلت عليها بعد حرب ١٩٩١ بأسبوع تحسباً لمثل هذه الظروف، إذ كان جواز سفري في خزانة مدير أمن هيئة التصنيع العسكري. انتشرت في غرفة استقبال أبو عبدالله أدوات العمل التي يستعملها في مهنته هذه من جهاز تصوير فوري وحبر أبيض (محو الحبر) وأصناف من المحايات والأقلام واستمارات طلب تأشيرة الخروج فارغة ومهيأة للتعبئة. وأثناء تناولنا الشاي، تناول هو الجوازات التي معنا وجلس ليملأ طلبات تأشيرات الخروج لنيران والاولاد. أكد لنا أبو عبدالله بأن إصدار تأشيرة الخروج لنيران من مكتب جوازات الموصل ستتغلب على كافة مشكلاتها إذ انه سيضمن عدم وصول معلومات طلبها لتأشيرة الخروج، ولأولادنا أيضاً، إلى قاعدة معلومات أجهزة المخابرات في بغداد. وأخذنا بكل ثقة لزيارة مكتب جوازات الموصل، الذي يبعد بضع خطوات عن منزله، حيث لاقى ترحيب العديد من ضباط الأمن الذين اغتبطوا لرؤية دخل إضافي يأتيهم بواسطة أبي عبدالله والذي تمكن أن يحصل بسرعة على كافة الأختام والتواقيع الضرورية على استمارات طلب التأشيرة التي يحملها لأفراد عائلتي. عرض علينا أبو عبدالله وزوجته السيناريو التالي للهروب، باستطاعته تأمين وصول نيران والأولاد إلى بيروت عبر تركيا وسوريا. في لبنان، علينا التماس مساعدة الجمعيات الخيرية المسيحية، وزودونا بأسماء بعض الكهنة هناك، للحصول على معاملات هجرة إلى إحدى الدول الغربية، وأيضاً عبر جمعيات خيرية مسيحية دولية، بعد الذهاب أولاً إلى أي من الدول المجاورة مثل إيطاليا أو اليونان أو قبرص. وإذا دفعنا من المبالغ بما فيه الكفاية، يمكننا أن نتقدم، من خلال الجمعيات المسيحية في لبنان، بطلب للحصول على الجنسية اللبنانية بصفتنا المسيحية. وادعى عبدالله بأن سميرة وتوفيق غادرا بهذه الطريقة إلى قبرص حيث كانا ينتظران المعاملات اللازمة للسفر إلى المملكة المتحدة. توقفت (واسطة) أبو عبدالله ونفوذه عند حدود مكتب جوازات الموصل. اعتذر عن إصدار جواز سفر مزور لي بسبب علاقتي الحساسة مع منظمة الطاقة الذرية العراقية وورود اسمي في العديد من قواعد معلومات أجهزة الامن والمخابرات. كان علي أن أجد وسيلة للهروب بنفسي وبدون تدخله. شاركنا مضيفينا طعام الغداء، ولم يتبق علينا سوى دفع مبلغ ألف دولار لكي تُختم تأشيرات الخروج على جوازات السفر نفسها. اعتذرنا من أبي عبدالله وزوجته لحاجتنا إلى الرجوع إلى الفندق لقضاء قيلولة الظهر ولتسنح لنا الفرصة في التفكير ملياً في عرضهما.



بعد مرور عامين على تلك المحاولة، دُعينا أنا ونيران إلى مناسبة وداعية في بيت شقيقة نيران، ناريمان وزوجها سعد يونو. كان الحفل على شرف صديق لكلينا، خالد رومايا، المهندس الميكانيكي الماهر في مشروع PC٣، الذي كان في طريقه للسفر مع عائلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. استغربت كثيراً الأمر - كيف استطاع خالد أن يحصل على جواز سفره؟ اخذني خالد جانباً وهمس في أذني التفاصيل المثيرة. في بادئ الأمر، استطاع أن يحصل على كتاب التقاعد بحجة تعرضه لمشاكل صحية كان يعانيها منذ سنين. ثم استطاع أن يكسب ثقة خالد رشيد، مدير جهاز الأمن في هيئة التصنيع العسكري والذي يعمل في الواقع تحت إدارة جهاز المخابرات. فبعد دمج مشروع PC٣ مع هيئة التصنيع في العام ١٩٩٣، أصبح جميع موظفي المشروع تحت إشراف خالد الأمني ونقلت ملفاتهم الأمنية الشخصية من منظمة الطاقة إلى هيئة التصنيع. كل ما لزم للحصول على الجواز هو دفع مبلغ ٤٠٠ دولار لقيام خالد رشيد بتسهيل الأمر من خلال استغلال ثغرة إدارية في تعليمات جهاز المُخابرات لأمن هيئة التصنيع العسكري. وكان لدى مكتب الأمن في هيئة التصنيع صلاحية عليا على مديرية الأمن العام التي تصدر جوازات السفر. حتى لا يغرق جهاز المُخابرات في خضم مُعاملات الموافقة على منح جواز السفر للعديد من منتسبي هيئة التصنيع، فقد وضع الجهاز خطوطاً عريضة لخالد رشيد في هذا المجال حيث طلب منه أن يرفع إليهم فقط تلك الطلبات المستوفية للشروط (بمعنى من أمضوا عامين بعد إحالتهم على التقاعد) لكبار الموظفين، أي بمستوى مدير عام فما فوق للنظر فيها ومنحهم الموافقة. فيما عدا هذه الفئة، فقد ترك لخالد أمر التصرف ببقية الطلبات ومنح الموافقة بعد تأكده من استيفاء الشروط لطالب الجواز آخذاً بعين الاعتبار حساسية طالب الموافقة من المعلومات المتوفرة عنه في ملفه الأمني. سهل مبلغ الأربعمائة دولار في التقليل من حساسية منصب خالد رومايا، الذي لم يكن مديراً عاماً، إلى المستوى الكافي لإصدار الموافقة من قبل خالد رشيد والإيعاز إلى مديرية الأمن العام بمنح خالد الجواز وتأشيرات الخروج له ولأفراد وعائلته.

ودعنا خالد رومايا بعد أن ترك لي رقم هاتف خالد رشيد الخاص، مع نصيحة بأن أذكر اسمه وأنه هو الذي أعطاني الرقم عندما اتصل مع خالد. كنت قد حصلت على كتاب التقاعد في تلك الفترة وأعمل مع منظمة الصحة العالمية، وأعد الأيام لانقضاء فترة العامين. كان لا يزال أمام أكبر أولادي عامان حتى ينهيا الدراسة الثانوية. احتفظت في مكان أمين برقم هاتف خالد رشيد.

في البيت المجاور لمنزل ناريمان، كانت تسكن شقيقة نيران الثانية، نورهان وزوجها عامر سمعان الذي يحمل شهادة الماجستير في علم الإحصاء ويعمل في تصميم الصواريخ في مركز يعود إلى هيئة التصنيع العسكري. لعامر شقيق أكبر كان قد حصل على الجنسية الأمريكية قبل عدة أعوام، وعمل على اثرها على الحصول على موافقة السلطات الأمريكية على هجرة أخيه عامر الموجود في بغداد، ووصلت الموافقة فعلاً إلى السفارة الأمريكية في عمان. لم تنحصر مشكلة عامر في الحصول على جواز السفر بسبب انتمائه لمركز حساس في هيئة التصنيع العسكري وانما لم يكن عمر نورهان قد تجاوز الأربعين سنة. أضف الى ذلك، لم يكن لديه من قوة الإرادة ما يكفي، حسب رأيي الشخصي، في الإقدام على مغامرة الهروب مع بناته الثلاث من الشمال أو عن طريق طريبيل.

بحكم علاقة الجوار مع الجيران، علم عامر ونورهان بأن شخصاً مسيحياً يدعى باسم يسوع بطرس، والذي سندعوه بعد الآن بلقبه أبو ديار، قد استطاع أن يرحل بعض أفراد الجيران، الذين كانوا ممنوعين من السفر، إلى الأردن وبدون أي متاعب. اتصل عامر ونورهان بأبي ديار. بكل ثقة في النفس، وهدوء في القرار، تمكن أبو ديار عن الإمساك بالأمور وبتلابيب عامر. وسلمه جواز سفر فيه صورته ولكن باسم خال نورهان ويخوله مصاحبتها إلى خارج العراق، بحكم كونه خالها. في ذات الوقت، سلم أبو ديار إلى عامر جوازاً صالحاً يحمل اسمه الحقيقي إلا أنه لا يستطيع استخدامه في العراق لكنه يصلح للسفر متى ما صار خارج القطر. بالاستعانة بجواز (الخال)، غادرت العائلة العراق وتمكن أبو ديار من ختم جواز عامر الحقيقي عند الخروج من طريبيل ليبرزه عند دخول منطقة الرويشد الحدودية الأردنية. بقي أبو ديار

مع عامر وعائلته حتى انتهاء معاملة هجرتهم ثم عاد إلى بغداد بعد سفرهم. بلغت أجرة مساعدة أبو ديار لعامر ألف دولار.

كانت تلك التجربة برهاناً مُقنعاً لي ولنيران.

بعد الاستخبار عبر قنواته الخاصة، أعرب لنا أبو ديار عن إمكانية حصوله على تأشيرات الخروج لجوازات سفر نيران والأولاد الجاهزة بدون لفت أنظار أجهزة الأمن والمخابرات، إلا أن مركزي الحساس في منظمة الطاقة الذرية ومشروع PC3 شكّل له صعوبة أكثر بكثير من حالة عامر في هيئة التصنيع العسكري، إذ ظهر اسمي بصورة مترابطة في العديد من قواعد معلومات الأمن والمخابرات، مما أعاق قدرته على إصدار جواز سفر باسمي الأصلي، كما فعل لعامر، بالرغم من سعة دائرة علاقاته الخاصة بهذا الشأن. تأكد له بأن الطريق الوحيد لإصدار جواز رسمي لي هو عن طريق وموافقة دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري. عرض على أبو ديار إصدار جواز سفر باسم مستعار، وبهذه الوسيلة يمكنه إخراجنا جميعاً من العراق سوية عبر طريبيل، وبسر.

لم أكن أميل لذلك الخيار، إذ كنت أصر دائماً على مغادرة العراق بطريقة شرعية، ولم يكن لدي ما أخفيه أو أخجل منه حتى أبدل هويتي وأعاني من تشابكها لاحقاً، خاصة أني كنت قد أحلت إلى التقاعد وبدأت عداً عكسياً لقضاء فترة العامين المطلوبة قبل التقدم رسمياً للحصول على جواز سفر أصيل، ولا زال أمام أولادي عام أو عامان قبل موعد التحاقهم بالجامعة. وعليه أعلمنا أبو ديار أنه بإمكاننا الانتظار إذ كنت ونيران في ذات الوقت نبحث بصمت عن الجهة التي نقصدها ما بعد الهروب. احترم أبو ديار رغبتنا وأبدى استعداده لتقديم أية معونة، رغم أن بوابات طريبيل الحدودية كانت تغلق يومياً شيئاً فشيئاً وبإحكام.

نزولاً عند رغبة نيران وتشجيعها المستمر لتقديم معاملة ما، ملأت أخيراً طلب هجرة إلى كندا على صفحة معلومات واحدة. أرسلت الطلب سراً في العام ١٩٩٥ إلى القنصل الكندي في عمان بواسطة صبحي أيوب، الصديق الأردني المخلص الذي نثق به ونعتمد عليه كثيراً. انتظرنا جواب القنصلية الكندية طيلة ما يقرب من عام، وبالرغم من رسالتي تذكير، إلا أننا لم نتلق أي جواب. لم يكن ذلك مجرد انتظار بل أعصاباً متوترة وآمالاً هائمة حيث إن صبحي كان يسافر إلى عمان ويعود كل شهرين بخفي حنين.

اعتماداً على صبحي، استطعنا أن نبعث بطلب نيران للهجرة، وعندما رجع من عمان بعد أسبوعين سلمنا طلب الهجرة الكندي الرسمي المكون من أربع صفحات. إن حصول نيران على شهادة الماجستير في علم الحاسوب التي أصدرت عليها عندما تزوجنا في العام ١٩٧٦، مهدت لنا درباً غير متطور، ومنحت أسرتنا منعطفاً جديداً في الحياة.

مع اقتراب نهاية العامين من إحالتي إلى التقاعد واستيفائي لشرط الحصول على جواز السفر، أعد خالد رشيد كتاباً سرياً إلى مديري جعفر ضياء جعفر يطلب منه البت فيما إذا ما زال بحوزتي معلومات سرية عن برنامج السلاح النووي قد تحول دون إصدار جواز السفر، وأرسله باليد إلى مكتب جعفر لتفادي البريد الرسمي. وبناء على نصيحة من خالد، تابعت سير الإجابة على الكتاب عند كل منعطف ومحطة، مشيراً بكياسة إلى أصدقائي الذين يتعاملون مع الموضوع في مكتب جعفر بالحفاظ على كتمان مضمونه حتى لايصل أمره إلى جهاز المخابرات، إذ إنه بالرغم من أن صلاحيات خالد كانت تخوله بمتابعة أمر رفع منع السفر للمنتسبين الذين هم في مستواي الإداري، إلا أن كشف أمر الرسالة لعيون جهاز المخابرات قد يعيق جهده في استغلال الثغرة الإدارية المتاحة له.

أصدر خالد أمر رفع منع السفر وبمنحي الجواز إلى مديرية الأمن العام، وأبلغني برقم الأمر وتاريخه حتى أتأكد من وجود أحد أعوان أبي ديار ليتتشلوا هذا البريد الخاص فور وصوله ويتعاملوا معه بهدوء. فوجئت مديرية الأمن العام بأمر سحب اسمي من قائمة الممنوعين من السفر حيث إن معلوماتهم كانت تشير إلى أهمية دوري في البرنامج النووي وطلبوا من خالد تأكيد رفعه منع السفر عني، أجابهم خالد رشيد مباشرة وبلهجة حادة مؤكداً صلاحياته فوق مديرية الأمن العام، فامتثلوا للأمر.

فجأة ظهر أمامنا حائط مسدود لم نتوقعه. لم يستطع أبو ديار إكمال معاملة إصدار جواز السفر لأني كنت قد حصلت سابقاً على جواز سفر دبلوماسي، ولا يمكن إصدار جواز مدني إلا بعد إعادة الجواز الدبلوماسي. كنت قد سلمت ذات الجواز إلى وزارة الخارجية لإعادته إلى دائرة الجوازات فور إحالتي إلى التقاعد وحصولي على براءة الذمة من وظيفتي في وزارة الخارجية. إلا أن دائرة الجوازات لم تتسلم ذلك الجواز الدبلوماسي.

عدت إلى وزارة الخارجية حيث صرفت عدة أيام عصيبة أراجع فيها الملفات الإدارية لما قبل عامين من الزمن. تبين أن الوزارة كانت قد أصدرت فعلاً كتاباً رسمياً بإعادة الجواز ومُرفقة معه الجواز نفسه. إلا أن لا الجواز ولا الكتاب قد وصلا إلى دائرة الجوازات. كانت تلك حيلة مسمومة أخرى قام بها أحد عملاء صلاح الحديثي المزروع في القسم الإداري الذي انتشل ذلك الكتاب وما يحويه ليتأكد صلاح الحديثي من عدم قدرتي نهائياً على نيل أي جواز سفر بعد أن يُفقد أثر الجواز الدبلوماسي. بعد حصولي على نسخة من الكتاب الرسمي بإعادة الجواز، مشفوعة برزمة من النقود، استطاع أبو ديار اختراق جدار الخبث اللئيم المنيع.

زارنا أبو ديار في أواخر شهر آب من عام ١٩٩٧ ومعه جواز سفر أصلي لي وعليه تأشيرة الخروج مُعلقاً: «إنك مدين طيلة حياتك إلى فضل خالد رشيد». عندما عرضت الجواز على خالد رشيد، تناوله من يدي وقبَّله. اشتريت له سيارة تقديراً لخدماته وقدمها بدوره هدية إلى اخيه. تباهى خالد في حينها بأنه يستطيع أن ينجز أكثر من ذلك من أجلي، إن لزم الامر، مثل فكُ قيد سجلات نيران والأولاد. إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل الذريع عندما طرقنا بابه لتنفيذ ذلك لاحقاً.

اقتضت خطة المُغادرة على إخراج نيران أولاً إلى عمان لتتمكن من مقابلة الكنديين وتحصل على موافقتهم لهجرة عائلتنا. ساعتئذ، أهرع بالخروج مع بقية العائلة لإكمال معاملة الهجرة والمغادرة فوراً إلى كندا لنتجنب إطالة الإقامة في الأردن خشية بطش عملاء المخابرات المنتشرين هناك. كانت إحدى الوثائق المطلوبة من قبل الكنديين هي شهادة حُسن السلوك من الشرطة العراقية تنص على أن نيران لم ترتكب جُرماً شائناً.

ارتكبنا حماقة لا مُبرِّر لها

قدمنا في ربيع ١٩٩٧ طلباً للحصول على تلك الشهادة رسمياً وبطريقة اعتيادية اعتقاداً منا، وبنيَّة بريئة، ان العملية بسيطة. إلاّ أنها سببت هلعاً لأبي ديار الذي كنا قد بدأنا نخطو أول خطوات تبادل الثقة معه وباشرنا في اطلاعه على خططنا لمغادرة العراق وعلى محاولة الحصول على أوراق الهجرة إلى كندا. إلا أننا لم نكن على دراية بما يحيط بنا من شباك ومصائد. فور ما أبلغنا أبو ديار عن أمر تقديمنا الطلب للحصول على شهادة حسن السلوك حتى هبَّ وأسرع إلى دائرة الشرطة ليسحب الطلب الذي قدمناه، لكنه أمسى متأخراً يوماً واحداً إذ كانت المعاملة قد بدأت مسيرتها والتي تبدأ بإعلام أجهزة المخابرات ومديرية الأمن العام تلقائياً بأمر ذلك الطلب الذي يدلّ على نية صاحبه الهجرة إلى الخارج. لم نكن في سذاجة براءتنا قد استنتجنا هذا المسار، علماً أن منح تأشيرة خروج لنيران، وبعد الحصول على موافقة سفرها بالرغم من شهادة الماجستير التي تحملها، يعتمد مباشرة على موافقة مديرية الأمن العام. أضف إلى ذلك أن مغادرتها الفعلية عبر الحدود العراقية تعتمد على موافقة جهاز المخابرات.

استدعانا ضباط مديرية الأمن العام لاستجواب نيران وأنا ثلاث مرات خلال شهر واحد. في كل مرة، كنا نُبلغ أبا ديار بموعد الاجتماع هاتفياً فيسرع هو إلى مقرهم في مركز شرطة منطقة بغداد الجديدة ليمهد الطريق أمامنا من خلال معارفه وعلاقاته في المركز وبشيء من النقود. كنا نصل إلى المركز أحياناً قبل خروج أبي ديار، ونبقى نحوم حول الموقع حتى نرى سيارته تغادر المكان لندخل بدورنا للاستجواب. أصبحت قضيتنا لدى رجال الأمن بقرة حلوباً تدر ليم بعض المال.

كان الأمر أشد صعوبةً عند جهاز المخابرات وريثما يرتِّب أبو ديار أمره هناك، طلبت مساعدة الصحاُف في هذا الأمر فتجاوب معي ودلَّني على صديق له متنفذ في جهاز المخابرات، اسمه محمد الدوري (أبو عمر)، ليتابع لنا مسار طلب حصول الموافقة على منح شهادة عدم المحكومية، قبل تعلق الجهاز بالأمر. إلا أنه سرعان ما اتضح بأن ملف نيران في جهاز المخابرات قد استقر، وبدون أي حركة، على مكتب أبو مهند، أحد كبار ضباط الجهاز والذي برز فيما بعد كألد الأعداء في منعي من مغادرة العراق. استطاع أبو عمر بدماثة خلقه أن يرتِّب لي عدة مكالمات هاتفية مع أبي مهند ليطلب مني في كل مرة إعادة شرح سبب ذهاب نيران إلى الأردن (وكان جوابي للحصول على عمل كأستاذة في إحدى الجامعات هناك) ويعدني بأن يرسل موافقته في اليوم التالي أو في الأسبوع القادم ويتركني أمل في حلول المطر صيفاً.

بحصولنا على الموافقة، ونيل أبي ديار

قال لنا أبو عبدالله إن باستطاعته تأمين وصول نيران والأولاد إلى بيروت عبر تركيا وسوريا. في لبنان، علينا التماس مساعدة الجمعيات الخيرية المسيحية، للحصول على معاملات هجرة للغرب



على إذن من مديرية الأمن العام، تمكن أبو ديار من الحصول على تأشيرة خروج لنيران صالحة لفترة شهر واحد تنتهي مدتها في السابع من أيلول عام ١٩٩٧. لم تستطع نيران الإيفاء بموعد المقابلة الأول مع الكنديين المحدد لها في تموز ١٩٩٧ بسبب هفوتنا الساذجة لاستصدار شهادة حسن السلوك من دوائر الشرطة بطريقة قانونية اعتيادية وتخبطنا في تصحيح الأمر. سافر صبحي أيوب إلى عمان لإيصال رسالة إلى الكنديين نلتمس المعذرة عن عدم الإيفاء بموعد المقابلة ونرجوهم انتظار وصولها إلى عمان قبل تحديد موعد مقابلة جديد لها.

زارنا أبو ديار ليلاً، وهو نادراً ما يقوم بذلك، وأبلغنا بأن على نيران أن تجهز للمغادرة خلال يومين. ووعدها بأن الحق بها مع الأولاد في غضون أسبوع من سفرها وحالما يكمل أمر تأشيرات الخروج على جوازات سفرهم. كانت تلك الفترة عصيبة وحافلة بالتوقعات لقرب انتهاء صلاحية تأشيرة خروج نيران في السابع من شهر أيلول. في صباح يوم السبت، السادس من أيلول، توقفت سيارة أجرة أمام بيتنا مع شروق الشمس حتى لا يلحظها أحد من الجيران. كان أبو ديار في سيارته الخاصة بصحبة صديقه أبو هديل الذي كان في طريقه إلى طريبيل ليباشر العمل كرئيس قسم الجوازات في النقطة الحدودية. غادر أبو هديل ونيران في سيارة الأجرة بعد وداع ما بين منذر ومبشر. عند وصولهم إلى طريبيل، اعترض أحد ضباط الجوازات على عبور نيران الحدود، رغم كتاب السماح الذي تحمله من مديرية الأمن العام، لعدم تبيان بيانات الحاسوب على الشاشة أمامه لإذن جهاز المخابرات. تدخل أبو هديل وأمره بالاتصال هاتفياً مع مقر مديرية الأمن العام في بغداد، حيث كان أصدقاء أبو ديار على الجانب الآخر من الهاتف في الانتظار. أكد له ضابط الأمن في بغداد أمر وجود موافقة جهاز المخابرات ووعده بإرساله له عند تحديث بيانات الحاسوب اليومية عصر ذلك اليوم، وبالفعل تم ذلك لاحقاً. بعدها رافق أبو هديل نيران حتى الحدود الأردنية.

رغم فرحتنا العارمة، التزمت أنا والأولاد الصمت وبدأنا بتجهيز حقائبنا ريثما ينتهي أبو ديار من متابعة تأشيرات خروج الأولاد. كان عليه أيضاً إصدار جواز سفر جديد لنوفة التي كانت مدرجة في جواز سفر أمها لأنها كانت في الخامسة من العمر عندما أصدرت جوازاتهم عام ١٩٩٦. عمل أبو ديار وصحبه في الأمن على تعديل بسيط في الرسالة التي أرسلها خالد رشيد بحيث أضافوا أسماء أولادي الثلاثة في نهاية كتاب الموافقة الصادر بشأني. كانوا على أشد الحذر من عيون ووشاية ضباط جهاز المخابرات المزروعين في صفوف ضباط مديرية الأمن العام.

حدد أبو ديار يوم الخميس الموافق الحادي عشر من أيلول لمغادرتنا غير المعلنة. خلقت الأعذار للغياب من العمل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومن مكتب الحاسوب مع حسام. عند ظهيرة يوم الأربعاء، وبينما كدنا ننتهي من تحضير حقائبنا، دخل علينا سعد يونو زوج ناريمان شقيقة نيران، وقد ابيض لون وجهه الأسمر. تنحى بي جانباً لينقل إلي الخبر التعيس.

في ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء، وصل رسول شخصي من مكتب المساعد الخاص لصدام حسين، وسكرتيره الموثوق به، عبد الحميد محمود حمود (سأشير إليه من الآن وصاعداً بلقبه المعروف به، عبد حمود. والذي أسر بدون أي مقاومة في منزل في تكريت في حزيران من العام ٢٠٠٣) يحمل أمراً مكتوباً بخط اليد، وممهوراً بتوقيع عبد حمود نفسه، يطلب فيه مصادرة واستلام جوازات كل من يمامة وتمام ونوفة عماد خدوري.

قبض رسول عبد حمود على جوازات السفر الثلاثة وغادر دائرة الأمن العامة. استدعى ضباط الأمن المذهولون أبا ديار على الفور في منتصف الليل وباشروا بعجالة في محو أي أثر لمعاملة إصدار جواز نوفة وتأشيرات الخروج كيلا يداهموا في الصباح التالي بحملة تفتيشية لتفحص كيفية الإصدار والكشف عن تواطؤ أبو ديار وصحبه في ذلك. سهروا طوال تلك الليلة وأفلحوا في تطهير كل الآثار قبل فتح أبواب الدائرة في الثامنة من صباح اليوم التالي. صدم أبو ديار بهذه التطورات واتصل بسعد لإعلامي بالنبأ وتحفظه عن مقابلتي شخصياً لبعض الوقت ريثما يتحرى عن مصدر تسرب خبر السفر والعمل على تهيئة الجوازات.

صعقت بهذا الخبر وحدقت ملياً بأولادي الذين تجمعوا أمامي. ثم أخذت نفساً عميقاً جداً إذ أدركت على الفور عمق الحفرة التي سقطنا فيها. الآن قد بدأت رحلتنا مع الألم والعذاب. كل ما جرى من قبل بدا وكأنه نزهة عابرة.

بعد مرور عدة أيام من الانتظار المشوب بالقلق الشديد، وبما اطمأن أبو ديار أن الوشاية لم تصدر من داخل مديرية الأمن العام نفسها، اتصل ليبلغني بكل ثقة أن مصدر ما حدث هو إما أحد الجيران الجواسيس أو من خلال أحد زملاء نيران في الكلية ممن افتقدوا حضورها في العمل ووصل الخبر بسرعة فائقة إلى عبد حمود. أشد ما أزعج أبو ديار هو درجة حساسية وضعي التي أوجبت هذا التسلسل من الإجراءات غير المسبوقة. حاول مرة ثانية أن يقنعني أنه ما دامت دروب الهرب مفتوحة أمامه بفضل علاقاته الواسعة حتى ذلك الحين، فإنه يحثني بالأخذ بنصيحته والسفر بجواز مزور وباسم آخر. أعدت مراجعة تحفظي على مقترحه من جديد وتقييم جدوى تحولي إلى لاجئ باسم مستعار واحتمال أن أضيع فرصة الهجرة إلى كندا بعد أن أحمل اسماً جديداً مخالفاً لاسمي الحقيقي المثبت على العديد من الوثائق والهويات التي حضرتها وترجمتها إلى اللغة الإنكليزية. كررت له رفضي لاقتراحه إلا أنني وعدته بمحاولة استرجاع جوازات أولادي عن طريق أصدقائي واتصالاتي في المناصب الحكومية العليا. من ناحية أخرى، لم يذكر كتاب عبد حمود جواز سفري بالذات، والذي كان موجوداً بقرب جوازات أولادي، مما يعني أن جهد خالد رشيد كان محكماً، طالما ظل أمر الجواز خافياً عن علم جهاز المخابرات حتى ذلك الحين.

وقف الصحاف بثبات إلى جانبي خلال هذه المحنة مقدماً العون والسلوان على الألم والكآبة التي ألمت بي رغم ما قد ينعكس ذلك سلباً عليه شخصياً. لقد ساند قضيتي بشجاعة حتى بعدما تركت العمل معه والتحقت ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي. ومد نفوذه إلى حيث تصل يداه حتى أنه وصل إلى عبد حمود الذي كان على علاقة جيدة معه. كانا يسهران معاً للسمر والشراب في بعض الليالي. كنت أحياناً أجالس الصحاف في مكتبه متأخراً في الليل أدقق في برامجيات الحاسوب الجديدة التي جلبها معه من السفر ونصبها في حاسوبه الشخصي في مكتبه في الوزارة. عندما يهاتفه عبد حمود للدردشة، كان الصحاف يسايره ويرد عليه محيياً بلقب (دكتور)، حيث حصل عبد حمود على (شهادة دكتوراة شرف) من جامعة البكر العسكرية التي كانت تبذل بمنحها إلى المقربين من صدام مثل عدي، ابن صدام البكر، وعبد حمود لقاء بحوث يقوم الغير بإعدادها. أعطتني هذه العلاقة الخاصة بين الصحاف وعبد حمود مساحة ضيقة من الأمل باستعادة جوازات الأولاد مما انعكس على موقف أبي ديار الذي بات صبوراً ومتفهماً لرغباتي وموقفي. كما كان موقف رياض القيسي، وكيل وزير الخارجية، بخلقه الرفيع وذكائه المتميز مشرفاً بمساندته لقضيتي، كما أنه مد يد العون في تصويب اتصالاتي مع جهاز المخابرات.

أدت مواقف الصحاف الثابتة ورياض المشرفة إلى جانب قضيتي باستمرار إلى أن يقوم بعض ضباط جهاز المخابرات بتزويدي بفتات دائم من الأمل الضئيل، والتي بانت طبيعتها الحقيقية لاحقاً.

ذات الوقت، عثر أبو ديار على طريقة يقترب فيها من رافع الدحام، رئيس جهاز المخابرات الجديد (قتل فيما بعد بالسم، كما أشيع). كان لأبي ديار صديق حميم على علاقة وثيقة برافع الدحام. كانت أواصر علاقتهما من المتانة لدرجة زيارتهما البعض في دورهم دون سابق موعد. صادف أن تعرفت ذات مرة على رافع الدحام، وكان حينها سفيراً للعراق في تركيا، خلال إحدى زياراته إلى مكتب الصحاف. لم يكن غريباً، بحكم علاقتي القريبة من الصحاف، أن أمكث في مكتبه أعالج مشاكل حاسوبه الشخصي أثناء مقابلته لزائريه في مكتبه.

على أثر الإلحاح من قبل صديق أبي ديار والصحاف ورياض القيسي على رافع الدحام دفاعاً عن قضيتي، طلب الدحام ملفي الموجود بحوزة جهاز المخابرات للاضطلاع على مفردات مشكلتي. ولما اقتنع بصحة ادعائي، حمل الملف وذهب إلى قصي، ابن صدام المسؤول الرئيس عن شئون جهاز المخابرات. راجع قصي الملف وأعلن للدحام أنه أيضاً لا يرى سبباً يوجب بقاء جوازات سفر أولادي في الحجز. لكن طالما أن عبد حمود هو الذي أصدر أمر المصادرة، فإنه لا يملك السلطة لنقض قرار عبد حمود. إلى هذا الحد وصلت قوة عبد حمود في البلد!

عندما زار الصحاف ورياض القيسي رافع الدحام في المستشفى إثر إصابته بجلطة قلبية خفيفة، أفشى لهما بموقف قصي من

الموت سجناً.. نهاية عالم عراقي

أعلن ناطق باسم الجيش الأمريكي أنه بدأ تحقيق في وفاة عالم عراقي يبلغ من العمر ٦٥ سنة، أثناء احتجاز القوات الأمريكية له في يناير ٢٠٠٤. ولم يوضح ما الذي دفع إلى فتح التحقيق الجديد في وفاة محمد منعم الأزميرلي، أستاذ الكيمياء، بعدما ظل تسعة شهور سجيناً لدى السلطات الأمريكية. وهل يتوقع توجيه اتهامات جنائية إلى أي أمريكي.

وكانت رواية أوردتها منظمة العفو الدولية، أفادت أن عائلة الأزميرلي طلبت إجراء تشريح «مستقل» للجثة، لأنها لم تصدق النتيجة التي توصلت إليها السلطات الأمريكية، ومفادها أن الوفاة كانت لأسباب طبيعية. وخلص التشريح «المستقل» إلى أن العالم توفي متأثراً برضوض عنيفة في الرأس.

وأشارت المنظمة إلى أن الأزميرلي نقل إلى سجن أمريكي في ٢٥ من أبريل ٢٠٠٣، بعد نحو أسبوعين على سقوط بغداد. وأضافت أنه اقتيد مقيداً وعلى رأسه قناع، واحتجز تسعة شهور، ربما في جزء من مطار بغداد الذي كانت القوات الأمريكية تحتجز فيه شخصيات «عالية القيمة»، وبينها مسئولون بارزون في نظام صدام حسين.

رويترز - ٢٥ مارس ٢٠٠٥

قضيتي. كنت قد عرفت بهذه الواقعة قبلهم عن طريق صديقي أبي ديار.

كان موعد مقابلة نيران في السفارة الكندية، الذي حُدد في كانون الثاني من عام ١٩٩٨، يقترب منّا. اقترح أبو ديار علي حلاً جريئاً. بإمكانه أن يحصل لي على جواز مزوّر وباسم مستعار لمُغادرة العراق خلسة، ويسافر معي إلى عمّان لأحضر المقابلة مع نيران ثم نعود بعدها إلى بغداد. تستغرق الرحلة كلها بضعة أيام، نُتلف بعدها الجواز المزوّر. تشاورتُ بالأمر مع نيران من خلال البريد الإلكتروني السري. اعتماداً على وعد الكنديين لنا، والذي فهمنا منه أنه بإمكانها إجراء المقابلة بمفردها، رأت نيران أنه لا داعي للمجازفة بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالخطر. استغرقت مقابلة نيران عشر دقائق فقط حيث بادروها بالسؤال عن عدم وجودي والأولاد معها، وادّعوا بأننا قد أسأنا الفهم لرسالتهم لأنه لا يمكن لطلب الهجرة أن يأخذ مجراه دون وجودنا معها. ثم أنهوا المقابلة بدون تحديد موعد جديد لإجرائها.

قذفت بي صدمة النبأ وعدم تحديد الموعد لمقابلة أخرى في عمق جديد من أعماق اليأس والكآبة.

كان أبو ديار الدواء المُهدئ لكآبتي والسلوان الغزير في تحملي لمحنتي وسندي في الثبات على صبري.

لمّا علم أبو ديار بصدّ الكنديين لنيران بسبب عدم حضورنا المقابلة معها، تقدم باقتراح ذكي بديل يوائم رغبتي في الخروج من العراق باسمي الصريح وبجوازات رسمية. لم لا أقبل بعرض خالد رشيد قبل عدة أشهر بإمكانية مساعدته في رفع منع السفر عن نيران والأولاد لإصدار جوازات سفر جديدة للأولاد عوضاً عن تلك القابعة عند عبد حمود؟ فلقد تغلّب خالد على موجة غضب جهاز المخابرات عندما فتحوا تحقيقاً بشأن حصولي على جواز السفر، وأطلعهم على كل الوثائق التي صدرت منه، وحسب تعليماتهم. فلم تكن الغلطة منه إذ هم تركوا ثغرة في تعليماتهم ولم أكن بدرجة مدير عام أو أعلى من ذلك مرتبة للحصول على موافقتهم على إصدار الجواز. نجت رقبة خالد رشيد هذه المرة من السكين، ولكنهم، وحسب سياقات عمل المُخابرات الخبيثة، قاموا بزرع مراقب عليه في دائرته، وبدون علمه، حتى يصطادوه إذا ما تجاوز الخطوط الحمراء مرة أخرى.

كلُّ ما طلبه أبو ديار هو قيام خالد رشيد بإعداد كتاب ثانٍ موجهاً من دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري إلى مديرية الأمن العام يعطف فيه على كتابه الأول حول رفع منع السفر عني مُضيفاً عليه بأن قرار رفع منع السفر يسري على أولادي أيضاً. قبل شهور قلائل، كان أبو ديار قد بادر وأضاف أسماء أولادي (زوراً) على رسالة السماح الأصلية التي أصدرها خالد رشيد بعرض الحصول على تأشيرات الخروج لجوازات يمامة وتمام وإصدار جواز جديد للصغيرة نوفة.

أعدّ خالد الكتاب المطلوب وأعطاني رقمه وتاريخ إرساله إلى مديرية الأمن العام. قمت على الفور بالاتصال مع أبي ديار لتسليمه هذه المعلومات والذي توجه بدوره رأساً إلى صَحبه في مديرية الأمن العام ليتأكد من وجودهم في استقبال الكتاب عند وصوله وتحويله إلى مساره الصحيح.

زارني أبو ديار في منتصف تلك الليلة وهو في حالة من الغضب والغليان الشديدين، مع أنه نادراً ما يُفصح عن مثل هذه العواطف. فالرقم والتاريخ اللذان أعطيتهما له كانا على مظروف لكتاب في غاية الحساسية والسرية، ولو ارتبط اسمي بأي شكل من الأشكال مع ذلك الكتاب لواجهت عقوبة الموت حتماً. هدر أبو ديار: «ما الذي حصل بحق الله؟».

في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي كنت في سيارتي أراقب خروج خالد رشيد من داره للذهاب إلى العمل. بعد ساعة من الانتظار المتوتر، واجهت خالد أمام عتبة بيته وأخبرته بما حصل. صدم خالد بفداحة الأمر وامتقع وجهه. صحبته بسيارتي إلى مقر هيئة التصنيع العسكري، وأصر خالد على أن أنتظره في موقف بعيد للسيارات يقع بالقرب من مبنى اتحاد نقابات العمال. بينما قطع هو المسافة إلى مكتبه متمشياً على الأقدام. انتظرت ساعة كاملة في الموقف وأنا أدخن الغليون وأستنشق دخانه وكأنه يمدّني بسلسبيل الحياة.

رجع خالد بوجه عبوس أرمد من الغيظ. وبادرني قائلاً: «استبدل هؤلاء الأنذال المظروف الذي أعددته لكتابك بمظروف الكتاب السري للغاية بعد أن غادرتُ المكتب في السادسة مساء البارحة». وأضاف: «قسماً بحياتي، أعدك بأن أبحث عمن فعل هذه المكيدة وسأقتله. إنما من هذه اللحظة أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني، مع السلامة».

لم ألتقِ مع خالد رشيد بعد ذلك أبداً. لقد أفلح عميل عبد حمود بمهمته، وبجدارة.

ظل عبد حمود متقدماً عني وعن أبي ديار بخطوة واحدة في محاولاتنا الخروج من العراق. فحتى لو أفلحنا في الحصول على جوازات سفر الأولاد عبر كتاب خالد رشيد، لوقعنا في مصيدة شيطانية أقامها عبد حمود لإفشال هروب غير المُخول لهم بالسفر، وليس بالذات لعائلتنا. لقد أنشأ في شهر شباط من عام ١٩٩٨ حاجزاً منيعاً عند معبر الحدود إلى الأردن يمكنه من اصطياد المُغامرين بالتسلل عبر طريبيل. كان شرح أبو ديار لتفاصيل المُصيدة مُدعاة لإحباط أقسى العزائم. فقد نُصب كُشكان بمساحة مترين طول في مترين عرض لكل منهما مزودان بمكيّف للهواء عند مدخلي طريبيل، كنقطة لوقوف المغادرين من العراق والقادمين من الأردن. تقبع خلف كل كُشك سيارة تضم اثنين من ضباط عبد حمود يراقبان الكشك أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، مع بقاء محرك السيارة، ذات الزجاج المعتم، شغالاً لتزويد الضابطين بالتبريد أو التدفئة الضرورية، حسب حرارة الطقس. يحتوي كل من الكُشكين على حاسوب، مع مشغله. يضم قاعدة للمعلومات فيها أسماء الأشخاص الممنوعين من السفر، أو الذين في انتظار رجوعهم من السفر، والتي تصدر عن عبد حمود ذاتياً وحصراً. على سائق كل سيارة مغادرة أو داخلة إلى نقطة حدود طريبيل أن يتوقف أمام الكشك وينزل لوحده من سيارته ليقدم جوازات سفر المسافرين معه إلى مشغل الحاسوب الذي يقوم بتمهل بمطابقة أسماء المسافرين مع الأسماء المدرجة في قاعدة المعلومات لديه. يكفي دوران رأس المُشغل ونظرة واحدة منه إلى الضباط الجالسين في السيارة خلف لتجعل السيارة الواقفة بهدير محركها بأن تقفز إلى الأمام ليلقوا القبض على المسافرين ويسوقوهم رأساً إلى بغداد لينزلوا في ضيافة عبد حمود الشرسة. مُنع مشغلون الحاسوب وضباط عبد حمود القابعون في سياراتهم من التعامل والاحتكاك بتاتاً مع موظفي مديرية الأمن العام أو ضباط جهاز المُخابرات الآخرين في طريبيل، خشية تسرب الأسماء المدونة في قاعدة المعلومات إليهم. كانت بالفعل مصيدة مُحكمة وذكية من بنات شيطان أفكار عبد حمود، ودليلا آخر على مرتبة جهازه المُخابراتي الخاص به.

وصل رسول شخصي من مكتب المُساعد الخاص لصدام حسين، وسكرتيره الموثوق به، عبد الحميد محمود يحمل أمراً مكتوباً بخط اليد: يطلب فيه مصادرة واستلام جوازات كل من يمامة وتمام ونوفة عماد خدوري



بعد عودته مباشرة من الأردن، قام أبو ديار بزيارتي في منتصف ليلة رجوعه لاحتساء الشراب، مما استنفر تحسسي وتجسسي من الأخبار التي يحملها في مثل هذه الزيارات غير العادية. لقد اتصل أحدهم به أثناء وجوده في عمان وطلب منه أن يعرض علي خياراً آخر للهروب ويستفسر مني عما اذا كنت موافقاً على عرضهم أم لا. أبلغني أبو ديار الرسالة بلهجة محايدة، ثم انتظر حتى أعطيه الجواب. فلقد اتصل أحد عناصر المؤتمر الوطني العراقي المعارض والذي يرأسه أحمد الجلبي بأبي ديار كي يجس نبضي ويبلغني بأنهم على استعداد لانتشالي وأولادي من بغداد وتهريبنا عبر الشمال في ظل حمايتهم. لقد وصل إليهم خبر عما أحاول القيام به، بطريقة ما. فتقدموا عارضين خدماتهم.

كان أحمد الجلبي زميلي في الدراسة بدءاً من الابتدائية في مدرسة (مدام عادل)، وتخرجنا معاً من نفس الصف فيها عام ١٩٥٦. كما كنا معاً في السنة الثانوية الثالثة في كلية بغداد في شهر أيلول من العام ١٩٥٨ عندما دخل والده مع مدير المدرسة إلى الصف صباح أحد الأيام واصطحب معه أحمد وأولاد أخواله، غازي علاوي ومهدي البصام، خارج المدرسة وأرسلهم إلى المملكة المتحدة لمتابعة دراستهم. تقابلنا من جديد في جامعة شيكاغو خلال الستينيات حيث كان أحمد يدرس لنيل شهادة الدكتوراة في الرياضيات، وكذلك في بيروت عام ١٩٦٦ في نهاية إحدى جولاتي الصيفية، ذات الإبهام السفري المجاني.

قدم أبو ديار عرض المؤتمر الوطني العراقي بأسلوب دبلوماسي وانتظر جواباً مني. لم أتردد البتة في إعطائه الجواب. بما أن أحمد الجلبي يتعامل مع المخابرات المركزية الأمريكية فلن يكون بوسعي التعامل معهم أبداً. نهض أبو ديار من على كرسيه وقبلني وقال لي: «هذا عهدي بك وهو نفس شعوري». وأضاف لو أنك قررت غير ذلك وفكرت في قبول عرضهم لكان ذلك آخر لقاء بيني وبينه. وطمأنني أبو ديار قائلاً: «سوف نتدبر الأمر سوياً».

من أجل تعزيز الحُجة في مُغادرة العراق رسمياً، ناشدت مساعدة حميد جعفر، الشقيق الأصغر لجعفر ضياء جعفر والذي يرأس شركة للنفط في الشارقة، أثناء زيارة قصيرة له لبغداد. التقيت بحميد في منزل أخيه الأكبر يحيى جعفر، الذي كان بحق الصديق الرصين لي ومازال الصديق الكريم. طلبت من حميد موافقته على إعداد عقد أصلي لي يعرض علي العمل في شركته في مجال

الشبكات الحاسوبية لعل وعسى ان يُقنع المعنيين في جهاز المخابرات وجهاز عبد حمود بصدق نيتي وتمسكي بموقف مغادرتي العراق بصفة رسمية وقانونية. تجاوب حميد مشكوراً مع طلبي وأبدى استعداده لتلبيته. بذل كل من ولدي جعفر، صادق وأمين، الوقت الثمين والجهد الواقي لإعداد عقد عمل قانوني ومُصدق قانونياً من قبل الجهات الرسمية وسفارة العراق في لندن بأمل مساعدتي في إقناع المعنيين بأمر مغادرتي. كما جازف أمين يوماً وحمل معه بكل شجاعة، خلال إحدى رحلاته المكوكية إلى بغداد، كافة التقارير والمقالات العلمية التي كتبتها، عبر منطقة الحدود في طريبيل المعرضة للتفتيش الدقيق وسلمها إلى نيران أثناء وجودها في عمان.

أخيراً وافق خصمي اللدود أبو مهند على مقابلتي وجهاً لوجه بعدما تعرض لسيل من الضغوط و(الواسطات) من لدن الصحاف وأبو عمر وراقع الدحام.

كانت تلك الجلسة من اقسى المقابلات التي أجبرت على تحملها. استطاع أن يحجمني إلى أن انهارت دموعي، دون أي تعاطف مع توسلاتي لاستعادة جوازات ابني وبنتي الاثنتين إذ صد ضميره المتحجر عنه كل إحساس وصدى إنساني. توسلت إليه من منطلق أبوي ومسئوليتي العميقة تجاه أولادي فيرد علي: «إن من حق الحكومة وحدها أن تقرر متى يجب أن نغادر». أشرت له كيف إننا تحولنا من علماء إلى قطع أثرية علمية تصلح لعرضها في المتاحف بسبب ابتعادنا عن مصادر العلم طيلة سنوات الحصار وكبر السن ونفاد همة ومفعولنا العلمي. تمسك بالقول إن من حق الدولة استخدامنا بأي وجه ولآخر قطرة حياة يمكن عصرها منا. عرضت عليه عقدي للعمل في الشارقة بدون أي جدوى، فغض النظر عنه وكان لسان حاله يقول: «انقعه واشرب ماءه». كان طلبي، بالنسبة إليه، طريقاً مسدوداً. ثم اصطنع استغرابه عندما لوحت له أن بإمكان عبد حمود حسم الموضوع ورد بسرعة بأن لا علاقة لعبد حمود في هذا الأمر، وهكذا كشف على إنه يعمل لصالح عبد حمود وإن عبد حمود بات ملاذي الاخير في الأمر. لم يتمكن أبو ديار أن يتعرف من رقم لوحة سيارة السكرتير على الشخصية الحقيقية لأبي مهند. لقد كان أكثر من ضابط مخابرات، وظل لغزاً محيراً لنا، وجزءاً من جهاز عبد حمود الأمني الخارق. لا أعتقد ان لقاء ثانياً بيننا سيبشر له بأي خير. عدت مرة أخيرة إلى الصحاف آملاً بجدوى علاقته مع عبد حمود.

بمرور الأشهر والتعثر في عملية استعادة جوازات سفر الأولاد، بدأت نيران تعاني من وحدة موحشة حادة إلى الدرجة التي اقترحت علي أن تعود إلى بغداد.

بعدها بأيام قلائل، طلب مني أبو ديار بالعمل على إعادة تأشيرة الخروج التي حصلت عليها قبل عام، وهي عبارة عن صفحة مرفقة بجواز سفري، وأن أستعيد رسومها. كان أمراً غريباً في حينها، ولكنه دون شك ذكياً. شعرت وأنا أتابع معاملة استرجاع مبلغ الأربعمائة الف دينار، والتي هي رسوم تأشيرة الخروج التي سبق ودفعتها، بأن عيوناً عديدة كانت تتابع خطواتي باهتمام، وإن كانت لا تصدق ما أقوم به. استغرقت العملية يومين في الأروقة الرسمية لخزانة الدولة أمام القشلة (مقر الحكومة في عهد الانتداب الإنكليزي)، وأخيراً ابلغت أبا ديار عن الغاء تأشيرة الخروج واستعادة رسومها ظهر يوم الخميس.

طلب مني أبو ديار ان أسلم جواز سفري فوراً إلى محل أخيه في بغداد الجديدة. وفي ذات المساء، ترك لي رسالة يطلب فيها أن أحضر له مبلغ مليون وأربعمائة ألف دينار نقداً. ملأت عدة أكياس من البلاستيك بالدنانير العراقية وسلمتها له. ما كان منه إلا أن أعاد لي جوازي وعليه أربع تأشيرات خروج لي ولأولادي. لقد استطاع أن يضيف أسماء وصور يمامة وتمام ونوفة إلى جوازي مع تأشيرات خروج لنا جميعاً مختومة عليه بكامل المبلغ. وجب علينا أن نغادر في خلال يومين، مما يسمح له بتنبيه أصحابه في طريبيل عن موعد وصولنا وإعدادهم لاستقبالنا. بقي علينا محنة اجتياز كشك عبد حمود اللعين.

في ليلة الجمعة من آخر أيام شهر تموز عام ١٩٩٨، طلبت من جديد إلى الأولاد أن يعيدوا تجهيز حقائب السفر التي بقيت مفتوحة على الأرض في غرف نومهم طيلة الأحد عشر شهراً الماضية. مراراً ما تفتح ثم تغلق استعداداً لسفر غير متحقق. انصاعوا للأمر دون أن ينبسوا بكلمة عن احتمال فتحها مرة ثانية بعد عدة أيام. كنت قد رتبت الأمر مع ريتا التي كانت تساعدنا في إدارة شئون المنزل، أنه في حال قدومها إلى البيت ولم تجد أحداً منا، أن تنتقل لتعيش مع عائلتها في بيتنا حماية له، بل كنت قد جهزت أوراقاً رسمية لها منذ عدة شهور تثبت بأني أدفع لها أجراً شهرياً مقابل حراستها للمنزل.

زارنا أبو ديار يحمل (ركية) بطيخة كبيرة بينما كنت في الشارع خارج البيت اتسامر مع الجيران. طلبت سكيناً وشاركت الجيران في تناولها. كانت الركية إشارة السر بيننا والتي تعني بأنه قد استطاع تأمين جميع الترتيبات اللازمة لمغادرتنا، وموعد مغادرتنا هو الساعة الثالثة فجراً.

على أثر تهريب أبو ديار للطبيبين الأرمنيين وكسب ثقة آل بزوعي، قرر أبو ديار بأن تكون نقطة انطلاقنا من بيت فاروق بزوعي، وليس من بيتنا الذي يجزم بأنه تحت المراقبة المستمرة من قبل الجيران.

اضطررت في تلك الليلة أن أقوم بعدة رحلات، ذهاباً وإياباً من بيتنا لأنقل بالخفية، وبعيداً عن تلصص عيون الجيران، العدد القليل من حقائبنا المعدة للسفر إلى بيت فاروق. عند اقتراب منتصف الليل، ذهب إلى منزل أبي ديار لاصطحابه. زيادة في الحرص، لم يسمح لي أبو ديار في رؤية أسرته أو توديع أم ديار المحبوبة، بل قابلني في نهاية الشارع الذي يقطنه بعد أن أبلغ أهل بيته بأنه ذاهب بمفرده إلى الموصل في سفرة قصيرة لقضاء بعض الأعمال.

بقي علينا تدبير أمر أخير في طريقنا إلى بيت فاروق، إذ بشرني أبو ديار باتصاله الهاتفي، قبل ساعة من لقائنا، مع رفاقه في طريبيل والذين أعلموه بأنهم قد أفلحوا أخيراً في اختراق عصبة عبد حمود - ولأول مرة - ويطلب المسئول عنهم مبلغ ألف دولار أمريكي نقداً، ودون مساومة، رسماً لمرورنا عبر كشكهم. توقفنا لشراء علبة سجائر (كنت) لنفرغها من محتوياتها ونحشوها بعشرة أوراق نقدية من فئة المائة دولار، حسب تعليمات أمر عصبة عبد حمود. كانت المجازفة كبيرة لي ولأبي ديار ورفاقه لأنها كانت المرة الأولى التي يتم فيها التعامل مع هذا الشخص القادر ببساطة أن يغدر بنا جميعاً ويقبض أضعاف هذا المبلغ من عبد حمود مكافأة له على الوشاية بنا. من الناحية المقابلة، في حال كتمانه خبر مغادرتنا، فإنه سيفتح له باب التعاون مع رفاق أبي ديار وكسب ثقتهم ليدروا عليه بسيل من الزبائن والرزق الدائم. كان شرطه لمعاونة رفاق أبي ديار هو أن يؤكدوا له بأنني لست ملاحقاً بجرم ولا أنتمي إلى المعارضة، كما أكدوا له بأني أحمل جواز سفر رسمياً.

نزل أبو ديار عند منزل فاروق حيث كانت تنتظرنا هناك سيارة ذات دفع رباعي مع سدتنيا الأردني وقد استقرت فيها حقائبنا. ذهبت لإعادة سيارة ناريمان الى بيتها الذي لا يبعد كثيراً عن بيت فاروق. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً. وناس حارتهم مجتمعون في الشارع لانقطاع التيار الكهربائي يتسامرون وينعمون بنسيم الفجر البارد.

قبل الثامنة بخمس عشرة دقيقة كنا ننتظر في السيارة عند محطة الوقود القريبة من الكشك ونحن نراقبه من بعد. في الثامنة تماماً مشى الضابط إلى الكشك وأخذ مكانه أمام شاشة الحاسوب. تحركت سيارتنا باتجاه الكشك. نزل السائق من السيارة وقدم الجوازات التي بيده إلى الضابط القابع خلف زجاج الكشك. هبط علي في تلك اللحظة شعور غريب مخدر عبر عن ثقتي الكاملة بأبي ديار الذي كان يتابع المشهد بحذر ويراقب الضابط بعيني صقر. تصفح الضابط الجوازات وضرب على لوحة مفاتيح الحاسوب ثم ابتسم وأعاد الجوازات إلى السائق. تحركت سيارتنا إلى منطقة الأمن في مبنى الجوازات. أسدل أبو ديار جميع ستائر السيارة وأمرنا بعدم النزول من السيارة البتة. دهش سائقنا من أمر أبي ديار غير المعتاد لكنه لم يعترض ولم يعلق على الموضوع.

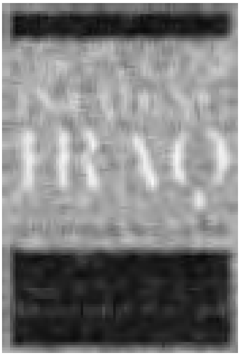
بعد نصف ساعة من الزمن عاد أبو ديار وبصحبته أبو هديل، ضابط الأمن المسئول عن نقطة طريبيل والذي تمكن من إخراج نيران منها قبل أحد عشر شهراً، مع اثنين من زملائه اللذين نجحا في إختراق الطوق الذي ضربه عبد حمود عند الحدود. كان أبو هديل يقضي الشهر الأخير من فترة انتدابه في تلك النقطة الحدودية، وكان سيصعب على أبي ديار بعد انتهاء مهمة أبي هديل من المرور بسهولة عبر تلك النقطة. ترك أبو ديار علبة السجائر عند ظل عبد حمود في الكشك، وختم الجواز بالخروج رسمياً. قام أبو هديل ورفيقاه بتقبيلي من خلال فتحة شباك السيارة متمنين لنا التوفيق. ودعتهم بحرارة من موقعي داخل السيارة دون الترجل منها كما تقضي اللياقة وغضضنا الطرف عن مساحة من تقاليدنا الاجتماعية بسبب تعليمات أبي ديار. لن استطيع أن أنسى في حياتي دفء قبلاتهم، والتي ربما عكست غبطتهم من تمكنهم من إفلاتي من شبكة عبد حمود، ودلفنا إلى الجانب الأردني من الحدود. ◘

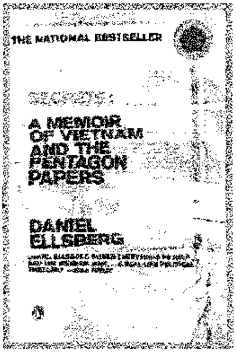
استغرقت مقابلة «نيران» عشر دقائق فقط حيث بادروها بالسؤال عن عدم وجودي والأولاد معها، وادعــوا بأنـنــا قد أسأنــا الفهــم لرسالتهم لأنه لا يمكــن لطلب الهجـــرة أن يأخـــذ مجـــراه دون وجودنـــا معها



كلب الحراسة حين يغفو!

الإعلام الأمريكي بين حربين





عبد العليم الأبيض

** يفخر الإعلام الأمريكي بتفوقه وتنوعه وحريته على وسائل الإعلام في دول العالم الأخرى. ولكن المراقب للإعلام الأمريكي من نقطة محايدة يرى أن في ذلك كثيراً من المغالاة. وعندما نتكلم عن الإعلام الأمريكي فنحن نقصد في الأساس الإعلام الرئيسي، أو ما يسمى بإعلام التيار الأساسي الذي يشمل الصحف والمجلات الكبرى وكذلك شبكات التليفزيون الكبرى. لقد سجل الإعلام الأمريكي صفحات رائعة تشهد له بالقوة والجرأة في مواجهة الانحراف الحكومي والمؤسسي أو الجور على حقوق المواطنين.

بيد أنه في نفس الوقت يضم ماضي الإعلام الأمريكي أيضاً صفحات مشينة وتخاذلاً وتقاعساً في أداء دور «كلب الحراسة» الذي يسهر على مصالح الناس في كشف الانحرافات، وهي صفحات سوف تظل بظلالها القاتمة على مزاعم التفوق والاستقلال.

ليس القصد من هذا المبحث هو تقديم منظور تاريخي لصعود وهبوط الإعلام الأمريكي، بل سوف يكون التركيز على سقطته المدوية في تغطية أحداث ٩/١١ وما تلاها من غزو لأفغانستان والعراق.

وهي سقطة يحاول الإعلام الأمريكي الإفاقة منها الآن وتعديل المسار في صراع لم يحسم بعد بين وسائل الإعلام وإدارة الرئيس جورج دبليو بوش وقوى المحافظة الأمريكية التي تدعمه والتي تدعم الحد من حرية الصحافة وتسعى إلى تخويفها وشل حركتها. وهي قوى تجافي مبادئ الديمقراطية التي تتشدق بها. ولكن ينبغي أن ندرك أن هذه المعركة معركة مستمرة، وأن هناك استثناءات مشرفة لبعض الأقلام الشجاعة التي قاومت وما تزال تقاوم هذا الإرهاب الفكري الذي تمارسه إدارة بوش والمتشيعين لها. وليس من قبيل الصدفة أن أشد المعادين لحركة وموضوعية الإعلام الأمريكي هم مجموعة من اليهود الأمريكيين من تيار المحافظين الجدد تحتل مراكز بارزة في هذا التيار في الإدارة الأمريكية ذاتها وخارجها في الصحافة ومؤسسات الرأي. وهي مجموعة ترتبط ارتباطاً عضوياً بكتلة الليكود في إسرائيل.

بين حرب فيتنام وما بعد ٩/١١

لقد كتب الكثير عن سلوك الإعلام الأمريكي المشين بعد أحداث ٩/١١، ولكن من أهم ما كتب في هذا الشأن هو الكتاب الذي ألفه دانيل إلزبرج بعنوان: «مذكرات فيتنام وأوراق البنتاجون». من هو دانيل إلزبرج؟ كان دانيل إلزبرج مستشاراً لروبرت ماكنمارا، وزير الدفاع إبان حرب فيتنام ومحللاً سياسياً في مؤسسة راند الشهيرة كما عمل أيضاً مستشاراً لهنري كيسنجر. أقدم إلزبرج على عمل فذ ينم عن ضمير حي وجسارة أدبية منقطعة النظير عندما سلم صحيفة النيويورك تايمز نسخة مما يسمى «أوراق فيتنام»، وهي مجموعة من الوثائق السرية التي تفضح سير الحرب في فيتنام. كان هذا العمل علامة فاصلة في تاريخ حرية الصحافة في الولايات المتحدة. إذ شرعت كل من صحيفتي النيويورك تايمز والواشنطن بوست، أهم صحيفتين في الولايات المتحدة، في نشر الأوراق. وما إن بدأ النشر حتى أقامت إدارة الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون الدنيا وأقعدتها وهددت المؤلف واستصدرت أمراً قضائياً بوقف النشر. ولكن أيدت المحاكم الأمريكية حق النشر واستمرت الصحيفتان في نشر الوثائق. وكان ذلك علامة على طريق حرية النشر والتعبير.

لقد سئل دانيل إلزبرج عن رأيه في تغطية الأحداث المؤدية إلى حرب العراق. وكانت إجابته أن سلوك الإعلام الأمريكي لم يكن السلوك الصحيح، بل كان سلوكاً سيئاً وإن كان أفضل قليلاً من سلوك الحكومة الأمريكية التي مارست الكذب والخداع، كما أن الصحافة الأمريكية أخطأت عندما تقبلت دون روية وتمحيص أكاذيب الحكومة حتى وقت متأخر من الحرب (أي حتى نشر وثائق البنتاجون). كما أكد إلزبرج أن الإعلام الأمريكي لم يتعلم شيئاً من حرب فيتنام. لقد صورت إدارة بوش أن الحرب على العراق سوف تكون سريعة ورخيصة، وأخطأ الإعلام الأمريكي عندما قبل بمنطق الإدارة. فلماذا مثلاً لم يلاحق الإعلام الأمريكي المسئولين الأمريكيين عن عدد القتلى العراقيين؟ لم يفعل ذلك. ومازالت الإدارة الأمريكية تراوغ في نشر أعداد القتلى.

إدارة بوش والتضليل الإعلامي

يذكر أن الراحل آي. إف ستون، رئيس التحرير السابق لصحيفة «النيويورك ريفيو أوف بوكس» الأسبوعية حذر الإعلام من تصديق حكومته إذ يقول:

«إذا ما أردت أن تعرف الحكومات، فكل ما يجب أن تعرف يتلخص في كلمتين: الحكومات تكذب».

الخطأ الذي وقعت فيه الصحافة الرئيسية مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست وتايم ونيوزويك.. إلخ هو أنها صدقت الإدارة في أكاذيبها، أو أنها تغاضت عنها لأسباب كثيرة يطول شرحها، ولعل أهمها هو الخوف من انتقام المسئولين ورد فعل الشعب الأمريكي الغاضب الذي صدق الحكومة. ولكن كل ذلك لا يبرر الموقف الذي وقفه الإعلام الأمريكي من الأكاذيب الفاجرة في بعض الأحيان. لم يلجأ الإعلام الأمريكي إلى أسلوب التشكيك في روايات الحكومة، وتخلى عن معايير المهنة في التنقيب والبحث عن الحقيقة، وترك ذلك لشبكة الإنترنت. وما يسمى بالإعلام البديل، وسوف يأتي ذكره فيما بعد.

ليس هناك أدل من انحطاط المسئولين عن وزارة الدفاع الأمريكية في احتقارهم لدور الإعلام في الكشف عن الحقيقة وملاحقة انحرافات المسئولين من الأسلوب الذي تعاملت به مع رجال الإعلام. إذ لجأت وزارة الدفاع إلى إنشاء ما سمي «مكتب التأثير الاستراتيجي» وهو ما أطلقت عليه الصحيفة الأمريكية القديرة «مكتب الإفك الاستراتيجي» (Office of Strategic mendacits). كان الغرض من إنشاء هذا المكتب لدس الأكاذيب وممارسة الدعاية السوداء. وقد وصف ويليام كوهن وزير الدفاع في عهد كلينتون هذا الأسلوب بقوله:

١- Secrets: A Memoir of Vietnam and the Pentagon Papers
(أسرار: مذكرات فيتنام وأوراق البنتاجون)
Daniel Ellsberg
Penguin Books, 512pp., $16.00

٢- The Case for Invading Iraq
(حجة غزو العراق)
Kenneth M. Pollack
A Council on Foreign Relations Book

انساق الإعلام الأمريكى كما انساق الكونجرس وراء مغالطات وتضليلات إدارة بوش فيما يتعلق بالإرهاب والربط بين صدام حسين وتنظيم القاعدة دون وجود أى دليل على ذلك مع العلم بأنه لم يكن هناك حب مفقود بين نظام صدام حسين العلمانى وتنظيم القاعدة السلفى الأصولى

«... نحن نتحدث عن خداع وسائل الإعلام والجمهور العام فى الدول الأجنبية وهذا خطأ...».

لجأ البنتاجون إلى أسلوب جديد فى التضليل والتأثير على وسائل الإعلام أثناء عملية غزو العراق. ابتدع البنتاجون حيلة جديدة لضمان ألا يخرج إلى وسائل الإعلام إلا ما تريده وزارة الدفاع. تمثلت الخدعة فى إلحاق المخبرين والمراسلين الحربيين فى الوحدات المقاتلة. وذلك لضمان عدم خروجهم عن الخط المرسوم، وإذا ما حاول البعض الحصول على معلومات بغير هذه الطريقة فكان يقبض عليه بواسطة الشرطة العسكرية. ولقد شهد العالم جميعًا الفارق الضخم بين ما يذيعه التليفزيون الأمريكى وبين الأداء الرائع لشبكة الجزيرة والعربية. بينما كان التليفزيون الأمريكى يستعرض ألعابه النارية تحت شعار «الصدمة والترهيب» كانت القناتان العربيتان تركزان على الواقع الأليم للحرب من قتل وتدمير للمدنيين. وربما كان ذلك هو السبب فى تصويب الصواريخ الأمريكية نحو مكتب الجزيرة فى بغداد. وليس هذا الرأى من عندى. لقد تصادف وجودى فى الولايات المتحدة فى هذا الوقت وكنت أشاهد برنامجًا محببًا لدى للتليفزيون الكندى CBC تحت عنوان «السلطة الرابعة» استضاف البرنامج الشهير قلة من الخبراء الإعلاميين وكان الرأى لدى نصفهم أن التصويب كان متعمدًا! فضلاً عن ذلك أغلقت الولايات المتحدة موقع الجزيرة على شبكة الإنترنت فى الولايات المتحدة.

تعرض الأسلوب الذى انتهجه البنتاجون فى التعامل مع وسائل الإعلام إلى انتقادات كثيرة. إنصافًا كانت هناك قلة من الصحفيين لم ينطل عليها خداع البنتاجون ومضت تشكك فى الروايات الرسمية منهم الصحفية مورين رود ونيكولاس كريستوف بالنيويورك تايمز وغيرهم بالصحف الأخرى. إذ يرى البنتاجون أن واجب الإعلام هو دعم القوات المحاربة. وهو شعار رفعته وزارة الدفاع وأساءت استخدامه كثيرًا ونحن نتذكر جميعًا قيام الغوغاء فى بغداد بأعمال السلب والنهب لآثار حضارة ما بين النهرين التليدة أمام أعين القوات الأمريكية التى وقفت تراقب الموقف بلا مبالاة. وعندما سئل دونالد رامسفيلد عن ذلك كانت إجابته المثيرة للسخرية هى: «إن الحرية غير منظمة».

وتعلق تشارلى ريس بموقع على شبكة الإنترنت يدعى Antiwar.com على الأسلوب الذى اتبعه البنتاجون بقولها:

«إن واجب الإعلام ليس دعم القوات، بل هو كتابة التقارير الصحفية عن سير الحرب كما هى. فإذا كانت القوات تقتل المدنيين وتسمى ذلك «أضرارًا مصاحبة» فهذا شأنها. أما واجب الصحافة فهو تسمية الأشياء بمسمياتها، أى أن القوات تقتل المدنيين». وتتذكر ريس تصريحًا لباتريك مونيهان عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الراحل حذر فيه رجال الإعلام من ترك الحكومة -أى حكومة- فى اختيار ألفاظها!

لجأت إدارة بوش إلى الملاحقات القضائية للصحفيين وضربت بالتعديل الأول للدستور الأمريكى عرض الحائط، وهو التعديل الذى يكفل حرية التعبير. إذ يتعرض الصحفى روبرت نوفاك صاحب العمود المسجل للملاحقة القضائية لرفضه الإفصاح عن مصدره فى نشر اسم مندوبة وكالة المخابرات المركزية عقابًا لزوجها السفير السابق جوزيف ويلسون الذى فضح أكاذيب الإدارة بشأن صفقة اليورانيوم المزعومة بين صدام حسين وحكومة النيجر.

شبكات التليفزيون الأمريكى

معظم الاتهامات التى وجهت لشبكات التليفزيون الأمريكية الكبرى لم تجاف الحقيقة. ولدينا شهادة صحفية تليفزيونية مرموقة حققت شهرة عالمية فى تغطيتها للحرب فى أفغانستان، وهى كريستيان أمان بور بشبكة السى. إن. إن. تؤكد أمان بور فى حديث لها مع صحيفة يو إس تو داى (٢٠٠٥/٢/٥) أن الشبكة التى تعمل بها امتثلت لترويج الإدارة الأمريكية ثم تقول:

«أعتقد أن الصحافة كانت مكممة.. آسفة لأن أعترف بذلك. وإلى أى حد بعيد تم تخويف شبكة السى. إن. إن من جانب الإدارة وجنود شبكة فوكس. فنتج عن ذلك إشاعة جو من الخوف والرقابة الذاتية - على حد ما أعرف - فيما يتعلق بعملنا الصحفى».

وشبكة فوكس هى من الشبكات الموالية لتيار المحافظين الجدد ودأبت على توجيه تهمة الخيانة لكل من ينتقد غزو العراق أو التشكيك فى نوايا الإدارة.

لعل معالجة التليفزيون الأمريكى على نحو عام لموضوع الجندية الأمريكية جيسكا لينش التى وقعت أسيرة أثناء احتلال العراق يكشف لنا مدى السقطة التى سقطها الإعلام الأمريكى فى حقبة ما بعد ٩/١١ وغزو العراق. لقد تجاهل الإعلام الأمريكى تمامًا، بما فى ذلك صحف كبيرة مثل الواشنطن بوست والنيوزويك التايمز آداب المهنة وسقطت فى بحر من التهويل والإثارة بل والتلفيق المكشوف دون إعمال العقل. إذ فجأة لم تعد حرب العراق تتعلق بأسلحة الدمار الشامل أو القضاء على القاعدة أو تحرير العراق من الطاغوت. بل أصبحت تتعلق بمغامرات البطولة للمرأة الخارقة جيسكا لينش. وفجأة أصبحت جيسكا لينش موضوعًا تسعى شركات هولى وود لإنتاجه. وانهالت العروض التليفزيونية لإنتاج فيلم تسجيلى فى مغامرة تلك الفتاة الخارقة وإن كانت فى واقع الأمر فتاة مسكينة التحقت بالجيش لكى تستفيد من توفير الفرصة لها لاستكمال تعليمها والحصول على شهادة جامعية!

فى ١٥ مايو ٢٠٠٣ كشفت الإذاعة البريطانية (الـ BBC) الحجاب عن الادعاءات والمزاعم الأمريكية بشأن جيسكا. إذ لم تكن هناك مغامرات ولا يحزنون. وانفجرت البالونة فى وجه نافخيها. وتعلق مجلة كولومبيا جورناليزم ريفيو وهى المجلة المحترمة التى تصدر عن جامعة كولومبيا التى تعنى بالإعلام والصحافة (٢٠٠٥/٢/١) على حادث لينش بقولها:

«إذا تجاوزنا مسائل اللغة، فقد أثارت قضية جيسكا لينش المبالغ فيها مشكلتين اثنتين. فقد ساعدت القضية على التعتيم على سؤال لماذا نحن فى العراق.. وثانيًا، فإن تغطية صورة امرأة أمريكية بالزى العسكرى يديم نمطًا من أنماط التغطية المشوهة».

انساق الإعلام الأمريكى كما انساق الكونجرس وراء مغالطات وتضليلات إدارة بوش فيما يتعلق بالإرهاب والربط بين صدام حسين وتنظيم القاعدة دون وجود أى دليل على ذلك مع العلم بأنه لم يكن هناك حب مفقود بين نظام صدام حسين العلمانى وتنظيم القاعدة السلفى الأصولى. ونفس الشىء بالنسبة لأسلحة الدمار الشامل. وكان أحط ما كتب فى هذه الفترة، بل ومازال يكتب حتى الآن، هو ما جاء على لسان الصحفيين الموالين لتيار المحافظين الجدد سواء فى صحافة وشبكات هذا التيار أو خارجه. ولا يتسع المجال هنا للإشارة إلى آلاف المقالات والتعليقات بالشبكات التليفزيونية الكبرى من الموالين لنفس التيار.

لن نلتفت كثيرًا إلى إعلام المحافظين الجدد فهو إعلام مسف فى تعصبه وأكاذيبه يكفى أن تطالع أى عدد من أعداد مجلة «ويكلى ستاندارد» أو صحيفة الواشنطن تايمز، لترى مدى التحيز فضلاً عن ارتباط هذا التيار بالليكود الإسرائيلى.

بعد ٩/١١ لم يكف ويليام سافير وهو من أبرز المؤيدين لهذا التيار ويعمل بالنيويورك تايمز (أحيل إلى المعاش حديثًا) عن التأكيد فى عموده على علاقة تنظيم القاعدة بصدام حسين. وفى عمود بعد عمود يؤكد لنا أن مقابلة تمت بين محمد عطا، الذى ينسب إليه تفجير مبنى التجارة العالمى بنيويورك، ومندوب المخابرات العراقية فى مدينة براغ بجمهورية تشيكيا.

وفى كل مرة يؤكد أنه استقى معلوماته من مصادر عليا (من متابعة الكاتب فإن أحد مصادره الرئيسية ارييل شارون نفسه). واتضح فيما بعد أن لا علاقة البتة لمحمد عطا بنظام صدام، وأن سافير كان يتحدث عن لقاء وهمى ملفق!

من الأمثلة الناقعة الأخرى على تلك التقارير الصحفية التى كانت جوديث ميللر (مراسلة النيويورك تايمز فى القاهرة سابقًا) تبعث بها من العراق أثناء الحرب. جميع رسائلها كانت تؤكد وجود أسلحة دمار شامل بالعراق، وأن الخبراء الأمريكيين الذين ينقبون عن هذه الأسلحة قد عثروا على «الرصاصة الفضية» التى تقود إلى امتلاك العراق لهذه الأسلحة. ثم يتضح ما يعرفه القاصى والدانى. أنه لا وجود لأسلحة دمار شامل ولا يحزنون. والأمر ذو الدلالة هنا هو عدم اقتناء صحيفة النيويورك تايمز للخطأ بن الأخطاء المتوالية





التى تضمنتها رسائل ميللر الصحفية ولم يؤنبها عندما اتضح الأمر.

ولم تختلف المعالجة التليفزيونية كثيراً عن الأداء السيئ للإعلام الأمريكى. كان البرنامج الذى يديره وولف بليتزر بشبكة السى. إن. إن أثناء الإعداد لغزو العراق، وبعد ذلك رسائله التليفزيونية من الكويت فى مرحلة الحرب تجافى كل الأعراف الصحفية وتتشكك كثيراً فى الشعار الذى ترفعه الشبكة: «أكثر الأسماء موثوقية فيما يتعلق بالأخبار» The most trusted name in the news.

قبل غزو العراق كانت تعليقات بليتزر الذى بدأ حياته الصحفية مراسلاً لصحيفة الجيروسالم بوست الليكودية النزعة، أقرب إلى التحريض فكان دائم الإشارة إلى «قواتنا» وليس القوات كما تفعل مثلاً الإذاعة البريطانية لكفالة الحيدة. كما دأب بليتزر (كنت موجوداً فى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت وأثناء الحرب) على استضافة كينيث بولوك مؤلف كتاب «العاصفة الوشيكة» The Gathering Storm وهو الكتاب الذى استخدمته الإدارة الأمريكية فى تبرير احتلال العراق. وكان فى كل مرة يدفع بضرورة غزو العراق لكل الأسباب التى استخدمتها الإدارة، اتضح فيما بعد زيف كل الحجج التى ساقها بولوك فى كتابه. وعند افتضاح الزيف اعتذر بولوك بحجة أن الإدارة ضللته! وهو الخبير السابق بمجلس الأمن القومى الأمريكى المسئول عن العراق!

نقاط مضيئة

قد يبدو استخدام تعبيرات مثل انحطاط وسقطات الإعلام الأمريكى فى الفترة التى نتحدث عنها مبالغاً فيه. ولكننا لم نغال واستندنا إلى شهادة بعض رجال الإعلام الأمريكى وكان بعضهم أقسى فى حكمه منا ولم نشأ الإشارة إلى كل هذه الأحكام لعدم اتساع المجال. كما أكدنا فى بداية البحث أن السقوط لم يكن شاملاً، وأن هناك نقاطاً مضيئة كثيرة فى الإعلام الأمريكى لكثير من

هيرش.. المختلف

روجر كوهين

عن:
International Herald Tribune
٢مارس ٢٠٠٥
ترجمة: جمال إسماعيل



كان على الصحفيين من أمثالى، الذين أمضوا السنوات الطوال فى خدمة صحف إخبارية محترمة، التصدى، ومنذ وقت ليس ببعيد، لحقيقة أننا، وفى عيون الكثيرين، لم نعد أكثر من تابعين، معصوبة عيونهم، لإعلام «الاتجاه السائد» الذى أصبح يشار إليه، وعلى نطاق واسع، بالأحرف الأولى «إم. إس. إم» Main Stream Media.

تبدو هذه الصحافة اليوم وكأنها قبعة قديمة، ويبدو العاملون فيها من رجال ونساء وكأنهم قردة كهوف، وذلك فى عيون حشود من الجوالين بين غرف دردشة الإنترنت العالمية ومضجرى الحوارات ومؤرخى الأحداث فى مواقع «قلها كما هى» المعروفين بكتاب الإنترنت والذين أصبحوا الآن من الناشرين الإلكترونيين، ودون وسيط.

لكننا، رغم كل شىء، لدينا «محررون». وماذا بوسع المحرر أن يفعل سوى مراقبة اللغة المنفلتة السارية الآن عبر الإنترنت؟. ولدينا جدول أعمال باعتبارنا من العاملين فى الـ «إم. إس. إم»، وعادة ما يوصف المرء منا بالليبرالية والإلحاد من قبل اللاحقين الجدد بالجناح اليمينى والحركة الدينية فى الولايات المتحدة التى ترى نفسها الحارس الوحيد للحقيقة، والأمر الذى لا شك فيه أن صحافة «إم. إس. إم» تتعرض الآن لهجوم واسع. وكل ما سبق له انعكاسات على صناعة الصحف التى لها الجهد والسبق لسنوات طويلة. لا تزال هذه الصناعة متدفقة إلى الآن، لكننى أصاب بصدمة عندما أتأمل التحول لأن التغيرات والتساؤلات تحدث فى وقت أثبت فيه صحفى واحد، وللمرة الثانية خلال ٣٥ عاماً، وفى قضايا حرب وسلام، أن هناك ثوابت أساسية لا تتغير أبداً.

أشير هنا إلى سيمور هيرش Seymour Hersh الذى يكتب الآن فى مجلة The New Yorker، والذى انفرد فى عام ١٩٦٩ بنشر تفاصيل مذبحة قرية MY LAI، فى جنوب فيتنام (حيث أصيب جنود أمريكيون بحالة هياج شديد أدت إلى قيامهم، فى يوم ١٦ مارس عام ١٩٦٨ بقتل سكان القرية من رجال ونساء وأطفال)، والذى انفرد أيضاً، فى العام الماضى وبالتعاون مع محطة تليفزيون «سى. بى. إس» بنشر تفاصيل إساءة جنود أمريكيين معاملة عراقيين محتجزين فى سجن أبو غريب، غرب بغداد، وتعذيبهم وامتهانهم.

بين هاتين القصتين الخبريتين اللتين فجرهما هيرش عناصر مشتركة تتمثل فى: الضغوط النفسية المتصاعدة ووقعها على شباب الجنود الأمريكيين فى بيئة معادية يصعب فيها تصنيف الأصدقاء والأعداء والخيانة والغدر، فشل فى الانضباط والقيادة داخل القوات المسلحة، إجراءات تحقيق متوانية بطيئة بسبب حماية غريزية لمؤسسة ضخمة وتعتيم دفاعى من قبل بعض قيادات الجيش، ومناخ داخلى لحماسة وطنية تصبغ مثل هذه الحوادث بقوة الاستقطاب.

عن الضغوط النفسية التى قادت إلى مذبحة My Lai يصف Ron Grzesik، من سرية «شارلى» كيف كان يميز ما بين الأعداء من قوات «الفيتكونج» وغيرهم من المواطنين الفيتناميين سكان القرى، ويقول: (كان علينا أولا أن نستوقف الناس،

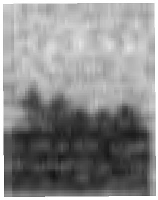
الصحفيين الملتزمين أشرنا إلى بعضهم. ثم كانت هناك التغطية الصحفية لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتور التي لم تغير من نهجها المتزن والإنساني وكان هناك سيمور هيرش الذي فضح تورط الإدارة في فضيحة أبو غريب في مجلة النيويوركر الممتازة، وكان هناك المؤلف والكاتب ذائع الصيت جيمس فالوز الذي حذر في مقال طويل جداً عن مخاطر الغزو في مجلة أطلانتيك منثلي.

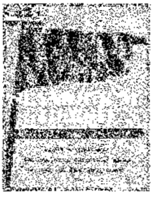
كان هناك أيضاً ما يسمى «بالإعلام البديل» الذي لم ينصع لتخويفات وملاحقات إدارة بوش. وقد ظهرت قيمته أثناء الحرب في إيجاد مصدر آخر للأخبار غير التنفيقات الحكومية، ويمتد هذا الإعلام أساساً في شبكة الإنترنت والمواقع الكثيرة للهيئات المناهضة للحرب والهيئات التي تراقب أداء الصحافة وهي كثيرة ومتعددة مثل هيئة «الإنصاف والدقة في وسائل الإعلام»، ومركز «النزاهة العامة»، و«اتحاد الحريات المدنية»، وعشرات وعشرات أخرى من هذه المواقع.

مع أن الإدارة لم تتخل عن سياستها في التضليل وممارسة الضغوط على وسائل الإعلام، إلا أن الإعلام الرئيسي بدأ يستعيد عافيته وتخلص كثير من الكتاب والمعلقين من الموانع الذاتية التي تكبلهم بل لقد راجعت كل من النيويورك تايمز والواشنطن بوست نفسهما واعترفتا بالأخطاء التي وقعتا فيها واعتذرتا للقراء. ولكننا نعتقد أن الصراع بين وسائل الإعلام والإدارة مستمر وإن المشوار مازال طويلاً. قبل أن يسترد الإعلام الأمريكي كل عافيته ومصداقيته.

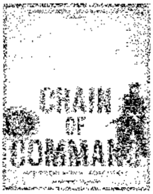
لا يمكن انتحال الأعذار للأداء السيئ لوسائل الإعلام الأمريكية في تغطيتها لأحداث ٩/١١ وما تلاها. كأن يقال مثلاً أنها فعلت ذلك تحت وطأة ضغوط شعبية شوفينية متعصبة، أو أنها كانت تخشى انصراف المعلنين عنها.

كما أن الإدارة الأمريكية الحالية تؤذي نفسها بنفسها عندما تنفق ملايين الدولارات لتحسين صورتها في العالم الإسلامي وعندما تتبنى مشاريع طموحة لنشر الديمقراطية في العالم الإسلامي. في الوقت الذي تمارس فيها الإرهاب الفكري ضد معارضيها. إن الولايات المتحدة تخسر كثيراً لتبنيها نهج الحروب النفسية على النحو الذي مازال يتبناه البنتاجون. ثم ماذا تظن الولايات المتحدة عندما تمارس ضغوطها على من لا ترضى عنه من وسائل الإعلام العربية. إن حملتها الحالية على شبكة الجزيرة سوف تسيء كثيراً إلى مركز الولايات المتحدة كداعية للديمقراطية وحرية التعبير ■

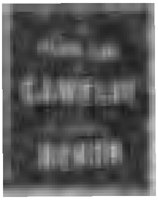












نستجوبهم، ونتركهم يمضون... وكان علينا ثانياً أن نستوقف الناس ونقوم بضرب رجل عجوز من بينهم، ونتركهم يمضون... وكان علينا ثالثاً أن نستوقف الناس ونضرب رجلاً عجوزاً منهم، ثم نطلق النار عليه، وفي النهاية نقوم بمسح القرية بما فيها ومن فيها).

بعد ٣٥ عاماً، وفي رسالة قصيرة إلى عائلته، ويحتفظ بها هيرش، يصف الرقيب أول Ivan Frederik حالة الارتباك النفسي وقد اصبح من المشاركين في انتهاكات سجن أبو غريب قائلاً: (لقد تساءلت عن بعض الأشياء التي رأيتها.. وكان من بين «هذه الأشياء» ترك السجناء عرايا أو إجبارهم على ارتداء ملابس داخلية نسائية وتقييدهم إلى أبواب زنازينهم.. والإجابة التي تلقيتها كانت أن ذلك هو ما تريده المخابرات العسكرية).

كانت الصحافة المعنية أيضا من القواسم المشتركة بين الواقعتين. لقد فجر هيرش تفاصيل مذبحة MY LAI في نوفمبر عام ١٩٦٩، أي بعد ٢٠ شهراً من وقوع المذبحة، وفجر تفاصيل انتهاكات سجن أبو غريب في أبريل عام ٢٠٠٤، أي بعد أكثر من ثلاثة أشهر من تسلم فريق المحققين العسكريين للصور الدالة على الانتهاكات، وأقل من ٦ أشهر على بدء التعذيب.

في الواقعتين كان الإصرار، والرغبة في الحصول على التفاصيل الدقيقة الصحيحة، والقدرة على الإنصات، والاستعداد لسماع كافة الأطراف، والشجاعة في مواجهة أصحاب النفوذ، وراء السبق الصحفي الذي حققه هيرش، وأراد له البعض أن يظل خافياً، ونجحوا في إخفائه لوقت طويل، واستطاع هيرش بالحاسة الصحفية والعمل الجاد والعقل المتسائل اجتياز الحواجز والوصول إلى الحقيقة.

هناك عنصر آخر يربط ما بين هذه الوقائع ويتمثل في وجود رجل من رجال القوات المسلحة الأمريكية لديه المثل الأخلاقية التي منعته من الانقياد وراء القطيع ومكنته من مواجهة رؤسائه بشأن ما يعتقد أنه انتهاك للقيم الأمريكية الأساسية.

في My Lai كان هذا الرجل جنديا في بداية العشرينيات من عمره، اسمه رونالد ريدينهاور، تصادف أن حلق فوق القرية بعد أيام من وقوع المذبحة، ولاحظ الخراب الكامل الذي حل بها. خراب لا يوجد فيه. وكما أخبر هيرش. ولو طائر واحد يغرد. وقد قام رونالد بتجميع المعلومات عن تفاصيل ما جرى، وكتب ـ فيما بعد ـ إلى أعضاء الكونجرس.

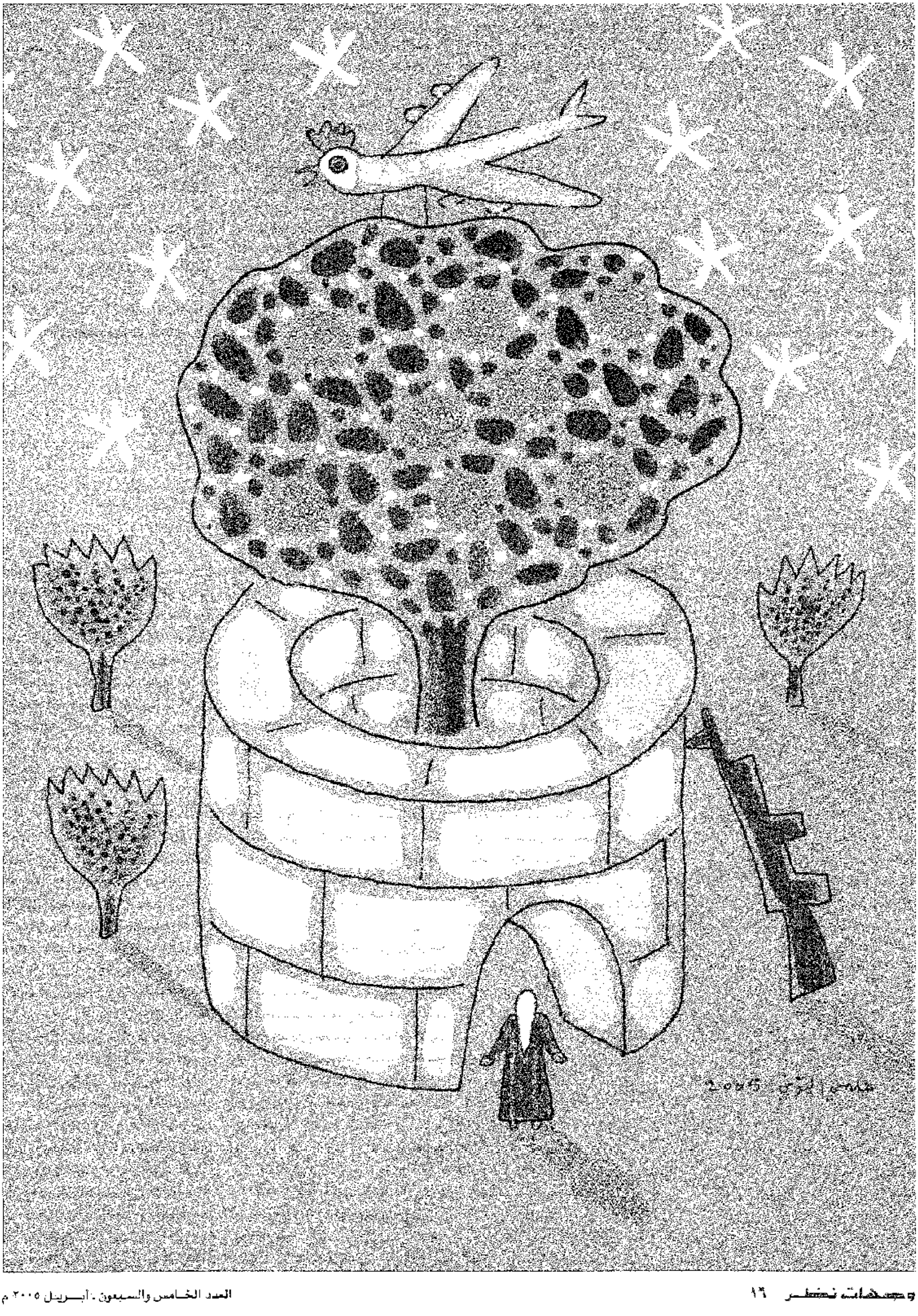
في أبو غريب كان جوزيف داربي من الشرطة العسكرية، هو الرجل الذي عثر على صور عارية لسجناء عراقيين تعرضوا لإهانات جنسية ودفعه الغضب إلى تسليم هذه الصور إلى المحققين في ١٣ يناير عام ٢٠٠٤.

من السهل جداً أن تحلق بعيداً وأنت جالس فوق مقعد مريح. من السهل جداً، وبضغطة زر، إطلاق التعليقات النارية والتوبيخ الأخلاقي. من السهل جداً أن نلحق بالجماهير الغاضبة، سواء في الشارع أو عبر الإنترنت.

الأقل سهولة، لكل منا، هو أن يعرف ماذا يمكن له أن يفعل إذا ما وجد نفسه داخل نظام قوي انحرف في عنف إجرامي: أنتوافق معه ونكون في مأمن، أم نخاطر ونواجه الجريمة؟.

كان ريدينهاور وداربي هما الاستثناء، مثلما كان هيرش استثنائياً في تشدده الأخلاقي وهو يطبق المقاييس الرفيعة لمهنة الصحافة. لقد اعتمد هيرش في عمله على طاقم تحرير صارم في الصياغة، ويقول في أحدث كتبه Chain Of Command أن «كل حقيقة كانت تخضع للتمحيص والمراجعة من المحررين».

وفي وقت الخطر الذي نعيشه، وفيه أصبحت صحافة «إم. إس. إم» هدفاً للظنون الأخلاقية والتقسيم القاسي، يبدو من الحيوي الآن ألا ننكمش خوفاً. إذ لا تزال قيم هيرش في التحقيق والشك والاجتهاد، هي التي تجعل من الصحافة رقيباً على السلطة وليس مجرد أصوات متراكمة صارخة، بغضب نبيل، في صحراء إليكترونية. ■



الزيارة الأولى.. للوطن

جُمانة أبو غزالة

جمانة (٢٤ عامًا):

بعيداً عن الوطن.. وُلدت: في الكويت.

ولغير الوطن.. انتسبت أوراقُ هويتها «الرسمية»: لتحمل الجنسيتين الأردنية والكندية.

وإلى الوطن.. كانت رحلتها «الأولى» قبل أسابيع.

وفي الوطن.. حيث وُلد أبوها: في «يافا» قبل عشرة أعوام من النكبة، كتبت يومياتها.

وهنا بعض الحكايا.

■■ عملياً، كنت أتصور فلسطين بطريقة رومانسية منذ مولدي. فقد كانت بالنسبة لي مسقط رأس أبي ومدفن أحلامه، وكانت الأرض التي اغتصبتها إسرائيل وتجاهلها سائر العالم.

في مخيلتي كانت فلسطين بالنسبة للعالم الابن الجميل المظلوم لزوجة الأب، وكانت مجموعة من المشاعر المؤلمة التي تستعصي بالمرة على فهمي، وكانت أثيرية وسريعة الزوال ووجودية.

ها هو الوقت يحين كي تصبح حقيقة. فقد قرأت الكثير عن فلسطين، وسمعت عنها مراراً، وما أكثر ما رأيت مما يتصل بها، ولطالما تحدثت عنها، وما أوفر ما كتبت عنها. غير أني لم أعرف عنها الكثير. ولذلك قررت في ربيع عام ٢٠٠٤ الذهاب إلى فلسطين.

لا معقول

أخيراً هبطنا على أرض المطار. ساعتان من الاستجواب، أعقبتها أربع أخر في وقت لاحق. هبطنا في يوم عطلة السبت، فكان المطار خالياً إلى حد كبير. وها أنا الآن في القدس الغربية، في أحد مقاهي الإنترنت بالمدينة: ما زلت أحاول تحديد أفضل طريقة لدخول القدس الشرقية ومنها إلى الضفة الغربية.

وجودي هنا أمر غير معقول في واقع الأمر. يبدو المكان هادئاً، بل وريفياً. ومما يدل عليه الحال اليوم، لا يمكنك معرفة أن هناك أي نزاع في المنطقة. هناك مجمعات وتوسيعات جديدة وملاعب وطرق. ولكن ما رأيته حتى الآن منطقة يهودية إسرائيلية، مع وجود عدد قليل جداً من العمال الفلسطينيين في أنحاء متفرقة. والناس يبدون سعداء وفي حالة من الاسترخاء والأمان. إن الحال هنا يبدو وكأننا داخل فقاعة، حيث الحماية التامة، والعيش في بلد يتمتع بالاكتفاء الذاتي، تماماً مثل أي بلد آخر.

الماء وفير في القدس الغربية، مثله مثل سائر المواد التموينية والضروريات. سرت بجوار الدكاكين والمراكز التجارية والمعارض وغيرها، وإن كان كل شيء مغلقاً بسبب عطلة السبت. يا لهم من أناس متدينين. دخلت المصعد بطريق الخطأ، وكان يتوقف عند كل طابق كي لا يُبذل أي جهد في الضغط على أية أزرار.

التقيت كذلك بإسرائيليين غير متدينين. وسلط لقائي مع زوجين صاحبي مطعم، هما تولي وبيني، الضوء على أمور كثيرة. كانا يشعراني بالإهانة وظلا غير مدركين أن حقهما في الأرض ادعاء فحسب. وأدهشني المرة تلو الأخرى كثرة ما ألح إليه الزوجان من تنازلات قدماها بعدم ذهابهما إلى العراق أو سوريا أو لبنان... فجميعها أراض وهبها لهما الرب. وكان هذان من الناس شديدي العلمانية: فهو يلبس قرطين في كل أذن، ومطعمهما هو المكان الوحيد الذي يقدم لحم الخنزير، وهو وحده الذي يظل مفتوحاً في عطلة السبت (فالمطعم مفتوح ٢٤ ساعة في اليوم و٣٦٥ يوماً في السنة)، وهما يظنان أن اليهودية التقليدية «خدعة دينية».

عبر الزوجان مراراً عن مدى كراهية التقليديين لهما لكونهم كارهين لأنفسهم، وعن مدى كراهية الأمريكان لهم لأنهم أشخاص سيئون، وعن مدى كراهية الفلسطينيين لهما ورغبتهم في أن يموتا ويرحلا. لم أقل أنا ولا هم شيئاً عن التاريخ الطويل من التعايش السلمي بين اليهود والمسلمين قبل إقامة دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨.

بقدر ما كان الأمر مؤلمًا، ورغم ما كانت رغبتي في الاختلاف، ظللت أركز على الهدف النهائي. ومع أني كنت أعرف مدى صعوبة إمساك لساني عن الكلام، إلا أنني كنت أريدهما أن يتحدثا بحرية. وكنت أريد أن أعرف ما الذي يؤمنان به حقاً، وكيف يريان الوضع. لقد رغبت في معرفة رؤيتهما.

إني أعرف رؤيتهما إلى حد ما، للأسف: فهما شأنهما شأن كثيرين غيرهما من البالغين نشأوا وهم يتعلمون في المدرسة والبيت أن العرب والمسلمين والفلسطينيين (وهم جميعاً سواء لديهم) من سلالة مختلفة: فهم قوم يتسمون بالعنف والقتل والأنانية والكراهية. وقالت لي تولي إن هذا بالفعل جزء من المنهج الدراسي. وعلى أية حال، فقد سرق العرب أرضهم، تلك الأرض التي منحهم إياها الرب نفسه: فما هو الخير الذي يُرتجى منهما؟

في لحظة من اللحظات، وبينما كنا نناقش الاقتصاد وكيف أنه من المعتاد أن يكون حساب الإسرائيليين في البنوك بالسالب، سألت إن كان ذلك يؤدي إلى حدوث سرقات أو جرائم. رد الزوج، بيني، بالنفي وسألني مبتسماً: «هل تعلمين لماذا؟... لأن العرب خلف الجدار، وهم من يسرقون».

لا أستطيع أن أقول لكم مقدار ما أصبحت عليه من قدرة على كبح جماح رغبتي في النقاش، وكيف أصبحت ماهرة في أن أكون أمريكية (وبالمناسبة هم يرون الأمريكان سذج وجهلة بعض الشيء)، وكم كانت شدة رغبتي في الخروج من جلدي والتحليق فوقهما: تاركة جسمي هناك ليمثل ذلك الدور.

قال لي بيني «العرب ليسوا مثلنا، وأدمغتهم مختلفة عن دماغي ودماغك». ومن المفارقة أنه كان ينظر إلى مباشرةً وهو يقول ذلك. وكانت كلمات «الإرهابيين والعرب و«الإسلاميين» تحل الواحدة منها محل الأخرى. لم يكن يعلم أنه ينظر إلى واحدة «منهم» نظر العين. كان مزيج الاحتقار والاشمئزاز والازدراء من القوة بحيث كنت أفهمه أكثر في كل مرة يشير فيها «إليهم». قال الزوج إن «أناساً مثلنا لا يتقاتلون فيما بينهم». ثم عاد وقال: «الحكام العرب حكام مؤمنون، إنهم إسلاميون ولا يعرفون الحلول الوسط. إننا نريد فقط أن نعيش هنا، في تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي بقيت لنا». وبينما كنا نطالع الخريطة أشارت تولي إلى سيناء، وأجزاء من سوريا ولبنان وقالت إنها ملك لهم «بموجب ما جاء في الكتاب». «نحن نحارب من أجل أرضنا، وهم يريدون قتلنا فحسب».

في النهاية كنت أعتزم إخبارهم أنني بالفعل عربية وفلسطينية ومسلمة، ولكنني تذكرت حينذاك أن بيني لا يزال يؤدي الخدمة العسكرية مرتين في الشهر، ولم أكن قد أنهيت رحلتي بعد. لن أعود إلى مطعمهما مرة أخرى.

القدس.. اختلاط اللغات والروائح والأديان

... ضحك بائع عاديات في المدينة القديمة حين أخبرته أنه لا مال معنا. ومن المدهش أن تسمع اللهجة والعبارات الاصطلاحية الأمريكية من عجوز أشيب كلامه غير واضح. وتبدو أمريكا هنا في شكل مغالى فيه. ومن اللافت للانتباه أن المكان اليهودي الذي قابلتهم يعتقدون أن الولايات المتحدة تصور إسرائيل على أنها «الناس الأشرار»...».

الشرق شرق والغرب غرب، ولكنهما يختلطان هنا في القدس. وتضم المدينة القديمة أحياء المسيحيين والمسلمين واليهود والأرمن. والواقع أنه من الصعب أن تحدد أين ينتهي الواحد منها وأين يبدأ الآخر. ولكن فجأة تجد نفسك في مكان يهودي تماماً أو مسيحي بشكل مطلق. ولكل حي

طابعه، وإن كانت معظم المحال تبيع الشيء نفسه. ولكن التردد مختلف، والسرعة متباينة، والجو متفاوت. فالحى اليهودى شديد التقليدية. وبناء على ذلك فهو هادئ إلى حد ما، ولا ترى سوى القليل من الحركة السياحية. ويتكون لديك إحساس واضح أنه داع لوجودك هنا.

يبدو أن الحى الأرمنى يضم أكبر تجمع لمحال بيع الحلى والمجوهرات. وهذا هو أحد الأحياء الأقل كثافة من حيث عدد السكان؛ ويبدو هذا أقل إثارة بمجرد أن ترى أن جدران الحى مغطاة بملصقات عليها خرائط وإحصائيات تذكِّر الناس بإبادة الأرمن الجماعية.

أما الحيان المسيحى والإسلامى فيقعان فى القدس الشرقية، حيث لا يُسمح للفلسطينيين بالدخول إلا فى ظل ظروف خاصة، رغم إعلان قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ القدس الشرقية أرضاً فلسطينية. وهذان الحيان يضجان بما تتسم به السوق الشرقية من نشاط؛ فهما صاخبان، وضيقان، وطرقهما ملتوية، وبهما كثافة سكانية عالية. وهناك بلا شك عبء حسى زائد عن الحد، حيث يرفع أصحاب المحال التجارية أصواتهم فوق أصوات بعض. ويسألك الناس إن كنت تريد القيام بجولة سياحية، وهناك الموسيقى (فى الحى المسيحى) والقرآن (فى غيره). كل هذا يقاطعه من حين لآخر صوت أبواق سيارات الجيب العسكرية الشهيرة.

فى الصباح يُثار الأنف برائحة التوابل الغريبة والبن المطحون الطازج. وكذلك القرفة والحبهان... وكأنه يقول اخرج من هذه الحالة بسرعة! ليس هناك شيء غريب بخصوص إفطار الفقراء. ولكن فجأة تهاجم أنفك رائحة البول العفنة. فتسرع الخطى. لتعلم أنك بحاجة إلى حذاء نعله من المطاط كى لا تنزلق أو تزل قدمك أو تسقط كل مترين أو نحو ذلك.

التجاورات التى تراها تكون مشجعة أحيانًا وتبعث على الارتباك فى أحيان أخرى: فالعرب واليهود يتحدثون معاً بحب ودفء؛ بل إنك تجد الكوفية واليرمولك (القلنسوة اليهودية) يتساومان. وبعد ذلك ترى رجلاً عجوزًا بذراع واحدة يحاول كسب لقمة العيش من بيع مخلفات جيش الدفاع الإسرائيلى وهو يبتسم. والواقع أنها صدمة للنظام. أما لافتات الطريق فى المدينة القديمة فثلاثية اللغة، ولكن معظم اللافتات التى مررت عليها سُودت الكتابة العربية التى عليها أو غُطيت بالورق الملتصق أو المخربشات العبرية، ولا أعرف الرسالة التى تضمنها الورق الملتصق أو المخربشات، إن كانت هناك أية رسالة. وبينما يتحدث أغلبية العرب اللغة العبرية، فقليل من اليهود يتحدثون العربية.

بعد ذلك رأيت لافتة بالعربية والعبرية والإنجليزية عند المدخل المؤدى إلى باحة كنيسة المهد تحظر الأكل والشرب والتدخين والضوضاء والملابس غير اللائقة، بالإضافة إلى أى شيء ليس فيه احترام لقدسية المكان. حين تدخل الباحة ترى على يسار المدخل المؤدى إلى الكنيسة حوالى العشرين من أفراد الجيش المسلحين وتسمعهم وتشمهم. إنهم يدخنون (الجميع يدخنون هنا، باستمرار)، ويشربون الكوكاكولا. ويجرون نوعًا من التدريب تقوده امرأة ذات صوت غليظ عال لابد أنها كانت تروى لهم بعض النكات.

حان وقت الغداء بعد قليل؛ وهو حتى الآن نظام غذائى ثابت من الحمص والفلفل الرومى والكرنب، بالإضافة إلى اللحم أو الدجاج أو الفلافل فى واحد من عشرات المقاهى الصغيرة التى تشترك جميعها فى قائمة الطعام التى يختار صاحب المحل طهيها وتقديمها، بغض النظر عما تقوله اللافتات.

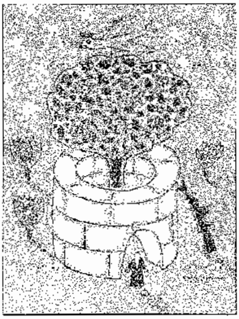
هذه هى المدينة القديمة: حارة، وضيقة، ورخيصة، وفقيرة، ومختلطة، وتتسم بالفوضى، ومروعة، وبدائية، وتبعث على الحزن، وتثير الرهبة، كما أنها غريبة بالنسبة لكل من لم يولد فى أحد هذه الأحياء، بالمعنى الحرفى للكلمة.

الجــــــــدار

ذهبنا اليوم إلى أبو ديس، أقرب نقطة فى القدس إلى الجدار، بينما بقيت على الجانب الإسرائيلى لتحاشى نقاط التفتيش.

ذهبنا إلى هناك فى أتوبيس غير مكيف الهواء، وكنا نتصبب عرقًا حين وصلنا. لم أفهم جيداً القيام برحلة وأنا أرتدى ملابس المرأة المسلمة المتدينة، حيث غطاء الرأس والأكمام الطويلة والتنورة الطويلة. وأخيرا وصلنا إلى هناك وتدفق الناس خارجين من الأتوبيس متجهين صوب ما يشبه الطريق المسدود. أما نحن فسرنا فى الاتجاه المعاكس.

تجد على امتداد الجدار كتابات، هى فى الغالب ضد الجدار ومن أنحاء العالم كافة. كما تجد رسومات معبرة تدل على ما يراه أبناء البلد فى الجدار، وفى كيفية وجوده، وفى من أقاموه. وقد رسمت صور بالطلاء البخاخ على خرسانة الجدار الرمادية بينها نجمة داود وداخلها علامات الدولار. ويسمى رسم آخر البناء «جدار بوشارون»، مما يعكس فكرة أن بوش وشارون وثيقا الصلة ببعضهما بحيث يشتركان فى اسم واحد.



بينما كنا نطالع الخريطة أشارت تولى إلى سيناء، وأجزاء من سوريا ولبنان وقالت إنها ملك لهم «بموجب ما جاء فى الكتاب». «نحن نحارب من أجل أرضنا، وهم يريدون قتلنا فحسب»

فى طريق العودة كى نستقل الأتوبيس، ذهبنا فى الاتجاه الذى ذهب إليه الناس الذين كانوا معنا، فأصبحت الأمور واضحة: فقد استقلوا الأتوبيس ليصلوا إلى الجدار كى يتسلقوه ويدخلوا الأراضى المحتلة. ولأن الجدار لم يكتمل بناؤه بعد، فهناك القليل من «نقاط الاتصال» بين إسرائيل والأراضى المحتلة.

ليس مهماً فهم أن هذا ليس «مجرد» جدار يفصل بين المجتمعين؛ فهو ليس سياجاً بين جارين. إنه يخترق المجتمعات الفلسطينية، ويشق بيوتها وعائلاتها إلى نصفين بالمعنى الحرفى للكلمة. ولأن الجدار لا يزال تحت الإنشاء، فهناك بضع نقاط من الانخفاض بحيث يمكن للناس تسلقها؛ وهو ما يفعلونه عند ذهابهم إلى العمل والمدارس والمستشفيات والزيارات العائلية والعودة منها... نساءً ورجالاً وأطفالاً وشيوخاً. وهذا الجدار يفصل الرجال عن أبنائهم، والنساء عن أمهاتهن، والمزارعين عن محاصيلهم، والقرى عن مياهها، والأطفال عن مدارسهم، والحوامل عن أطبائهن.

الجدار أفعى عاصرة تلتف حول الضفة الغربية وكل شيء فيها فتخنقها. إنه يلف نفسه حول المجتمعات الفلسطينية ويعتصر الحياة من الضفة الغربية، بالمعنى الحرفى للكلمة. وهو مميت، وطويل، ومكهرب، ويقتل فلسطينيى الضفة الغربية قتلاً بطيئًا، ومؤلمًا، وبلا رحمة.

التقطنا الصور... قال شخص عند تسلقه الجدار لدخول الأراضى المحتلة: «خذوا كل ما تريدون من صور؛ فكل هذا لا يساوى شيئاً». ولابد أن أعترف أننى شعرت الشعور ذاته كذلك؛ فقد كان الجدار من الكبر، وكان التأييد المضلِّل له باعتباره «حل صراع الشرق الأوسط» من العظم، بحيث ظننت أن أى شيء يمكن أن يفعله أى منا لن يولِّد القدر الكافى من الغضب. فالكثير من الناس الذين قابلتهم قبل زيارتى إلى هنا (وكذلك فى أثنائها) والعديد من المقالات التى قرأتها يقلون فى أهميتهم عن ضرورة الجدار لأمن إسرائيل. ويشير قدر كبير مما يقال فى وسائل الإعلام إلى أن الجدار هو الوسيلة الوحيدة لمنع الفلسطينيين، وجميعهم من الإرهابيين تجار الحروب، من مهاجمة الإسرائيليين. ولكن هذا الجدار كما أراه سلاح دمار شامل، وليس حماية. فهو وسيلة لعزل الناس عن أحبائهم، وعن أراضيهم، وعن مصادر أرزاقهم.

بعد دقيقة أو نحو ذلك، قال رجل يتسلق الجدار عائداً إلى إسرائيل: «أرجوك من فضلك أن تأخذى الكثير الكثير من الصور، فحين يكتمل لن يُسمح لك بذلك. التقطى الصور قبل أن يأتى الجيش». وكذلك فعلت.

ســــجن عـوفـر

شاركت اليوم فى مظاهرة نسائية برفح. وقفت مع الأمهات والأخوات والبنات والخطيبات والزوجات والجدات على ربوة تشرف على سجن عوفر. هؤلاء النسوة يجتمعن كل أسبوع بلا استثناء مطالبات بالإفراج عن أحبائهن من سجن عوفر، وهو السجن المعروف بوحشية سجانيه والمعاملة غير الآدمية للنزلاء.

عشرات الآلاف من الفلسطينيين محتجزون بلا أية تهمة. الكثير من جيل الصبيان الفلسطينيين التالى فى

السجن. وفى الفترة الأخيرة يجد المزيد والمزيد من النساء أنفسهن كذلك خلف القضبان، بينما لم ترتكب أى منهن أية جريمة، ولا تجد إسرائيل نفسها مضطرة لشرح أسباب اعتقالهن. ولا يعرف معظم الناس متى يخرج أبوهم أو ابنهم أو شقيقهم من السجن، إن كان سيخرج منه فى يوم من الأيام.

اجتمعنا فى بيت بالقرب من السجن ننفخ البالونات وننظم أنفسنا، ثم دخل الجد وطردنا فى نوبة من الهستيريا إلى خارج البيت، فهو لا يريد أى شىء يتصل بأية مظاهرة من أجل أى شىء فى أى مكان، ويبدو أن آخر مرة شارك فيها حفيده فى إحدى المظاهرات دمروا بيته. وهو لا يريد مشاكل.

كان هناك حوالى الخمسين منا، وكن مسلحات باللافتات أو البالونات أو الأصوات. وقفنا قبالة السجن ونادينا على السجناء بأسمائهم. كنا نريدهم أن يعرفوا أنهم لم ينسوا.

رن جرس تليفون محمول: إنه شخص من داخل السجن، لقد سمعونا، وصرخنا من جديد بصوت أعلى، وشكرونا على رفعنا لمعنوياتهم، وقالوا لنا إنهم سعداء لأن سجنهم لم يذهب هباءً، وأرجو أن يكونوا محقين فى هذا.

مكالمة أخرى، وكانت هذه المرة من أم أحد الجنود اليهود الرافضين للخدمة فى الأراضى المحتلة: كانت تتمنى لو أن جماعتها استطاعت الانضمام إلينا، ولكنها لن تستطيع هذه المرة، غير أنها تريدنا جميعاً أن نعرف أننا نفعل الشىء الصحيح.

تبدأ بعض الإيطاليات الموجودات هنا ضمن «المشروع أمل» الإنشاد، وتبدأ سيارات الجيب فى التقاطر إلى المكان، فنلملم أشياءنا ونلوح مودعين للسجناء، دون أن تبكى واحدة منا.

يـــافـــــــــا

يافا جميلة، واسأل عن ذلك أى أحد. إنها شقيقة تل أبيب الأبهى منظراً. فبالرغم مما تتباهى به تل أبيب من حركة ونشاط وتجارة، تتمتع يافا بقدر أكبر من السحر والشخصية والروح. ولابد أن تأتى بنفسك لتراها، فالكلمات لا توفيها حقها. وقد رأيت القديم والجديد، والمدينة والقرية، والنظيف والقذر، والمرتفع والمنبسط، والعربى والإسرائيلى؛ جميعه على تلك الرقعة الصغيرة من الأرض... وقارنت بعض المناطق بمدن فى أوروبا. وشعرت بوجود شىء روحانى ما فى بعض الأماكن.

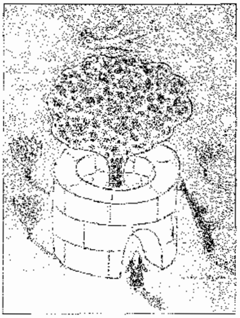
لكن يافا أربكتنى. لم أستطع أن أقرر إن كانت أشبه باليونان أو بجنوب فرنسا أو بأجزاء من سويسرا أو بكروم مارتا أو بالريف الإيطالى.

ذهبنا بالسيارة من القدس عبر تل أبيب على طريق يتراوح عدد حاراته بين ٦ و٨ وتوقفنا فى يافا. وعلى طول الطريق يدهشك مدى اخضرار هذا البلد، ومدى خصوبته وغناه الطبيعى. وإنى متأكدة من أن الطريق نفسه كان بديع المنظر. فأنت ترى التل يتلوه تل، ثم بقعة من الأرض بنية اللون بها كل درجات اللون الأخضر، وترى الانعكاس الفضى المرقش لأشعة الشمس الساطعة على كل مسطح مائى، وترى بيوتاً يزيد عمرها على المائة عام، وهى الآن خاوية تتناثر على التلال. كما ترى على جانبى الطريق دبابات استخدمها الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٤٨ محفوظة ومطلية بدرجة من الأحمر بلون الصدأ. إنك ترى ذلك وتقترب من فهم السبب وراء حرب الناس من أجل هذه الأرض.

تشير ناطحات السحاب إلى اقترابنا من تل أبيب. إنها ولا شك مدينة نشطة، وهى نظيفة وحديثة وسياحية. كما أنها خليط يجمع بين لوس أنجلوس وشاطئ فينيسيا، وسكانها أناس كثيرو الحركة ومهندمون ويتصفون بالجمال. ويوجد هنا المال والسلطة والنفوذ والملاهى الليلية ومطاعم الخمسة نجوم والسيارات المزخرفة التى تصدر منها موسيقى البوب على امتداد الشاطئ الذى يزينه النخيل. وأغلب سكان تل أبيب من الإسرائيليين، وإن كان بعض العرب يعيشون بينهم. وبينما كنا نمضى بالسيارة أمام المبانى الحديثة مررنا بمسجد قديم أسكتته السلطات الإسرائيلية، مع أنه لا يزال يعمل ويؤمه المسلمون يومياً. فأنت لا تسمع الأذان آتياً من ذلك المسجد.

لكننا سوف نسمع الأذان فى يافا. فإذا ظللت تسير على الشاطئ سوف تصل إلى يافا، وفجأة لن تجد نفسك فى مدينة أخرى فحسب، بل فى زمن آخر تماماً، حيث تصبح تضاريس المدينة أكثر تحديداً. إن بإمكانك رؤية الخطوط الخارجية لمسجد وكنيسة بجوار بعضهما، حيث يطل كلاهما على البحر. وقد توقفنا عن السير حين بلغنا يافا ونظرنا للخلف من هناك، فبدت تل أبيب وكأنها غابة من الخرسانة، أقرب شبهاً إلى وسط أية مدينة فى العالم.

فى تل أبيب يستلقى الناس على



هـــذه هـــى المـدينــــة الـقــديـــمــة: حـــارة، وضيقة، ورخـيـصـــة، وفـقــيـــرة، ومختلطـــة، وتتسم بالفوضى، ومروعة، وبدائية، وتبعث عـــلـــى الحـــزن، وتثير الرهبة

الشاطئ، وفى يافا ينطلقون منه لاصطياد الأسماك. لم تعد فى مدينة كبيرة، بل أنت فى قرية يعرف الناس فيها بعضهم بعضاً بالاسم. ويبلغ ارتفاع أعلى بناء أربعة طوابق. وفيها يتجمع كبار السن مساءً للشكوى من نسائهم. ويافا هى موطن الإسرائيليين والعرب، حيث إنهم جيران منذ زمن، وهم يشتركون فى الهواء والطعام والمدارس ومنظر يتحدى قدرتى على الوصف، وهم عائلة، وكذلك كانوا دائماً.

هل تأتين كثيراً إلى هنا؟

أفترض أنه يحدث دائماً للنساء الإسرائيليات كافة أن يتحرش بهن رجل ذو سلطة. رجل يأمر الناس بما يفعلون، رجل من القوة بحيث يستدعى الاحترام، إن لم يأمر به. رجل تؤكد رجولته البندقية M-١٦. وأتخيل مقدار ما تناله أولئك النسوة من إطراء حين ينظر إليهن فارسهن الذى يرتدى صديرية مضادة للرصاص نظرات موحية وهو يمر بسيارته الجيب التى هى المظلة الأمنية لكل إسرائيل. وعلى أية حال، فهذا هو الرجل الشجاع، الشريف، المقدام، الحامى؛ وعلى أية حال، فالرجل المغالى فى التباهى برجولته الذى لا يسمح بحدوث أى شىء لمحبوبته هو موضوع الحكايات الخيالية.

لكن حين حدث ذلك لى، لم أشعر بالإطراء فحسب، بل شعرت كذلك بالخجل، ولم يحدث أننى لم أتأثر بذلك فحسب، بل إنه أثار اشمئزازى. حين غازلنى جندى فى إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية كانت لدى رغبة فى التقيؤ. ليس لأنه جندى إسرائيلى. بل أردت التقيؤ لأنه حين أشار إلى بالخروج من الحشد، وأخذ وقته فى تقليب محتويات حقيبة الظهر الخاصة بى وتقليب أشيائى ببندقيته من طراز M-١٦، نظر إلى. أنا الضيفة الكندية، وقال بلطف: «انتبهى، فالعرب سيئون. ولكننى أهتم بك. فأنا أقتلهم». ثم ابتسم لى، وتظاهر بإطلاق النار على سائق التاكسى الذى استقله.

وقفت هناك بينما كان هو يحدق فى. وقفت هناك أمثل دور الأجنبية الساذجة. وقفت هناك بينما كان الآخرون ممن كنت معهم، وجميعهم من السكان المحليين باستثناء اثنين منا، يتحدثون فيما بينهم عن كيف كانوا محظوظين لوجودى معهم؛ حيث الآن وجودى الجندى. ثم تحدثوا، بعد ٢٠ دقيقة و١٠ تعليقات موحية، عن رغبتهم فى أن يسرع ويحصل على رقم تليفونى لكى ينجوا هم بأرواحهم. وقفت هناك، كذبة حية تتنفس بالنسبة لطرفى الصراع.

شعرت بالخجل، مما جعلنى أقوم بدور البكماء، وأظل أقوم به. وأخفيت فى الأساس هويتى. شعرت بالخجل لدرجة أننى لم أقل للجندى أنه كان لابد أن يقتلنى كذلك، بناء على نظريته. شعرت بالخجل لأن الشخص اللطيف كان من نصيبي وكان الدكتور جيكل من نصيب كل فرد غيرى. شعرت بالخجل لأن الجميع اضطروا للانتظار من أجلى. شعرت بالخجل لأننى لم أؤيدهم. شعرت بالخجل لأننى استخدمت جواز سفرى الأجنبى كى أفعل ما يُحرم منه أبناء البلد أنفسهم داخل بلدهم. شعرت بالخجل لأننى أسفت لكونى كندية، بدلاً من تقديرى لما سمح لى كونى كذلك من عمله، الأمر الذى قد ينطوى على المفارقة.

عدت إلى السيارة الصفراء المتداعية وتساءلت عما سأفعله خلاف ذلك لو حدث شىء كهذا مرة أخرى. أنى أخجل أن أقول أنى قد أفعل الشىء نفسه من جديد.

كتاب الزاوية

عبد الرحمن الكواكبي

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

«أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي وعالم عامل من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري ألا وهو السائح الشهير والرحالة الخبير السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبي، مؤلف كتاب «طبائع الاستبداد» وصاحب سجل جمعية أم القرى الملقب بالسيد الفراتي. اختطفت المنية منا بغتة هذا الفاضل الكريم والولي الحميم» كان ذلك نعي الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار لعبد الرحمن الكواكبي عند وفاته في القاهرة عام ١٩٠٢. وقد ولد الكواكبي عام ١٨٥٥ في حلب وتعلم في مدارسها ثم عُين محرراً للجريدة الرسمية في الثانية والعشرين من عمره وتقلب في الوظائف العامة وأصدر جريدة «الشهباء» ثم «اعتدال» وانتقل إلى القاهرة ومنها زار بلداناً عديدة. وكانت كتاباته خاصة «طبائع الاستبداد» صرخة في وجه المستبدين في زمن ازداد فيه الاستبداد والطغيان حتى شمل مختلف المجالات. وما أشبه الليلة بالبارحة.

«وجهات نظر» تنشر مقتطفات من «طبائع الاستبداد» الذي أعادت دار النفائس في بيروت إصداره عام ٢٠٠٣ مواكبة للذكرى المئوية لوفاته.

نقطة تفتيش

غادرت القدس في حوالي الثانية عشرة ظهراً متوقعة القيام برحلة ملتوية عبر الجبال، على افتراض منع الجيش لنا من دخول نابلس عند نقطة التفتيش. الوضع هنا شديد التوتر؛ بل إن الجنود حين لوحوا لنا ببنادقهم من طراز M١٦ قالوا إن علينا أن نكون شديدي الحذر، لأن تواجد الجيش في نابلس زاد مؤخراً.

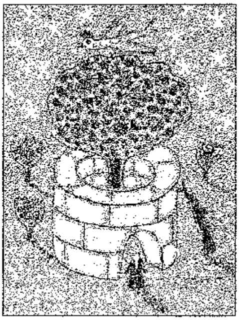
وقف بعضنا عند نقطة التفتيش بينما كان الجنود يتحادثون معنا ويلقون التعليمات على العرب بصوت مرتفع، وعادة ما كانوا يبدأون بعبارة «قف هنا» وكانوا يصوبون البنادق باستمرار. كانت امرأة هَرِمة ترتدي الزي الفلسطيني التقليدي تخطو خطوات بطيئة متْعَبة لتصل إلى الصف حيث ستضطر إلى الانتظار ساعة على الأقل في ذلك الجو الحار الذي أراه خانقاً. كانت تحمل كيساً من البلاستيك وعصا؛ ومع أن كل خلية في جسمها كانت تشدها لأسفل، فإنك ترى الجهد الذي تبذله في الإبقاء على رأسها مرفوعاً. لقد قامت بهذه الرحلة ملايين المرات من قبل، وسوف تقوم بها من جديد...

سألنا الجنود عن السبب في رغبة الأجانب في الذهاب إلى الضفة الغربية. لماذا نرغب في رؤية «هؤلاء الناس»، وقلنا لهم إننا معلمون، فقالوا «لماذا يريدون تعلم اللغة الإنجليزية؟» تركونا منتظرين نصف ساعة، كانوا يسألوننا خلالها عن كرة القدم وعن بلد كل منا، وعن الطقس في أنحاء العالم المختلفة.

ثم انطلقنا؛ بينما كان الناس، الذين لهم عائلات ومصادر رزق يحصلون عليها على الجانب الآخر من نقطة التفتيش، لا يزالون منتظرين في الصف... ومن غير المرجح إلى حد بعيد ألا يدخلوا اليوم.

مدينة ترتدي ثوب الحداد

أقيم مع أسرة في البلدة القديمة بنابلس؛ على الماء الجاري وبلا أبواب أو نوافذ. لقد أضافوا للتو سقفاً بديلاً لأن الجيش أطار السقف الأصلي في إحدى غاراته وقتل إحدى بناتهم. وهناك اثنان من أشقائها في السجن؛ فالجيش يزعم أن أصدقاءهما ضالعون في أنشطة إرهابية. أتم أحدهما عامه السابع عشر



وقف بعضنا عند نقطة التفتيش بينما كان الجنود يتحادثون معنا ويلقون التعليمات على العرب بصوت مرتفع، وعادة ما كانوا يبدأون بعبارة «قف هنا» وكانوا يصوبون البنادق باستمرار

وهو في السجن، وكان الآخر على وشك الزواج. وقصة أسرة والدهما لا يصدقها أحد.

بعد الواحدة صباحاً بقليل بدأ القصف واستيقظ كل من في البيت الذي كنت أنام فيه، كان الظلام يلف المكان، بينما كان الراديو والتلفزيون المشوشان كلاهما مفتوح لسماع الأخبار العاجلة، واستمرت الانفجارات والطلقات ٤ ساعات تقريباً. وفجأة سمعنا أنه هجوم على معسكر للاجئين في نابلس. أظن أنكم سمعتم عنه في الأخبار، لأن ضابطاً إسرائيلياً قُتل. ولكن من المرجح أنكم لم تسمعوا بقصة الصبيان السبعة الذين قُتلوا قبل وصولنا مباشرة في البلدة القديمة تم دمر المنزل. سألتنا الأم ٧٠ أمس و٤ اليوم، وكم غداً؟ لقد ذكّرتنا بالشقيقين اللذين لم يفصل بين مقتلهما أكثر من أسبوعين، حيث قُتل ثانيهما قبل بضعة أيام.

كان الأمر مرعباً. طلب منا جميعاً غلام في السادسة من عمره، هو حفيد مضيفتنا الذي كان منكمشاً فوق الأريكة، الجلوس على الأرض. وقال لجدته إنه سعيد لوجود أجانب في الدار. تنهدت الجدة وقالت له ألا يخاف وقالت لي «بقي واحد هنا ليُقتل».

كان الجيش يطارد شابين. قُتل ٤ فلسطينيين بينهم أستاذ جامعي وابنه. بدت الليلة وكأنه لا آخر لها. كانت أجهزة

التليفون المحمولة جميعها ترن في وقت واحد، حيث كان الناس يطمئنون على بعضهم. وطلب منا الصبي وليد مرة أخرى أن نجلس على الأرض. قال لنا ذلك لأنه الرجل الوحيد في البيت، وسوف يحافظ على سلامتنا. كان يرتعش في درجة حرارة مقدارها ٨٠ فهرنهايت.

ذهبنا إلى المستشفى في صباح اليوم التالي لتقديم الدعم وتوثيق ما نرى. كان أول ما وجدناه حشداً من الناس يتدفق خارجا من المستشفى إلى الشارع. كان هناك بعض الرجال الغاضبين؛ كانوا بارزين. أما باقي حشد المستشفى فكانت وجوههم يعلوها الحزن والكآبة. لم يكونوا غير مصدقين ولا حتى مصدومين؛ بل كانوا في حالة من اليأس.

كانت المدينة كلها في حالة حداد ذلك اليوم. ظل الناس يسألون الدوليين عن عدد من سيلقون حتفهم قبل أن يهتم العالم. كانوا يشكروننا على وجودنا بينهم، وكانوا كذلك يناشدوننا أن نحكي للناس. بدأ موكب الجنازة من عند المستشفى. ويبدو أن السكان جميعاً خرجوا للتظاهر. مشينا ساعتين إلى المدافن؛ حيث أغمي على البعض من شدة الحر. كان من المهم بالنسبة لنا أن نكون هناك لئلا يمنع الجنود عند إحدى نقاط التفتيش الثابتة أو المتحركة العائلات من الذهاب إلى المدافن. كان أحد المتوفين ابن عم امرأة تسكن في نفس المبنى الذي تقيم فيها الأسرة التي تستضيفنا. هل تعرف أنك في بعض الأحيان تكتشف أن هناك بكاءً مصطنعاً لاستجداء العطف؟ أقسم أنني شعرت بالعكس هنا؛ فقد كانوا يتصنعون عدم وجود الدمع، وكان هناك جهد مشترك لإبقاء بواباته مغلقة. وقالت لي، مثلها مثل كثيرات غيرها، إن الفلسطينيين ليسوا بحاجة إلى الشفقة علاوة على ما يعانونه؛ فهم يشعرون بما يكفي من الضآلة. وعلى أي الأحوال فإن «هذه ليست المرة الأولى التي يموت فيها أحد من أسرتي ولن تكون الأخيرة».

(باعتباري «آتية للمرة الأولى»، فقد سُمح لي بدخول البلاد بسهولة نسبية، بينما رُد الكثيرون على أعقابهم، أو جرى ترحيلهم على الفور، أو مُنعوا من دخول البلاد. وما إن يحدث لك ذلك حتى لا يمكنك العودة لمدة ٥ سنوات على الأقل).

بعد الجنازة، عدت أنا وفريزر (إحد رفاق الرحلة) إلى القدس عبر نقطة التفتيش. وقد جعلونا نتنحى جانباً. وبعد بضع دقائق طلبوا منا السير نحو الدبابة. ذهبنا إلى الدبابة وأشار الشخص الذي بداخلها إلى طاولة. وهناك جاء رجل آخر مصوباً بندقيته من طراز M-١٦ طلب منا وضع أغراضنا فوق دواسة مطاطية وأشار ببندقيته إلى الأجزاء التي يريد فتحها. وبعد أن أخرج فريزر كل شيء من حقيبته وأعاده إليها، أشاروا لنا بالعودة مرة أخرى إلى نقطة التفتيش. وبينما كنا ننتظر دورنا، رأيت جنديا يخرج امرأة من بين الحشد ويأمرها بالعودة إلى بيتها؛ فلن يسمح لها بالدخول. تقدمنا: «لم أنت هنا؟ ماذا كنت تفعلين هناك؟ لم ذهبت إلى هناك؟ ماذا تدرسين هناك؟». ثم سأل فريزر: «ما هو بلدك؟» «المملكة المتحدة». «أي مكان في المملكة المتحدة؟» «لندن». «أي مكان في لندن؟» «إيلنج». «أي مكان في إيلنج؟» «ويست إيلنج». وأعطاه فريزر اسم الشارع. «يوماً سعيداً». لقد نجحنا.

عدنا إلى القدس. قتل خلال الاثنتي عشرة ساعة التي مرت منذ مغادرتنا نابلس ثلاثة أشخاص في مخيم بلاطة للاجئين حيث كان هؤلاء الرجال يقيمون. أتساءل إن كنت قد قابلت أياً منهم، وأدرك فحسب مقدار الفرق الذي تحدثه الشجاعة في الجسم.

حلم أمريكي آخر.

حاشية

على عكس الاعتقاد الشائع، لا يريد الفلسطينيون الكثير. لقد رحبوا بي في بيوتهم، وقدموا لي فراشهم، وأطعموني وجباتهم، وفتحوا لي قلوبهم. ومن المفارقة أنني أنا التي اعتمدت عليهم. لم يطلبوا مني شيئاً. كل ما أرادوه مني أن أحكي قصتهم للعالم. سأفعل ذلك بالطريقة التي أقدر عليها بقية حياتي.

لكن لا تكتفوا بما أقوله. اذهبوا إلى فلسطين. سيروا في معسكرات اللاجئين. قفوا بجانب الجدار. اذهبوا إلى مزارع الزيتون. زوروا الأماكن المقدسة. اقضوا بعض الوقت مع أبناء البلد. تحدثوا مع الأطفال. قفوا في الصف عند نقاط التفتيش. اذهبوا إلى جنين. اذهبوا إلى نابلس. اذهبوا إلى القدس. اذهبوا إلى يافا. اذهبوا إلى الخليل. اذهبوا إلى تل أبيب.

اذهبوا وشاهدوها بأنفسكم، بأعينكم أنتم. عيشوا الحياة في الضفة الغربية، وفي غزة إن استطعتم. ثم أصدروا أحكامكم. وبعد ذلك احكوا قصصكم للعالم. ✻

ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

عبد الرحمن الكواكبي

الاستبداد

الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة. وقد خلق الله النار أقوى المطهرات فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم أحراراً وبسط لهم الأرض واسعة وبذل فيها رزقهم، فكفروا بنعمته ورضخوا للاستعباد والتظالم.

الاستبداد أعظم بلاء، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة. نعم، الاستبداد أعظم بلاء لأنه وباء دائم بالفتن، وجدب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمي الأبصار، وألم لا يفتر، وصائل لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهي. وإذا سأل سائل: لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين؟ فأبلغ جواب مسكت هو: إن الله عادل مطلق لا يظلم أحداً، فلا يولي المستبد إلا على المستبدين. ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبداً في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبدون يتولاهم مستبد والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: (كما تكونوا يولى عليكم).

ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته، فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط.



رفيق الحريرى..

حرية تنتصر على الاستبداد

غســـــان تــــوينـــى

فى ســـاحة الشـــهداء
بوســط بيـروت يرقــد اليـــوم
رفيـق الحريرى رسولاً لحكم جديد ووطنيـة
يسـتحدثها بالعمـــل ولا يهمـــه
رأى النـــاس فيـــه!

■ رفيق الحـــريرى كان عملاقاً من فولاذ ونحاس، فكيف كان يمكن أن نصدق أنه يُغتال كأىّ إنسان آخر؟

رفيق الحريرى نحت تمثاله من حياته، بأزميل الإرادة الذاتية، ثم سكب فيه حكايات تصميم على النجاح لا رادع له.

فى زمن الاستبداد العربى، سيخلّف هذا الحاكم ذاكرة ديمقراطية لم ترسم طبائعها فلسفة ولا عقيدة، بل مجرد ترقية طبقية من منطلقات المجتمع الدنيا إلى قمة سلطة رسمت لنفسها قدَراً لا يعترف بمستحيل.

تلك كانت أسرار قيادته الشعبية: من الناس كانت، وباسمهم ومن أجلهم تمارس حكماً يفيض على ضفاف الدستور، والمحرّك هو العمل فى مجتمع البذل والعطاء، والبناء بلا حدود.

سحرنى بأول طلب وجهه إلى كسفير لبنان يحترق بالاحتلال الإسرائيلى، فى مكالمة هاتفية الساعة الرابعة ذات صباح عام ١٩٨٢، من بيروت إلى نيويورك.

كان يريدنى أن أجعل الأمم المتحدة توصل ثلاث بواخر من الأغذية من قبرص إلى مدينته صيدا. «وين المشكلة»؟ سألته. قال إسرائيل لا تسمح بوصول البواخر إلى صيدا. تريدها أن تفرغ الحمولة فى حيفا، فتنقل هى الأغذية براً إلى مدينة صيدا؟... «أهلى لا يريدون الأكل من يد جيش الاحتلال».

عندما استيقظت نيويورك، بعد خمس ساعات، كان جواب الأمم المتحدة أنها مستعدة أن تسمح للحكومة اللبنانية برفع أعلام الأمم المتحدة على بواخر من قبرص إلى صيدا. أبلغت رفيق الذى لم أكن أعرف من هو بأكثر من الاسم. فهنأنى، ولم أفهم لماذا.

قال: «عال. لدى بواخر وهى محمّلة فى مرفأ أوروبى. سأسجلها باسم لبنان (ما همنى الحكومة!) وأطلب إليها الإبحار إلى قبرص حيث توجد قاعدة دولية لديها ولا ريب أعلام زرقاء. المطلوب أن تبرق المنظمة إلى القاعدة لتعطى البواخر أعلاماً».

وأقفل الهاتف بدون انتظار جواب. وافترض أننى مثله لا بد أن أجد حجة أو طريقة لتلبية الطلب، وكأننا، نحن الاثنين - هو المواطن البسيط وأنا السفير المنقطع عن حكومته بل وطنه - فى وسعنا أن نختصر كل قوانين الحرب والسلم لنوصل الأغذية إلى «أهله فى صيدا».

وهكذا كان. ولم تعلم حكومة كانت السلطة تذوب فى أيديها بنار العدو. ولا أذكر أنه شكرنى بعد ذلك. ولم أعلم بأن الأغذية وصلت إلى صيدا فى اليوم التالى للمكالمة إلا من سفير أسوجى كانت نيويورك قد أرسلته ليدرس احتياجات الجنوب المحتل، فأبرق تقريراً يشيد فيه بالحكومة التى أمّنت التغذية لعاصمة الجنوب.. بحراً علماً بأن بيروت العاصمة كانت جائعة ومحاصرة.

... وهكذا صار رفيق يفهم الحكم: لما تولى رئاسة الحكومة بعد عشر سنوات، بيروت مهدّمة؟... لا بأس، نبنيها أولاً، ونجد القوانين فيما بعد!

وبدأ يعمّر ما دمّرته إسرائيل، وما كان قد دمّره لحساب إسرائيل لبنانيو الحروب المتواطئون معها، من حيث لا يدرون، لأنهم لم يتفهموا استدراجها إياهم، كلهم، إلى حروب مستحيلة الانتصارات. ولكن الحريرى كان قد فهم لماذا بيروت تدمرت، ولماذا يجب أن يعيد هو بناءها، لأنهم هم لن يعيدوا بناء ما دمروا.

المهم أن تعود بيروت، والوسط التجارى بالذات، معمرة، حتى تزيل الحدود التى اصطنعتها «حروب الآخرين» بين اللبنانيين الذين كانت توحدهم أرض العاصمة ووسطها. وفى الوسط... «ساحة الشهداء» حيث يرقد اليوم رفيق الحريرى رسولاً لحكم جديد ووطنية يستحدثها بالعمل، ولا يهمه رأى الناس فيها!

يرقد رسولاً، بل شهيداً فى جوار التمثال الذى يؤبّد ذكرى الشهداء الذين علّق مشانقهم هناك من مائة سنة الطغيان العثمانى الذى خلّف الإفساد الإمبريالى لسياستنا وأنظمة الحكم لأجيال وأجيال.

اللبنانيون - ولاسيما شبابهم الثائر - عادوا الآن يختلطون ويتوحدون فى تلك الساحة، ويصلّون معاً على ضريح الشهيد الواحد والأربعين، ثم يهزجون ويهتفون...

ويفرح بصورهم بل يفرح معهم وبهم أبناء رفيق الحريرى الذى كان يقول أنه يريد تعمير المدينة كى يفتخر أبناؤه ويفاخروا الآخرين غداً بأن والدهم أعاد بناء ما هدمه أولاد سواه فى حروب جعلتهم الغرباء والأعداء وربما الأشقاء يخوضونها عن جهل وعن ضلال يتوسل أرفع المثاليات حيناً، ويتنكر بالتخلف أحياناً.

من أجل ذلك، بذل رفيق الحريرى على الشباب وترقيته وتهذيبه ما لم يبذل فى أى مشروع آخر ليقينه الغريزى بأن لبنان الجديد يبدأ بثقافة وطنية وديمقراطية شعبية معممة. وبهذه الفلسفة العملية، أراد ابن الفلاح الذى لم يدخل جامعة، وكانت بداية ثروته أجرة بخيسة يتقاضاها لقاء نقل صناديق التفاح على كتفه من البستان إلى الدكان... ثم خاض غمار مشاريع العمران «المليونارية» بقوة التصميم على جعل الثروة فى متناوله، فيستحل إنفاقها على المجتمع، بدل أن تستعبده هى ويتعبد لها.

كل التنظيرات «الثورية» وعقائد الطغاة كانت ستعجز عن تربية هذا الديمقراطى الذى لم يكن قد شاهد مجلس نواب يجتمع ويناقش قبل أن يدخل هو البرلمان اللبنانى رئيساً للحكومة بلغ القمة انطلاقاً من رصيف دكان فى بلدة صيدا المتواضعة.

ومضى يخاطب عواصم العالم يستصرخها لقضايا لبنان، والعرب أجمعين: ليس فى جعبته شهادة ولا كتاب ولا حتى فرمان!

مدرسة ديمقراطية «عظمى» هى شعبية القلب والعقل الذى تسكنه الرؤية، يظللها الإيمان بالحق وبأن الحرية تنتصر حتى على الموت، إن هى تجرأت على كسر استبداد الجهل والخوف. ■



ميتـــــران: الأب



مازارين: الابنة

كــــــان أبــــــى
وكان أيضا رئيسا للجمهورية

ليـــــلى حــــافـظ

فى كتابها الأخير «فاه مطبق»
مازارين الابنة غير الشرعية لميتران
رئيس جمهورية فرنسا السابق تتحرر من حملها
الثقيـــل وتكشـــــف أســـــرارها
مـــن أجــل طفلهـــا المســلم

** طوال ١٩ عاما عاشت فتاة صغيرة تدعى مازارين بينجو، طفولة هادئة ومثالية، ولكنها عاشتها فى الخفاء. إلى أن جاء يوم، «كان يوم خميس. دعانى والدى، وقال «استعدى». وفى الخارج تغير كل شىء. على صفحات الجرائد وفى كل مكان، كانت صورتى تتوسط الصفحة الأولى». لأنه منذ ذلك اليوم عرف العالم أن مازارين بينجو هى الابنة غير الشرعية لرئيس الجمهورية الفرنسية فرانسوا ميتران.

تقول مازارين «لم يكن يهمنى اسم العائلة، يكفى اسمى وقسمات وجهى التى تطابق قسماته، والتى تؤكد من أنا». ولكن فى نفس هذا اليوم تمنت مازارين أن تعود للعيش فى الخفاء مرة أخرى. فقد اجتاحها فيضان أكبر من الحزن. «ابنة غير شرعية لرجل سياسة.. شخصية عامة، والدك أخطأ. لأنه خبأ عنا وجودك. كان رئيس الدولة لفترتين لم تخلُ من الانتقادات، وكنت انت إحدى أعراضها. وكأننى كنت مرضاً، أعراض الخطيئة، الوشم الذى رسم فرنسا الحزينة بالحديد الساخن».

كان هذا اليوم فى عام ١٩٩٣، لم يكن أمام ميتران إلا عامان فى السلطة وأيضا فى الحياة. خلال هذين العامين عاشت مازارين كابنة لرئيس الجمهورية، ابنة غير شرعية، ولكن الابنة المفضلة لديه. واليوم، وبمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة ميتران شعرت مازارين لأول مرة بالرغبة فى أن تعلن على العالم أجمع السر الذى حملته داخلها طوال ١٩ عاما، وتعايشت معه. أرادت أن تكشف عن أسرارها ليس فقط لكى ترفع عن عاتقها حملا أثقل كاهلها الصغير، ولكن أيضا لكى تعيد إلى والديها حقهما فى الحقيقة التى رأتها تزوغ أمام عينيها فى العديد من الكتب والمقالات التى استهدفت علاقتهما السرية.

والأهم من هذا وذاك، كتبت مازارين لكى تحكى لطفلها الذى لم يولد بعد الحقيقة عن جده وجدته، وتكشف كل تلك الثقوب فى الذاكرة التى اضطرت أن تحفظها سرا عن الجميع. أرادت أن تقول لطفلها الحقيقة عن والدته، والجانب الذى اضطرت أن تحافظ على سريته إلى أن قدمها والدها فرانسوا ميتران، رئيس الجمهورية الفرنسية من عام ١٩٨١ إلى ١٩٩٥، إلى المجتمع الفرنسى قبل وفاته بعامين.

لذلك أصدرت كتابها «فاه مطبق» فى الذكرى العاشرة لوفاة ميتران رئيس فرنسا السابق. وفى الكتاب وصفت جسدها بأنه مثل «متحف الأرشيفات الذى أعاقه الصمت». ولكى تحقق حلمها فى أن يكون لها طفل، كان لابد أولا أن «تفرغ بالكلمات كل العقد التى أحاطت بذاكرتها»، أى أن تفتح أرشيفها وتفرغ منه كل الذكريات التى ظلت حبيسة فيه لأكثر من عشرين عاماً.

Bouche Cousue

(فــاه مطبــق)

Mazarine Pingeot

Julliard, 228pp., 2005

أصبح والدها شخصين. «رجل تعرفه جيدا، وفى نفس الوقت لا تعرفه!!»... رجل «محرم عليها أن تقول أنها تعرفه!».. وتتساءل هل تعرفه حقا؟ نعم.. فهو يأتى إليها ويقضى معها أوقاتا سعيدة ثم يضعها فى الفراش لتنام

الدخول إلى الحياة سرا

كان لابد لمازارين أن تتكلم وأن تفرغ ما لديها من أسرار خاصة بها وبعائلتها، التى لا يعرفها أحد حتى أقرب المقربين من الرئيس الراحل. فذكرياتها عن رئيس الجمهورية «لا يملكها غيرها، ولا يستطيع أحد أن يشاركها إياها».. حتى والدها لا يملكها، فقط هى مازارين، التى تحتفظ بها.

ولدت مازارين فى ديسمبر عام ١٩٧٤ طفلة انتظرها ورحب بها أبوان محبان، «كان أبى يريد ابنة، فقد كان يحب الفتيات»، وأعطاها اسم مازارين مارى. «وفى اللحظة التى قابلنى فيها (فى المستشفى بعد ولادتها) وحمل رأسى فى كفه، أصبح أبا».

ولكن، منذ اليوم الأول، قدم لها والداها ما لا يملكه أى طفل آخر. قدما لها هدية الدخول إلى الحياة سرا فى مستشفى فى مدينة أفينيون بعيدا عن العيون، و«العيش فى سرية تامة». فلم يكن من حقها أن تعلن لعدة سنوات أن والدتها هى أمها، لأن جدة أمها، التى استضافتهما بعد الخروج من المستشفى، لم تعرف أن حفيدتها لديها طفلة غير شرعية واضطرت الأم أن تدعى أنها ترعى الطفلة لأنها لا تملك مالا وتقوم برعاية الأطفال مقابل مبلغ من المال. لذلك عندما تعرفت عليها جدة والدتها، لم تعرف أن فى عروقهما يجرى نفس الدم. وظلت الأم لا تعترف بها أمام الآخرين إلى أن توفيت الجدة الكبيرة..

أما الأب الذى كان فى ذلك الوقت رئيس الحزب الاشتراكى، فكان يأتى فى عطلات آخر الأسبوع والعطلات الطويلة، ولكن لم يكن من الممكن أن يظهر معها فى الأماكن العامة، فكان متواجدا معها داخل المنزل فقط، وإن كان يشيع فيه المرح والحب واللعب.

حتى جاء هذا اليوم الذى تغيرت فيه حياتها. فى يوم ما من عامها السادس بدأت تشاهد التليفزيون وتفهم ما يقولونه. وعرفت أن والدها يظهر على الشاشة الصغيرة مع آخرين منتصرا مزهوا، ولكن والدتها كانت تبكى، لم تكن سعيدة.

منذ ذلك الوقت أصبح والدها شخصين. «رجل تعرفه جيدا، وفى نفس الوقت لا تعرفه!!».. رجل «محرم عليها أن تقول أنها تعرفه!».. وتتساءل هل تعرفه حقا؟ نعم.. فهو يأتى إليها ويقضى معها أوقاتا سعيدة ثم يضعها فى الفراش لتنام، ولكن هناك هذا الآخر الذى تراه فى التليفزيون ساعة انتصار.. كيف تناديه؟ هذا اليوم هو ١٠ مايو عام ١٩٨١، عندما انتخب فرانسوا ميتران رئيسا للجمهورية.

تتحدث مازارين عن أمها. تلك المرأة العاشقة التى قررت أن تعيش فى الظل، وألا تتجاوز الحدود. المرأة التى حافظت على كرامتها ونزاهتها ورفضت التقاط صور لها، «حتى فى الأعياد وحتى فى عيد ميلادها».. «لأن الصور كذبة خطيرة». كانت على قناعة أن لا شىء يهمها.. لا الآخرين ولا المجتمع. «كانت على قناعة أنها بطلة لفيلم لن يراه أحد أبدا. وأنها ستظل تحتفظ بسرها دليلا على إخلاصها».

كانت الأم ترى أن بقاءها فى الظل وتنازلها عن هويتها الحقيقية هو الذى يعطيها هويتها. ولكن ظهورها وكسر السر الكبير، سيكون بمثابة نفى لوجودها. هل هناك تناقض؟!

وتقول مازارين: «كنت أنا طفلة هذا التنازل، هذا الاختيار الذى تمسكت به أمها ضد العالم. كنت أنا الطفلة التى خرجت من الشجاعة ومن الحب الذى شعرت به أمى». وتتساءل مازارين: «هل على أن أظل مخلصة لهذه التضحية؟».

فهمت مازارين بدون أن يطلب منها أحد، أن عليها أن تحمى الرجل الذى تحبه بالتزام الصمت، وبأن تظل غير موجودة فى عيون الآخرين، وألا يكون لها اسم، ولا يكون لها أب، حتى أب خيالى، لأن الحقيقى حى يرزق.

أرشيف الذكريات

وتحكى مازارين عن حياتها مع أصدقائها وفى المدرسة. هؤلاء الأصدقاء الذين يجب ألا يعرفوا شيئا عن هويتها أو عن حياتها الخاصة، أو أين قضت العطلة أو من الذى جاء يزورهم؟ وفى المدرسة كان عليها أن تعيش بوجهين! وجه فتاة صغيرة عادية تضحك وتبكى، ووجه حيوان صامت تعلم لغة الحركات والهمس. وتعلمت أن تلقى فى غياهب النسيان كل ما يخرج عن نطاق اللعب، كل ما يعتبر خطرا، مثل ذكريات يوم الأحد وأمسيات المنزل وعطلة عيد الميلاد. لم تستطع أن تعيش طفولة عادية فتدعو



غلاف الكتاب

زملاءها إلى المنزل ويكون لها معهم أسرار. بل كان عليها أن تحيا فى وحدة، وأن تلغى طفولتها، أن تلقى داخلها كل تلك الأحداث، لتصبح كما قالت «أرشيفا من الذكريات».. كل ذلك من أجل أن تحمى والدها. فقد عرفت من طفولتها أن عليها مسئولية حماية والدها، أكثر الشخصيات شهرة فى فرنسا، بدون أن يطلب منها أحد ذلك. اليوم تريد أن تقول كل شىء. ليس لها، ولكن لطفلها الذى لم يولد بعد.

ولكن ذاكرتها كانت تخونها أحيانا. فلم تعد تتذكر المناقشات والجدل. كل تلك الأحداث التى يتناقلها الآخرون. بل كانت تتذكر مشاهد من الطفولة وانطباعات عن روائح ونبرات صوت، كانت تتذكر نزهات وضحكات وعطلات صيفية وحياة يومية معتادة مثل كل اليوميات. كل تلك اللحظات التى كونت لدى مازارين فكرتها عن والدها، ودعمت علاقة عميقة بينهما. تلك العلاقة التى كانت الأساس القوى لكل ما سيأتى فيما بعد.

فى عام ١٩٨٨ تداخلت المسائل العامة مع المسائل الخاصة، ورأت مازارين ابنة الرابعة عشرة من عمرها، كيف يحارب اليمين أباها الاشتراكى، فتغضب وتثور فى صمت، تريد أن تدافع عنه أمام هؤلاء الأطفال الذين يرددون كلمات قاسية ضده. ولكنها لا تجرؤ أن تقول لماذا تدافع عنه؟ تسمع وتحفظ آلامها داخل نفسها. تتحمل وتصمت وتكره هؤلاء الأطفال. ولكنها لا تتكلم، حتى لا تؤذيه، إنها لا تريد أن يصيبه أى أذى. تريد أن يظل نظيفا. أما هى فتتألم وتشعر بالتعب، ولكن خارجيا تظل قوية كما أراد لها والداها، وتضفى على وجهها هذه اللامبالاة التى تحاول من خلالها فصل نفسها عن الواقع الذى ترفضه.. الذى يؤذيها.

وعندما يفوز فى الانتخابات وتذهب إليه فى مقر الاجتماعات الحزبية حيث اتجه لتلقى تهانى مؤيديه، تقبله خلسة، وتتوارى فى الخلف، وتتأمل أبناء السياسيين الذين يحتفلون بفوز آبائهم أيضا. وقد بدت فرحتهم طبيعية وفخرهم بآبائهم لا يحتاج إلى إخفاء. وتقول مازارين «كنت أسير بسرعة بين الجموع الحاشدة، وقد غضضت الطرف وظهر احمرار الإثارة واضح على وجنتى. أردت أن أظهر فخرى، أردت أن أكون شخصا آخر حتى يرانى الآخرون وحتى يهنئونى، وحتى أستطيع أن أهنئهم بنفسى. كنت أريد أن أكون جزءا من الاحتفالات ومن الانتصارات، أن أكون جزءا من المجموعة. أردت فى تلك اللحظة المعينة أن يعرف الجميع أننى ابنته، هكذا بدون فضائح. وأردت أن ينظروا إلى بنظرات صديقة وأن يحسدونى قليلا. أردت أن أشاركه.. وأشاركهم هذا اليوم».

«استعدى، فصورتك ستكون فى جميع الصحف»

فى هذا اليوم فى عام ١٩٩٣، وعندما بلغت مازارين ١٩ عاما، كسر الصمت. وكشف السر. ودعاها والدها إلى مطعم لو ديفيليك ليقول لها: «استعدى، وفى الخارج تغير العالم، وغمرت صورها الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات الفرنسية والأجنبية. وعرف الجميع أن مازارين بينجو هى الابنة غير الشرعية لرئيس الجمهورية الفرنسية فرانسوا ميتران.

فى تلك اللحظة تغيرت بطاقة هويتها وأصبحت: مازارين ابنة غير شرعية لرجل سياسة، ولدت فى الخفاء. أصبحت مازارين عار الجمهورية، صفعة للأخلاقيات. فرنسية مائة فى المائة، فليس فى جيناتها ما يمكن أن يجعلها ضحية، «ورغم ذلك شعرت بكل الحقد التى يشعر بها المهاجرون من الجيل الأول». ففى اللحظة التى تحققت لها أمنيتها،

واستطاعت أن تعلن هويتها وتقول إن والدها هو رئيس الجمهورية، كانت هى اللحظة التى تمنت فيها ألا يعرفها أحد وألا يراها أحد. «كان على أن أقوم بجهد كبير حتى ينسانى الناس. وأن أتقدم للاختبارات فى أماكن العمل متخفية حتى لا اتهم بأننى حصلت على المركز بسبب هويتى... كنت أغير اسمى فى أماكن مختلفة حتى لا يتعرف على أحد. فى تلك اللحظة أصبحت غير شرعية فى نظر نفسى».. «يحمر وجهى خجلا عندما ينطق أحدهم اسمى. وأخفض نظرى عندما ادخل مكانا عاما. أشعر أننى أريد أن أعتذر عن وجودى فى الحياة».

ولكن هذا الوضع لم يكن مفروضاً أن يستمر. كان على مازارين أن تدافع عن نفسها وتكافح من أجل حقها فى الوجود وفى الحب وفى أن يكون لديها أطفال. وبعد موت والدها كان عليها أن تصارع الصحف الصفراء التى اعتدت على خصوصياتها، وان تحارب من اجل أن تستطيع زيارة قبر والدها وان تبكيه بدون تطفل وبدون ان يحاول أحد أن يسرق حزنها منها. وان تحمى نفسها من نظرات الآخرين بدون أن تضطر أن تتنازل عن حبها للكتابة والنشر والاشتراك فى برامج تليفزيونية. وأن تستطيع أن تحتسى القهــــوة فــى المقهى بدون أن تسمع كلمات قاسية من أحد.

واليوم: «يزورنى البعض لكى يتحدثوا معى «عنه» ويقولوا لى كم أشبهه، وأنهم يحبوننى (لهذا السبب) أو يكرهوننى (لهذا السبب أيضا). لقد تحولت ما بين ليلة وضحاها من وضع إلى آخر. من وضع الفتاة التى تعيش فى الخفاء إلى الوريثة الطبيعية لوالدى»، ولكن الإرث المادى ذهب إلى دانيال زوجته الرسمية.

تقول مازارين: «لقد كان عزيزاً لدى للأسباب الصحيحة التى لا تتعلق إلا برابطة الدم. لقد عانى كثيرا من كراهية البعض له، وعانيت بسبب معاناته. كان بيننا تضامن من نوع غامض، منعنى من فهم تفجر العنف الذى لم يكن له أية صلة بالسياسة».

كانا معا فى نفس السفينة، عندما يتألم تتألم، عندما توجه إليه اتهامات، كانت تأخذها على عاتقها. فكان لابد من الانفصال..



مع زوجة ميتران (السيدة الأولى) فى جنازته

فى أسوان، كنت أقضى معظم الوقت أتنزه مع أعز أصدقائى، ونسبح معا ونتناقش لساعات. كنت أزور والدىَ فى حجرتهما لدقائق. أقبِّل والدى. أتحدث بالكاد مع والدتى التى كانت تبدو لى حزينة، وتعبة

وجاء الانفصال بموت ميتران الوالد والرئيس، فتقول مازارين: «إنه من الصعب الانفصال عن الأموات، اكثر من الانفصال عن الأحياء»... «ولم أكن أريد أن أبدأ فى التذكر، على الأقل ليس مباشرة. فإن المرء يتذكر دائما ما مضى».

ولكن الماضى يجب أن تتسامح معه، ولن تستطيع أن تقوم بذلك إلا من خلال طفلها الذى لم يولد بعد. فتحادثه مازارين من خلال الكتاب وتقول له كيف أن والده «محمد» يحاول أن يندمج فى المجتمع الفرنسى من خلالها، وأنه سوف يعطيه ليس فقط اسمه ولكن أيضا لغته العربية. وهى سوف تحاول أن تتعلم تلك اللغة حتى يمكنها أن تندمج فى حياتهما. وتتحدث عن والد طفلها، محمد. فتقول: «عندما تذهب والدك وأنا إلى سوبر ماركت، ويكون هو فى مكان وأنا فى مكان آخر، وينادى على ويصيح «مازارين» ينظر إليه الناس. وعندما أنادى «محمد» يعتقد ثلاثة أشخاص آخرون أننى أنادى عليهم. مدربه فى صالة الرياضة يناديه «يا صغيرى» لأنه يتصور أنه إذا ناداه باسمه «محمد» قد يعتقد أنه عنصرى. ووالدتها التى لا تحب أن تلفت إليها الأنظار تقدمهما باسمى: «مو- ما» مثل متحف نيويورك».

ولكن طفلها سيكون له ذكريات أخرى مع والده، لم تعشها هى مع والدها. وتحادثه قائلة: «ستستطيع أن تنادى والديك «بابا» و«ماما» بدون خوف، وهو شىء لم أتمكن من فعله حتى فى تلك الأيام القليلة التى كنت أناديه فى الطريق وأجرى إليه، فاتحا لى ذراعيه غير آبه بالمارة. ولكن أنت ستستطيع أن تذهب معه إلى السوبر ماركت وتشترى احتياجاتكم معا. أريد أن أسمعك تناديه فى كل مكان، فى الطريق وفى الميادين وعند الخروج من المدرسة، تنادى «ماما» و«بابا» مثل صرخة انتصار.

«سوف تمسك يد والدك فى المترو وفى الحديقة. وسوف أنظر إليكما وأشعر بالدهشة من أن هذين الشخصين يستطيعان أن يكونا معا فى الأماكن العامة». ويتصور محمد اسمك عندما تولد، هل سيكون «عبد القادر ميتران؟ أم فاطيما ميتران؟».. ميتران؟ انه اسم الجد الذى لا تحمله مازارين، ولكن طفلها سيستطيع أن يقول انه من نفس الاسم. لماذا لا تحمل مازارين اسم ميتران؟ لقد أراد لها ميتران ان تحمله، كان ذلك قبل وفاته بفترة قصيرة. ولكنها رفضت. هل جاء الطلب متأخرا؟ هل جاء مبكرا؟ هل كان هذا انتقامها؟!

عندما يموت الاب

«لقد كنا جميعا نتوقع موت والدى. ولكن من الصعب أن يكون المرء مستعدا حقا لهذا اليوم»... «كنت أراه يوميا فى مرضه، ولكننى لم أتصور أبدا فى آية لحظة انه سيموت». عانى ميتران كثيرا فى مرضه، كان يتألم «وكنت أتألم لألمه» ثم بدأ يفقد الأمل، ويفقد أعصابه.. ثم يبتعد عن العالم. تقول مازارين عن تلك الفترة «كان المرض بالنسبة له إهانة.. لم ينجح أبدا فى تقبله، لانه لاول مرة يواجه ما هو أقوى منه».

أسوان كانت آخر عطلة يقضيها مع مازارين. فتقول عن تلك الفترة: «فى أسوان، كنت أقضى معظم الوقت أتنزه مع اعز أصدقائى، ونسبح معا ونتناقش لساعات. كنت أزور والدىَ فى حجرتهما لدقائق. اقبل والدى، أتحدث بالكاد مع والدتى التى كانت تبدو لى حزينة، وتعبة، لأنها كانت تقوم بدور الممرضة طوال اليوم والليل، كانت قدرية، وأنا لم اكن أتحمل ذلك، لم اكن أتحملهما».. «حول المائدة يجلس والدى معنا بملابس النوم. لم يكن حاضرا ذهنيا معنا، كنا نحاول جميعا أن نضحك. كان يأخذ يدى فى يده، وكنت أتظاهر بأنه مجرد تعب. وأبدو مرحة على غير العادة. كنت ارفض اعترافه بالمرض، وكنت أرفضه بينى وبين نفسى. وإن اشتكى، لم أكن أسمعه. كنت أتمتع بالعطلة...». كانت آخر عطلة

تقضيها مازارين معه، تلك التى قضياها فى أسوان.

لقد كان ميتران محاربا، وكان يرفض الهزيمة أمام المرض فى كل العمليات التى أجراها من قبل، وتعلمت منه مازارين حبه للانتصارات. ولكن بعد أن أنهى فترة رئاسته الثانية، تقبل ميتران فكرة انه قد يكون قد عاش بما فيه الكفاية، أو أن المرض معركة من نوع آخر غير السياسة.

«كنت أبلغ من العمر ٢٢ عاما، ١٩ عاما فى الخفاء، وعامان فى محاولة الهرب من الأضواء. غادر الأليزيه، وبعدها الحياة». «كانت مغادرته الرئاسة بمثابة خيانة لهويتى.. كأن مصيرنا هو أن نظل مهمشين، فلم تتوقع مازارين ألا تعيش الحياة التى أرادتها. كانت عطلتهما الأخيرة فى أسوان مثل حياتهما، غير عادية. فعندما وصلت إلى أسوان لم تعد تريد مغادرتها. ووجدت فى النيل والصحراء أفضل مكان للهروب، أفضل مكان شعرت فيه بسعادة مطلقة وكأن تلك اللحظات تم اختطافها من مجريات الحياة، وكأنها لمست خط الخلود.

«كان آخر عيد نقضيه معا.. كان الجمال المطلق. بلاد بعيدة وغريبة، حيث الشمس ساطعة. بلاد عرفنا فيها السعادة، حيث الآلهة لا تختبئ، فهى موجودة فى الحجارة وفى العيون... نعم لقد سافرنا مرة أخرى، مرة أخيرة بعيدا عن فرنسا والصحافة والحياة اليومية. ولكننى كنت أعرف إننا حملنا معنا فى الحقائب المرض، والموت الأكيد».

فى أسوان فهمت أن هذا المكان الملىء بالرموز يمثل وداع والدها لأرض الأحياء. «وداع أرادنى أن أشاركه فيه. وكأنه وداع لسنواتنا معا، ٢٢ سنة من الحياة معا ومن الحب ومن التميز».. «وبذهابى معه إلى هناك، اعتبرت أننى قبلت، رغما عنى، هذه الفكرة المستحيلة بأنه سوف يتوقف عن الحياة»... الفلوكة بأشرعتها البيضاء، مياه النيل الطينية، كثبان الرمال فى الصحراء التى تختفى وراء الأفق الأصفر، السماء الزرقاء دائما، والشرفة الخشبية فى الكتراكت، كل هذا علمنى أن الموت يشبه طريق العبور أكثر مما يشبه طرقات المستشفى. وفى تلك الحجرة التى توجد خارج الزمن، بأرضها الخشبية السوداء والتى لها رائحة الشمع، عرفت أنه لن يموت أبدا، بشرط أن أعيش أنا الحياة بكاملها.. عادوا من أسوان، ولم تعد إليها أبدا بعد ذلك.

ولكن أسوان بالنسبة لمازارين لم تكن أبدا نقطة النهاية، بل كانت نقطة البداية، نقطة الانطلاق إلى آفاق قريبة من الطفولة.

أيام شعرت فيها بالفخر

ومات ميتران، وخلال الأيام التى شعرت فيها بالحزن العميق، كانت عيون الصحف الصفراء تلاحقها فى كل مكان تلتقط لها الصور خلسة. وكانت تغضب ويغضب صديقها الأول، الذى كان أيضا عربيا، يدعى على، الذى اتهموه بأنه السبب فى التقاط الصور لها. وغضبت لأنه كما تقول مازارين، وجهت له التهم لأنه عربى «طبعا العربى هو السبب»، وغضب لأنه كما تقول أيضا مازارين «كان يحب والدها حقيقة».

وبعد أيام الألم والغضب ومحاولات التخفى، «بدأت لأول مرة أعيش أيام الفخر». فإذا كان الهجوم والانتقاد الذى تعرض له والدها أثناء توليه السلطة قد آلمها، فإن تفجر مشاعر الناس تجاه والدها أشعرها بالفخر.. بالذات عندما خصصت المدارس دقيقة صمت حدادا عليه، وعندما اجتمع كبار رجال الدولة فى العالم ورجال السياسة فى فرنسا فى كنيسة نوتردام يوم جنازته.. «شعرت بموجة عارمة من الحزن تجتاحنى.. وخلال يوم واحد كان من حقى أن أحزن بدون أن يسألنى أحد لماذا، وبدون أن يهاجمنى أحد، كان من حقى أن أسمع كلمات العزاء وأتلقى لمسات الحنان، وأن أسمع الضحكات العصبية، كان من حقى فى هذا اليوم أن اشعر بالفخر بأبى، وأن أظهر حبى له بدون أن اتهم نفسى». فى هذا اليوم استرجعت مازارين شرعيتها من خلال المعاناة. فى هذا اليوم كانت حرة فى أن تظهر كما هى حقيقة. تقول: «لقد جاء هذا اليوم متأخرا بعض الشىء، وجاء لمرة واحدة.. ولكنى فى هذا اليوم كنت ابنة أبى بالكامل».

لقد جاء الموت لكى يحرر مازارين من الكذب ومن التظاهر ومن الآلام والإهانات. فبعد موت والدها، عاد مرة أخرى إلى الحياة، «احتويته واحتضنته بقوة طويلا.. طويلا.. حتى لا ينتهى الخيال». ■

كتاب الزاوية

المستبد

عبد الرحمن الكواكبى

المستبد فى لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنسانًا فصار إلهًا. ثم يرجع النظر فيرى نفسه فى نفس الأمر أعجز من كل عاجز، وأنه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من الأعوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش وما التاج وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام فى أوهام. هل يجعلك هذا الريش فى رأسك طاووسًا وأنت غراب، أم تظن الأحجار البراقة فى تاجك نجومًا ورأسك سماء، أم تتوهم أن زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ والله ما مكنك فى هذا المقام وسلطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا. فانظر أيها الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا!

ثم يلتفت إلى جماهير الرعية المتفرجين، منهم الطائشون المهللون المسبحون بحمده، ومنهم المسحورون المبهورون كأنهم أموات من حين؛ ولكن يتجلى فى فكره أن خلال الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شئونًا عمومية وكّلناك فى قضائها على ما نريد ونبغى، فإن وفيت حق الوكالة حق لك الاحترام وإن مكرت مكرنا وحاقت بك العاقبة.

وعندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلاً: الأعوان الأعوان، الحملة السدنة (الحُجاب). أسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لك ملك كيفما أكون.

طموحات وأسئلة: تعافي

نتاليا بايلي

●● بدأت ثقة المستثمر في فرص أداء اقتصادي أفضل في مصر في الظهور تدريجياً منذ أوائل عام ٢٠٠٣ بعد «تعويم»[1] الجنيه المصري، كما أدى تبني بعض الإصلاحات الاقتصادية الأكثر إلحاحاً مؤخراً - لاسيما منذ تعيين حكومة جديدة برئاسة رئيس الوزراء أحمد نظيف في يوليو من السنة الماضية - إلى الإسهام في تنامي الشعور الإيجابي.

ورغم أن محاولة تعويم الجنيه عام ٢٠٠٣ قوبلت بحملة من النقد الشديد (بافتراض أن تدخل البنك المركزي لا يزال كبيراً)، فإن خطوات أخرى نحو تحرير السوق جرت مؤخراً. وأدى إنشاء السوق بين البنوك في الثالث والعشرين في ديسمبر العام الماضي إلى زيادة في مدى توافر العملات الأجنبية، مما تسبب في زيادة قيمة الجنيه أمام الدولار بنسبة ٧٪ ليصل سعر الدولار الأمريكي إلى ٥,٨٥ حالياً، بينما وصل سعره في منتصف عام ٢٠٠٣ إلى حوالي ٦.٢ جنيه مصري.

ومن المتوقع أن يستمر الطلب المتزايد على الجنيه المصري على الأرجح لاسيما من جانب المستثمرين من الخارج. علاوة على ذلك، لابد أن تعمل كل من الصورة الصحية للحسابات الجارية وتحويل جزء على الأقل من المدخرات بالعملة الأجنبية سواء المودعة في البنوك أو في البيوت خلال العامين الماضيين على دعم العملة المحلية. وفي الحقيقة، لن نندهش إذا رأينا أن الجنيه أصبح قوياً مقابل الدولار الأمريكي لينخفض سعر صرف الأخير ليصل إلى ٥,٢٥ بحلول منتصف العام. على أية حال، لا تزال القيمة المستقبلية للعملة متأثرة وبشكل قوي بأي قرار يتخذه البنك المركزي المصري يهدف إلى تراكم احتياطيات النقد الأجنبي (عن طريق التدخل في العملة) وفي سعر الصرف، مع ملاحظة أن الاحتياطيات توقفت عند ١٥.٢٢ بليون دولار أمريكي في نهاية عام ٢٠٠٤.

بالإضافة إلى قوة العملة مؤخراً، كان أداء سوق الأسهم المالية مدهشاً أيضاً، حينما قفز مؤشر «هرميس» المالي بنسبة ١١٦ ٪ بالنسبة للعملة المحلية في عام ٢٠٠٣، وبعد تباطؤ مؤقت في قوة الدفع الاقتصادية في النصف الأول من عام ٢٠٠٤، فإن مؤشر الأسهم عاد ليستأنف قوته بعد تعيين الحكومة الجديدة.

غير أنه من المهم وسط هذه الصورة الوردية التأكيد على وجود بعض المخاطر. فأي صدمات خارجية - لاسيما بالنسبة لتوافر العملات الأجنبية - ما زالت تشكل نقطة ضعف بالنسبة للمشاركين في السوق، إن التزام البنك المركزي بتوفير سيولة ضخمة من الصرف الأجنبي لم يتعرض لاختبار حقيقي حتى الآن، كما أن أيام الوقوف في «طوابير» بحثاً عن الدولار لا ترجع إلى الماضي البعيد بحيث يمكن التغاضي عنها. ومن خلال الدليل فقد نما تعرض المستثمر الأجنبي إلى الجنيه المصري بشكل ملحوظ منذ أواخر ديسمبر، وبالتالي كان يمكن لمخاطر عالمية (على سبيل المثال ارتفاع سعر الدولار مرة أخرى أو تجدد ضعف الأسهم العالمية) أن يكون لها أثر على الأسواق المصرية أكبر مما شعر به الناس في الماضي القريب.

الحكومة الإصلاحية

عُيِّنت حكومة جديدة في يوليو ٢٠٠٤ حيث أدى الانزعاج الشعبي من الحكومة السابقة برئاسة عاطف عبيد بالرئيس حسني مبارك لتغيير الوزارة. وشرعت الحكومة الجديدة برئاسة أحمد نظيف في تحقيق هدف محدد وهو إنعاش أداء البلاد الاقتصادي من خلال المضي قُدماً في الإصلاحات الاقتصادية والهيكلية والمالية التي طال انتظارها. وتتضمن تلك الإصلاحات ما يلي:

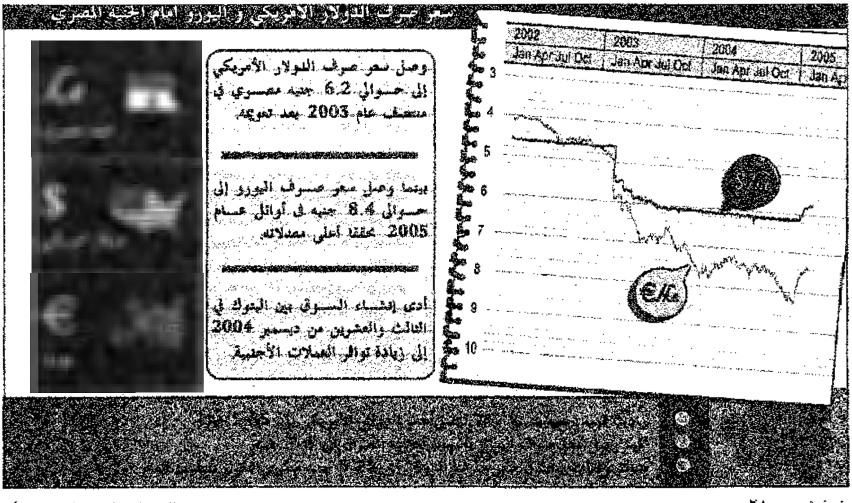
(١) إجراء إصلاح شامل في الإجراءات الجمركية وتخفيض نسب التعريفة الجمركية (سبتمبر ٢٠٠٤) من ١٤.٦٪ لتصل إلى ٩.١ ٪ بهدف دعم القدرة التنافسية ونمو الصادرات.

(٢) استصدار قانون ضريبي جديد في ٣٠ من يونيو ٢٠٠٥ حيث سيعمل هذا القانون على خفض معدل ضريبة الدخل من ٤٠ ٪ إلى ٢٠ ٪ إلى جانب خفض الضريبة المتعلقة بالشركات وتوحيدها لتصل إلى ٢٠ ٪. ويهدف هذا الإجراء أيضاً إلى الإسراع بعجلة النشاط الاقتصادي.

(٣) استئناف عملية الخصخصة بحيث تستهدف عائداتها تغطية الأعباء المالية التي تسببت فيها الإصلاحات الأخرى.

(٤) إعادة هيكلة القطاع المالي بما يقضي على الفرق بين سعر الصرف في السوق السوداء والسوق الرسمية.

وتحظى هذه الإصلاحات بالدعم الكامل من قِبل الرئيس مبارك الذي يُرجح فوزه بأغلبية كبيرة في الانتخابات الرئاسية التي ستجرى في سبتمبر من هذا العام وذلك لفترة رئاسية خامسة. ورغم أن كل الإصلاحات تهدف إلى تعزيز النمو الاقتصادي، فإن من المتوقع أن كثيراً منها سيكون سحباً على الحسابات المالية في المدى القريب مع ملاحظة أن الرئيس مبارك لم يُرشح نفسه رسمياً لفترة رئاسية خامسة، كما يُنتظر أن تعقد انتخابات مجلس الشعب في أكتوبر ٢٠٠٥ التي يحتمل أن تنتهي بفوز سهل للحزب الديمقراطي الوطني الحاكم، إلا أن هذه النتيجة سيكون لها تأثير محدود - إن وجد - على البرنامج الاقتصادي.



الاقتصاد المصرى

وسط هذه الصورة الوردية للاقتصاد المصرى
فإن أى صدمات خارجية خاصة بشأن توافر العملة الأجنبية تمثل نقطة ضعف أساسية

اتجاهات اقتصادية

سجّل نمو إجمالى الناتج المحلى نسبة صحية بلغت ٤.٣ ٪ فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤، وهو المعدل الأسرع خلال خمس سنوات. وذلك عقب ثلاث سنوات من الأداء الاقتصادى المتواضع حيث بلغ متوسط النمو ٣.٣ ٪. وجاء التوسع الذى شهده العام الماضى بشكل رئيسى نتيجة للطلب المحلى القوى الذى ارتفع بسبب توفير العملات الأجنبية بشكل متزايد. وساعد هذا العامل الأخير مضافاً إليه انخفاض معدلات الفائدة الحقيقية (بسبب ارتفاع معدل التضخم) على تعزيز الاستهلاك الخاص. من جهة أخرى، أسهمت كل من التوقعات المستمرة بسياحة نشطة، وقناة السويس، وعائدات التصدير فى رفع حصة الاستثمار من الطلب المحلى. ومن ناحية أخرى، أدت الزيادة فى الواردات إلى تدهور نسبى فى الميزان التجارى مما ساهم فى زيادة نمو إجمالى الناتج المحلى، وإن كان بشكل متواضع. نتوقع فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ أن يستمر إجمالى الناتج المحلى فى الارتفاع بخطى مماثلة (النسبة المتوقعة ٤.٥٪) حيث يُتوقّع أن تمتد الثقة والتفاؤل الحالى بالتجارة والبيئة الخارجية الإيجابية إلى هذا العام أيضاً. أما هيكل النشاط الاقتصادى فالأرجح انه سيظل مشابهاً لهيكل السنة الماضية. لكن لاحظ هنا أن معدل البطالة الرسمى لا يزال مرتفعاً حيث بلغ ٩.٩ ٪ مما يؤدى إلى إعاقة النمو.

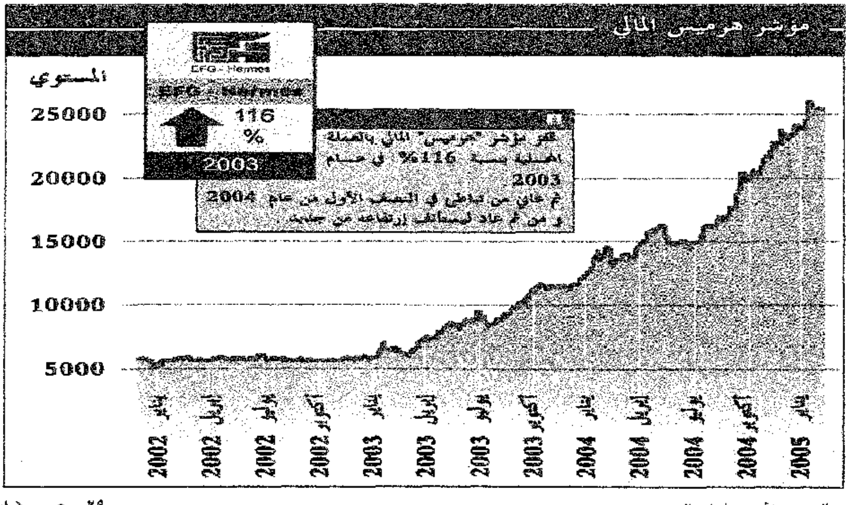
من الناحية الاسمية، ارتفع معدل التضخم العام الماضى بشكل خطير حيث ارتفع عالياً ليصل من ٣.٢ ٪ فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤ إلى ٨.١ ٪ نتيجة لانخفاض قيمة الجنيه المصرى وتراخى سياسات إدارة الطلب. هذا بالإضافة إلى ارتفاع مؤشر سعر الجملة - وهو معيار أفضل لقياس التضخم مؤقتاً بسبب الاعتماد مرة أخرى على مؤشر سعر المستهلك الذى يسبب صعوبات عند المقارنة - بنسبة بلغت حوالى ١٥ ٪ عاماً بعد عام. ونتج عن ذلك تضييق السياسة النقدية فى أوائل عام ٢٠٠٤ ومن المحتمل أن يستمر ذلك الوضع فى المستقبل المنظور. إننا نرى معدل تضخم يبلغ فى المتوسط ١٠.٥ ٪ فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ بسبب زيادة الإنفاق الخاص والزيادة المقننة فى الأسعار والتى طُبقت فى سبتمبر من العام الماضى. ومن المحتمل ثبات أسعار الفائدة حول معدلاتها الحالية التى تبلغ ٩ ٪ تقريباً بالنسبة للودائع، و١٣ ٪ بالنسبة للقروض.

وقد بلغ الحساب الجارى فائضاً وصل إلى ٥.٠ ٪ من إجمالى الناتج المحلى فى عام ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤، وهو أعلى مستوى وصل إليه فى أكثر من عقد. ونبع الأداء القوى من بيئة خارجية أكثر تشجيعاً بشكل كبير مما ساعد على دعم إيرادات كبيرة من كل من المدفوعات غير المنظورة وصادرات البضائع. ورغم نمو العجز التجارى ليصل إلى ٧.٥ بليون دولار أمريكى أثناء الفترة سالفة الذكر كنتيجة لزيادة قدرها ٢١٪ فى الواردات، فإن العائدات الكبيرة الخاصة بكل من قناة السويس والسياحة دفعتا فائض المدفوعات غير المنظورة للوصول من ٨.٦ بليون دولار أمريكى فى عام ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣ إلى ١٠.٣ بليون دولار أمريكى.

كما سجّل جانب حساب رأس المال فى ميزان المدفوعات تدفقات محدودة، حيث انخفض صافى الاستثمار فى الأسهم إلى ٠.١ بليون دولار أمريكى فقط بافتراض التقدم البطىء فى عملية الخصخصة وزيادة صافى خروج حافظة الأوراق المالية عن تدفقها (٠.١ بليون دولار أمريكى) بسبب العوائد السلبية الحقيقية. على أية حال، بلغت الاحتياطيات حوالى ١٣.٥ بليون دولار أمريكى (أو ٧ شهور من الواردات) فى الوقت الذى عملت فيه البنوك على تدفق الصرف الأجنبى انخفضت سيولة السوق.

وبالنظر للمستقبل، فإن لدينا شكاً فى أن الحساب الجارى سيتدهور بعض الشىء فى عام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ (النسبة المتوقعة ٣.٨٪) على أساس زيادة الواردات نتيجة للإصلاحات الجمركية التى قامت بها الحكومة الجديدة. ورغم ذلك، تسعى تدفقات حساب رأس المال لأن تكون قوية بالفعل خاصة من مستثمرى حافظة الأوراق المالية. ونتيجة لذلك، يمكن أن يعقب هذا زيادات أخرى فى احتياطى النقد الأجنبى.

وصل معدل العجز المالى للحكومة إلى نسبة كبيرة بلغت ٥.٩ ٪ من إجمالى الناتج المحلى عن العام الماضى، حيث لم تنخفض إلا قليلاً عن نسبة ٦.١ ٪ عن عام ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣. والسبب الرئيسى فى هذا الانخفاض الصغير فى الفجوة المالية يتمثل فى أداء العائدات الأقوى والذى بلغ ٢١.٧ ٪ من إجمالى الناتج المحلى (ساهمت إيرادات قناة السويس بأعلى نسبة بين العائدات). بينما ظل الإنفاق من ناحية أخرى مرتفعاً نسبياً حيث بلغ ٢٧.٦ ٪ إجمالى الناتج المحلى. لكن لاحظ أن الفائض فى اعتمادات التأمين الاجتماعى عمل على احتواء معدل العجز الحكومى العام فى نسبة لم تزد عن ٢.٤ ٪ من إجمالى الناتج المحلى. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن من المتوقع تحسن الصورة المالية بدرجة كبيرة نظراً لأن الإصلاح الجمركى والضريبى سيعتمد على الحسابات المالية بمعدل يصل إلى حوالى ٨.٠ ٪ من إجمالى



الناتج المحلي في السنتين الماليتين القادمتين (بشكل تراكمي). توقعنا أن يصل العجز في الميزانية إلى ٦.٨ ٪ من إجمالي الناتج المحلي في ٢٠٠٤/٢٠٠٥ ليصل إلى ٧ ٪ إجمالي الناتج المحلي في ٢٠٠٥/٢٠٠٦.

ونتيجة لتزايد العجز المالي، قفز الدين العام إلى أكثر من ٨٧ ٪ إجمالي الناتج المحلي في نهاية يونيو عام ٢٠٠٤ (٦٨ ٪ في ٢٠٠٠/٢٠٠١). ولم يزد سهم الدين الخارجي إلا هامشياً ليصل إلى ٣٩.٢ ٪ من إجمالي الناتج المحلي في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤ أو ٢٨.٩ بليون دولار أمريكي. كان هذا في الغالب نتيجة الهبوط في الدولار الأمريكي بافتراض أن حوالي ٤٥٪ من هذا الدين تمثل في العملات باستثناء الدولار. وعلى أية حال، فإن التزامات خدمة الدين ليست مقيدة بدرجة كبيرة نظراً لأن سداد الدين يكون في الغالب على المدى الطويل (بلغ معدل خدمة الدين ١٠.٧ ٪ في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤).

السياسة المالية لا تزال ضعيفة

انكمش عجز موازنة الحكومة المركزية للمرة الأولى في ست سنوات ليصل إلى ٥.٩ ٪ في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤. وكما سبقت الإشارة، ساعدت إيرادات قناة السويس الكبيرة على أساس هبوط سعر صرف حق السحب الخاص أمام الجنيه المصري بنسبة ٢٨٪ (الرسوم تحسب بوحدات حق السحب الخاص)، على تدعيم أداء العائدات ليرتفع ١٤.١ ٪ في السنة. ومن جانب آخر، زاد الإنفاق المالي بشكل رئيسي من خلال زيادة ما يسدد من فوائد الديون الناتجة عن الزيادة في إصدار أذون الخزانة (٢٢ ٪ من الإنفاق الكلي). ورغم ذلك، يظل الهبوط المالي كبيراً مما يتسبب في استمرار عبء الدين العام بالارتفاع ليصل من ٨٤.٥ ٪ من إجمالي الناتج المحلي في عام ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلى ٨٧.١ ٪ من إجمالي الناتج المحلي في ٢٠٠٣/٢٠٠٤. أضف إلى ذلك أنه ومع افتراض وجود برنامج إصلاح هيكلي يجري تنفيذه بالفعل، فإن الحسابات المالية ستسوء حتماً قبل أن تتحسن بل وربما بلغت أكثر من ٧.٠ ٪ في السنتين القادمتين. وربما لن يؤدي خفض تكاليف خدمات الديون نظراً لقوة الجنيه والهبوط في معدلات الفائدة (بسبب علاوة المخاطر) إلى معادلة النسبة الأكبر من الهبوط المالي إلا جزئياً.

تضييق السياسة النقدية

يهدف البنك المركزي إلى توافق أرصدته مع الهدف الرسمي وهو ١٠ ٪ سنوياً من خلال عمليات السوق المفتوحة وتوفير أذون الخزانة. وتعرضت السياسة النقدية للتضييق في أوائل عام ٢٠٠٤ بهدف احتواء النمو في التضخم في أعقاب انخفاض قيمة الجنيه المصري في عام ٢٠٠٣، حيث ارتفع معدل سوق ما بين البنوك لشهر واحد من ٦.٧٪ في بداية عام ٢٠٠٤ إلى ١٢.٤٪ في أكتوبر من نفس العام كما اتبعت أذون الخزانة لمدة ثلاثة شهور اتجاهاً مماثلاً رغم أن كلاً من معدلات الإيداع والإقراض لم تكد تتغير حتى نهاية صيف ٢٠٠٤. ارتفع المعروض النقدي إلى ١٤ ٪ في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤، أي حوالي ٤ ٪ أعلى من الهدف الرسمي، كما زاد عن نسبة ٨.٨ ٪ في عام ١٩٩٩/٢٠٠٠. قفز التضخم أيضاً من نسبة ٣.٢ ٪ في ٢٠٠٢/٢٠٠٣ إلى ٨.١ ٪ في العام الماضي وبلغ نمو مؤشر سعر الجملة ٢١.٤ ٪ في أبريل ٢٠٠٤، وهي النسبة الأعلى منذ بدء السلسلة.

لاحظ هنا أنه تم تعيين محافظ جديد للبنك المركزي في العام الماضي تقريباً في نفس الوقت الذي بدأت فيه دورة تضييق السياسة النقدية، كما منح هذا المحافظ قدراً أكبر من الاستقلال. وليس من المتوقع انخفاض معدل التضخم في عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ حيث يرى أن ثباته عند نسبة ١٠.٥ ٪ التي جاءت وبشكل رئيسي بسبب ضخامة الطلب المحلي وضآلة الحسابات المالية، لهذا السبب ظلت معدلات الفائدة عند نفس مستوى العام الماضي تقريبا. وفي هذه الأثناء يخطط البنك المركزي لاستهداف التضخم في العامين القادمين ومؤشر جديد لسعر المستهلك (مع استثناء السلع المدعومة)، يجري إنشاؤه الآن بمساعدة صندوق النقد الدولي.

سياسة صرف أقل تدخلاً

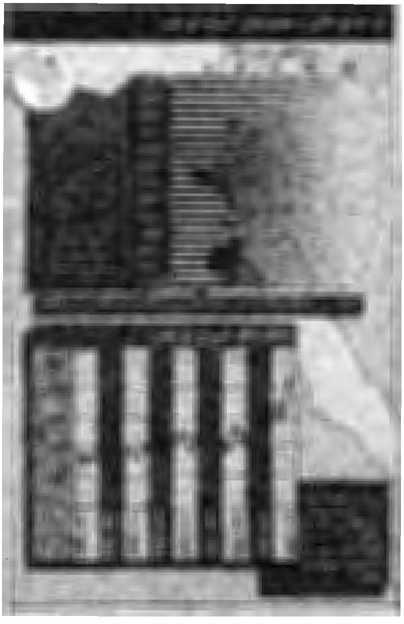
ورغم التزام البنك المركزي علناً بسعر صرف متغير منذ ٢٠٠٣، إلا أنه كان يقوم وبشكل غير رسمي بالسيطرة على سوق الصرف الأجنبي حتى نهاية السنة الماضية، ليبقى سعر صرف الدولار الأمريكي حوالي ٦.٢ مقابل الجنيه المصري في معظم شهور السنة. على أية حال، أدى انطلاق سوق الصرف الأجنبي بين البنوك في ٢٣ من ديسمبر ٢٠٠٤ إلى مزيد من توافر العملات الأجنبية، مما تسبب في ارتفاع قيمة الجنيه أمام الدولار بنسبة ٧٪ ليصل الدولار إلى ٥.٨١ جنيه، الأمر الذي أدى إلى إزالة الفرق بين سعر السوق السوداء والسوق الرسمية.

إن الجنيه المصري مدعوم أيضاً من قبل ميزان مدفوعات سليم. فعائدات السياحة الكبيرة (التي بلغت ٦.١٢ بليون دولار أمريكي في عام ٢٠٠٤، وأعلى من ٣٤٪ مما كان عليه في عام ٢٠٠٣، وهي نتيجة لتدفق كلي يبلغ ٨.١ مليون سائح في الفترة سالفة الذكر)، وزيادة إنتاج النفط، وعائدات تصدير الغاز، وإن كان بدرجة أقل (أعلى ٢٤ ٪ في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤)، وإيرادات قناة السويس الضخمة، وزيادة التحويلات المالية من المصريين العاملين بالخارج كلها من العوامل المهمة التي أسهمت في دعم الجنيه.

وإلى الآن جاءت تصريحات البنك المركزي موضحة عدم سعيه إلى الوصول إلى عملة أقوى مقابل الدولار حيث يترك لقوى العرض والطلب تحديد "قيمة عادلة" للعملة. في حال استمرار هذه السياسة الأقل تدخلاً، فإنها قد تؤدي إلى ارتفاع قيمة الجنيه اسمياً وفعلياً على مدار هذا العام. وفي الحقيقة، لن ندهش إذا رأينا انخفاض الدولار الأمريكي أمام الجنيه المصري ليصل سعره إلى ٥.٢٥ بحلول منتصف العام. وهذا يمثل ارتفاعاً اسمياً آخر يزيد على ١٠ ٪. لاحظ أن التحرك يكون أكبر في الواقع حيث إن الفرق بين معدل التضخم في مصر مقارنة بأهم شركائها التجاريين يقترب من نسبة ٨ ٪ حالياً. ورغم ذلك، ومع الأخذ في الحسبان الهبوط المثير في سعر الصرف الحقيقي في غضون العديد من السنوات الماضية (أقل ٤٣.٥ ٪ عن الذروة التي بلغها في عام ١٩٩٩/٢٠٠٠)، فإن مثل هذا التحرك لن يبالغ فيه وفقاً لوجهة نظرنا.

لكن من المهم أن نلاحظ أن مدى ارتفاع قيمة العملة يمكن أن يعتمد أيضاً على قرار البنك المركزي بالبدء في التدخل بهدف تراكم المزيد من الاحتياطي، وعند أي مستوى يمكن أن يصل ذلك التدخل إلى جانب تفادي الخسارة بالنسبة للقدرة التنافسية للصادرات. علاوة على ذلك، فإن أي انتكاسة في ثقة المستثمر الإيجابية الحالية - سواء كانت لأسباب خارجية أو محلية - يمكنها أن تؤثر تأثيراً سلبياً على سعر الصرف. يمكننا أن نلاحظ وبوجه خاص أن أي صدمة قوية تؤثر على السياحة (مثل الهجوم الإرهابي في الأقصر عام ١٩٩٧) أو الهبوط الشديد في أسعار النفط العالمية قد يكون لهما آثار ضارة. وأخيراً، يعتمد دعم سياسة سعر الصرف على المدى الطويل على تنفيذ المزيد من الإصلاحات المؤسسية بالإضافة إلى إدارة نقدية أكثر صلابة إلى جانب اتخاذ القرار بالبعد عن منهج التدخل. ▫

ترجمة: علاء الدين محمود



فى وداع شـوقى ضيف

■■ حين أبدع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين رائعته «الأيام» سيرة ذاتية لحياة ممتلئة وحافلة، لم يكن يدور بخلده أنه قد أبدع نموذجاً متميزاً لكتابة أدبية مغايرة، انطلق فيها على غير مثال سابق فى الأدب العربى. وأنه بهذا النموذج قد وضع أساساً وتعمد طريقاً يصعب على السائرين فيه من بعده أن يتجنبوه أو يخرجوا عليه.

هذا التأثير الذى قُدر «للأيام» أن تحدثه فى كُتاب السيرة الذاتية بعد ذلك، امتزج عند الدكتور شوقى ضيف - أستاذ الدراسات الأدبية والعلامة اللغوى (فيما بعد رئيس مجمع اللغة العربية ورئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية) وهو الذى تتلمذ على الدكتور طه حسين وعايشه عن قرب عقوداً من الزمان فى الجامعة. وفى مجمع اللغة العربية - امتزج عنده بإعجاب شديد وتقدير عميق وعودة غامرة لشخصية أستاذه وأسلوبه فى الكتابة ومنهجه فى الدراسة الأدبية. ومن المؤكد أنه لم يستطع تجنب النهج الذى اصطنعه طه حسين لكتابه «الأيام» من منطلق الإعجاب والتأثر، فبدأ سيرته الذاتية «معى» التى صدرت طبعتها الأولى فى سلسلة «اقرأ» عن دار المعارف فى عام ١٩٨١، ثم صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٨٥، وفى عام ١٩٨٨ استكمل الدكتور شوقى ضيف الجزء الثانى من هذه السيرة. وقد صمم الدكتور شوقى ضيف سيرته بحيث يتسع الجزء الأول منها للنشأة والتكوين والدراسة انتهاء بحصوله على الدكتوراة، أما الجزء الثانى - الأكبر حجماً - فقد أنجزه شوقى ضيف بعد سبع سنوات من صدور الجزء الأول ويبدأ بتعيينه مدرساً بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب سنة ١٩٤٢ - بعد حصوله على الدكتوراة - ويتوقف عند عام ١٩٨٧ وهو العام الذى انتخب فيه عضواً عاملاً فى المجمع العلمى المصرى، بعد مرور أحد عشر عاماً على انتخابه عضواً فى مجمع اللغة العربية. ولو قدر للدكتور شوقى ضيف أن ينجز جزءاً ثالثاً من سيرته، فلا بد أنه كان سيتسع لنشاطه وجهوده المجمعية، عضواً فأميناً عاماً فنائباً للرئيس فرئيساً للمجمع.

وعندما اختار شوقى ضيف عنواناً لافتاً لسيرته الذاتية هو «معى» فإنه لم يكن بعيداً عن عنوان الكتاب الذى وضعته السيدة سوزان طه حسين وهو «معك» عن زوجها الراحل، وصدرت ترجمته العربية عن دار المعارف أيضاً. وإذا كان طه حسين قد اختار أن يتحدث عن بطل سيرته بضمير الغائب وأن يطلق عليه «صاحبنا» فإن شوقى ضيف - متابعة لما فعله طه - آثر أن يسمى بطله «الصبى» و«الفتى» ثم «صاحبى» تدرجاً مع مراحل العمر المختلفة ومقتضيات السيرة الذاتية. ولم تكن تسمية «الفتى» بعيدة أيضاً عن تسمية «الفتى» التى سبقت إليها «أيام» طه حسين.

وانفسح المجال أمام صاحب السيرة: شوقى ضيف، ليرسم لقريته «أولاد حمام» - إحدى قرى محافظة دمياط، وفلاحيها، ولواقعها الغارق فى البؤس والفقر والتخلف (باستثناء بعض الأسر القليلة الموسرة فيها) - صورة مغرقة فى الواقعية والشاعرية معاً، أبدعها أسلوبه الأدبى البيانى المتمكن دوماً من استقصاء الوصف، والاحتفال بالتشبيه، والملتفت إلى المتقابلات التى تمليها ضرورات الصياغة، وهو أسلوب يمتح كثيراً من لغة القرآن الكريم وبيانه. تضمينات واقتباسات مضيئة وكاشفة. بحيث يمكن القول إن حديث شوقى ضيف عن قريته، هو فى حقيقته لوحات قلمية بديعة (تذكرنا مرة أخرى بحديث طه حسين فى مستهل الجزء الأول من الأيام عن القرية والسياج وما وراءه من عالم لا يراه ولكنه يتخيله ويخشاه)، وإن هذه اللوحات القلمية تكشف عن طاقة إبداعية كبيرة عند صاحبها، تشربتها كتاباته الدراسية والأكاديمية، ولم يتح لها أن تتنفس فى أجناس أدبية مباشرة: شعراً ونثراً، فكانت الفرصة مواتية - من خلال العديد من صفحات هذه السيرة: خاصة فى جزئها الأول - لانسكاب هذه اللغة الشعرية وتدفقها على الورق وهو يقول: «وما تلبث القرية أن تخلد إلى السكون، ولا ضوء ولا شعاع إلا فى الليالى المقمرة: أما الليالى الأخرى فيلفها ظلام دامس، ولا حركة ولا ما يشبه الحركة، ولا صوت ولا همس، بل صمت مطبق مخيم على كل شىء إلا أن يسمع من حين إلى حين صياح الديكة الذى يرن كالأجراس فى كل الأنحاء. وتغط القرية فى نوم عميق حتى السحر وتباشير الصباح، حين يخترق أذان الفجر حجاب الظلام إلى المساء، والمؤذن يصيح: الله أكبر، فتتجافى جنوب كثيرة عن المضاجع، ويصيح فى الناس: «الصلاة خير من النوم»، فيهبون من مراقدهم ويسرعون فى سيرهم إلى المسجد للصلاة.

وينفلت من أضواء الصباح شعاع إلى كل دار، فيستيقظ جميع من فيها. وكأنما يغسل هذا الشعاع غبار النوم من عيونهم، وتبادر فتاة كل دار، فتحمل على رأسها البلاص خاوياً، وهو جرة كبيرة من الفخار لها عروتان. وتنادى الفتاة بعض رفيقاتها فيسرن معاً وعلى رؤوسهن البلاليص أو تلك الجرار الكبيرة، ويمضين إلى الترعة فيملأن جرارهن، ويضعنها على رؤوسهن فى وضع محكم غاية الإحكام، وكأنما وضعت بميزان لا يحيف ولا يجور أبداً، وهن لذلك لا يمسكن بها، إذ لا تميل يمنة ولا يسرة، فقد أصبح ثباتها على رؤوسهن كأنه جوهر دخل فى تركيبها. وفى أثناء سيرهن يتحدثن ويتضاحكن، حتى تصل كل منهن إلى دارها، فتدفع بجرتها إلى زير مُعد لذلك تجد فيه أسرتها حاجتها للشرب والرى طوال النهار. وهو منظر مألوف فى قرى مصر حتى اليوم، منظر بديع، إذ ترى الفتيات يحملن فى الصباح الباكر هذه الجرار الكبيرة المليئة بالماء، وكل فتاة تختال فى مشيتها، كأنما تريد أن تعلن إلى أبويها وأهلها أنها ستظل دائماً ترعاهم وتحمل إليهم - ما استطاعت - الشراب والغذاء.

وكل ذلك قبيل شروق الشمس، حتى إذا أطلت من الأفق بطلعتها وأضوائها البهية، فتحت لها الزروع صدورها الندية، فعانقتها وطوقتها بقلائدها الذهبية. وحينئذ ترى الفلاحين شيباً وشباناً ماضين إلى الحقول بفئوسهم، ويتبعهم بعض نساء القرية وفتياتها من أسرها المتواضعة ممن يعملن فى الحقول مع الرجال والفتيان جنباً إلى جنب، يبذرن الحب، ويسقين الزرع، ويشتلن - أو يغرسن - شتلات الأرز وغروسه، وينزعن أوراق القطن المصابة من فروعه الخضراء ليصبح معافى من الآفات. حتى إذا تفتح لوزه أو كراته وثماره وتهدلت خُصله البيضاء الناصعة: أخذن يجمعنه ويجنينه، وهن يغنين أهازيجهن الريفية.

وجميعهن لا يعرفن البرقع ولا الحجاب، فهن مثل أخواتهن فى ريف مصر دائماً سافرات، فحجابهن وبرقعهن الحياء المترقرق فى أسارير وجوههن، وهن لا يعرفن الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة، فالبراءة تتألق على جباههن.

وكما أن للرجال والشباب من أهليهن الجلباب الأزرق لا يخلعونه كذلك لهن الثوب الأسود سواد الطين الذى يعملن فيه لا يزايل أجسادهن. فهو كل ما يملكن وكل حليتهن وزينتهن، لا يعرفن شيئاً وراءه إلا ما يرينه على نساء الموسرين فى القرية: لا يعرفن الثياب الملونة ذات الحمرة القانية أو الزرقة الصافية. ومعاذ الله أن يعرفن الثياب الشفافة والأخرى الحريرية المزركشة، ومعاذ الله أن يعرفن المساحيق البيضاء بياض الياسمين أو الحمراء حمرة الورد والياقوت.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الريفيات البائسات تجرى فى وجوههن نضرة الحياة بأكثر مما تجرى فى وجوه كثيرات من بنات الموسرين فى القرى أو البنات الحضريات، لفارق مهم، هو نفس فارق الأزهار التى تعيش طليقة فى الطبيعة، ناعمة بمهدها من التربة، وما يحتضنها

معى
شوقى ضيف
دار المعارف - الجزء الأول ١٩٨١ - الجزء الثانى ١٩٨٨

من أشعة الشمس، وبما يتنزلاً فيها سحراً من حبات الندى، والأزهار الأخرى التى تعيش حبيسة فى الأصص والظلال داخل البيوت والجدران.

وحقاً كان يعصف بحياة الأسر المتواضعة فى الريف بؤس كثير، غير أن من الحق أيضاً أنك كنت دائماً ترى البسمة ترف على عيون الجميع نساءً ورجالاً وفتيات وفتياناً وعلى شفاههم، وكان الأمل فى حياة أفضل وأبهج وأروع لم يكن يزايلهم أبداً، إذ لا يزال يتسلل إلى نفوسهم تسلل أضواء الفجر أواخر الليل فى الآفاق.

على امتداد سيرته، يستطيع القارئ أن يتابع خيطين رئيسيين نجح المؤلف فى نسجهما باقتدار وتمكن ليضفى على سيرته هدفاً خلقياً وتربوياً من ناحية، وليضمن سيرته أهم الأحداث السياسية والاجتماعية المواكبة لها من ناحية أخرى. حريصاً على إبراز ما يمكن تسميته بقيم القرية التى تربى فى ظلها وتشأ وهو يمارسها، وغياب هذه القيم الآن بدعوى العصرية والمدنية. وهى قيم تتصل فى جوهرها بالعلاقة بين الآباء والأبناء، والاحترام الذى يرقى إلى درجة الطاعة المطلقة والتقديس فيما يتصل بسلوك الصغار إزاء الكبار - خاصة الوالدين - فى الأسرة المصرية الريفية على زمانه. يقول شوقى ضيف:

«وكان الطفل يبدأ يومه دائماً بتحية أبويه، ولم تكن التحية كلاماً، بل كانت تقبيلاً لليدين الكريمتين، يد الأب ويد الأم، واجب يومى كان الطفل يؤديه صباح كل يوم كما يؤديه أطفال القرية من حوله، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعاً. وقد أقلعت الكثرة فى مصر الآن عن هذه العادة، وخاصة الأسر المثقفة ثقافة عصرية. أو التى تدعى لنفسها شيئاً من المدنية كأنها تعد ذلك ضرباً من العبودية أو من الذلة، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا هذه العادة هناك، فظنوها عادة سيئة، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وجهت لغير الأب والأم، أما هما فحرى بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تحية لهما واحتراماً».

ويعلق شوقى ضيف



فـــــى وداع  شـوقى ضيـف

على إقلاع الكثرة فى مصر الآن عن هذه العادة، مؤكداً هدفه الخلقى والتربوى، بقوله: «وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة الطيبة التى كانت تُحيل الأب والأم إلى ما يشبه قديسين فى نظر الأبناء، أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من الإجلال!»

مثال آخر تفيض به صفحات السيرة الذاتية لشوقى ضيف، وهو ما يتصل بعلاقته بأساتذته الكبار، وإجلاله لهم، وما يحمله لهم من مودة وإكبار. يتمثل هذا فى الصفحات التى أفردها لعلاقته بكل من طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام وغيرهم.

فى ختام صفحات الجزء الأول من سيرته الذاتية «معى» يورد بعض الأحداث والمواقف عن العلاقة التى ربطت بينه وبين أستاذه طه حسين وهو يقرأ عليه ما أنجزه فى رسالته للدكتوراة عن المذاهب الفنية للشعر العربى على مر العصور. كان طه حسين هو المشرف على الرسالة، وقد جعل له يوماً معيناً فى كل أسبوعين هو يوم الخميس، وساعة معينة هى الساعة التاسعة، وكان يذهب إلى أستاذه فى الموعد المحدد فيجده دائماً فى انتظاره. ثم يقول شوقى ضيف: «وما إن استمع طه حسين إلى الفصل الأول من فصول الرسالة حتى أخذ يثنى على الشاب وعلى رسالته فى اجتماعات قسم اللغة العربية. وكلما مضى الشاب فى قراءة فصول رسالته على أستاذه ازداد ثناؤه، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويداً ودأباً فى رسالته، باذلاً لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتى يمضى أستاذه وحتى يكون مستحقاً لثنائه.

وإن الشاب ليذكر دائماً هذا الثناء الكريم، وكيف كان يدفعه دفعاً إلى مضاعفة جهده، حتى لينجز رسالته - منذ تسجيلها فى نحو عام ونصف. وطه حسين بذلك كان أستاذاً مشرفاً على رسالة الشاب بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة ومقدرة».

ولا يفوت شوقى ضيف أن يضمن السطور الأخيرة من هذا الختام - وهو يتحدث عن مناقشة رسالته مناقشة علنية، وكيف غص المدرج رقم ٧٨ بكلية الآداب بحشد كبير من الطلاب والجمهور، وكانت لجنة المناقشين تتكون من خمسة أساتذة منهم الأستاذ العميد - لا يفوته أن يضمنها لفتة خلقية وتربوية تكشف عن عميق محبته وإجلاله لأبيه وهو يقول: «وفى أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة، فوجد أباه الشيخ واقفاً مع عشرات من الطلاب مكدسين فى مدخل المدرج، ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه، غير أن أباه قرأ خبراً عنه فى الصحف صباحاً، فسافر إلى القاهرة توا، واتجه إلى الجامعة فسمع ابنه - وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية - يلقى تلخيص بحثه. وما أعجب الآباء، إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود، ويمنحونهم أنفس ما يملكون: يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكوراً. ومهما صنع الأبناء لآبائهم، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب، بل أيضاً حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة».

هكذا يختتم الدكتور شوقى ضيف الجزء الأول من سيرته الذاتية بالتفاتة إلى أبيه الشيخ، وتأكيد لمعانى البر والرحمة والحنان فيه، تماماً كما اختتم أستاذه طه حسين الجزء الأول من سيرته الذاتية بدعوة لابنته الصغيرة أن تلتفت معه إلى الملاك الذى يحنو على سريرها ويرعاها، ويسهر من أجلها، وهو ملاك لا يرعى ابنته فقط وإنما يرعاه هو أيضاً، ويأخذ بيده فى رحلة الحياة ويعوضه فقدان البصر. هذا الملاك هو زوجته وأم ابنته. هذه السطور الأخيرة لدى كل من الكاتبين الكبيرين هى الطلقة العاطفية التى تختزن شحنة هائلة من الوفاء والتقدير، وتنثرها على وجوه القراء. كان شوقى يتجه إلى أبيه ومعلمه وصاحب الفضل الأول عليه، وكان طه حسين يتجه إلى زوجته رفيقة العمر وصاحبة الفضل الأول عليه وهو يقول مخاطباً ابنته: «فإن سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن، وكيف أصبح شكله مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة وأن يثير فى نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فلست أستطيع أن أجيبك وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب. فسليه ينبئك.

أتعرفينه؟ انظرى إليه. هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج. ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار. لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك، فبدله من البؤس نعيماً، ومن اليأس أملاً ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفواً.

ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك، فلنتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان!

بالإضافة إلى هذا الخيط الخلقى والتربوى - الذى يشد وقائع السيرة الذاتية لشوقى ضيف وأحداثها، ويضفى عليها من طبيعة المؤلف الأبوية والأستاذية ما يجعله دائم الإشارة إلى التغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى على مدى العقود التى تنتظرها السيرة، والتنبيه إلى ما كان يتحلى به الآباء والأجداد فى مقابل عدم اكتراث الأبناء والأحفاد - بالإضافة إلى هذا الخيط، كان حرص شوقى ضيف على تسجيل الأحداث السياسية والاجتماعية التى واكبت حياته، وتأثيراتها وانعكاساتها على هذه الحياة سلباً وإيجاباً. وهى أحداث تكشف عن نمو الوعى السياسى والوطنى، وعن تطور المجتمع واتساع دائرة التعليم، وعن دخول الفتاة إلى الجامعة، وزمالتها الجامعية لشوقى ضيف، وعما كان يحدث للأساتذة الذين كانت مواقفهم السياسية واضحة ومعلنة، ومشاركتهم فى الحياة السياسية والحركة الوطنية عميقة الأثر موفورة النشاط وما تعرض له بعض هؤلاء الأساتذة من صنوف العسف والاضطهاد والإبعاد عن الجامعة. والمثال البارز على ذلك كله ما حدث لأستاذه طه حسين عندما رفض التعاون مع حكومة «صدقى» مؤثراً هو ورفاقه من الأحرار الدستوريين مواجهة هذه الحكومة ومقاومتها من خلال ائتلاف وضعوا له ميثاقاً سموه «عهد الله والوطن». فكانت النتيجة عزل طه حسين من منصبه ونقله إلى ديوان وزارة المعارف، لكنه آثر تقديم الاستقالة، وغضب لطفى السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته بدوره.

هذا الارتباط الحميم بين السيرة والوطن - بكل ما يموج فيه من أحداث ويصطرع فيه من تيارات ومواقف - يبرز بصورة أكثر وضوحاً وإلحاحاً فى الجزء الثانى من السيرة الذاتية الذى أنجزه شوقى ضيف بعد سبعة أعوام من صدور الجزء الأول. ولعله كتبه استجابة لمن كانوا يلحون عليه لاستكماله، ليتناول حياته العلمية والعملية بدءاً من حصوله على الدكتوراة وتعيينه مدرساً بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب عام ١٩٤٢، حتى وقت كتابة هذا الجزء والانتهاء منه عام ١٩٨٧. وقد آثر أن يضع عنواناً ثانياً لهذا الجزء هو «ذكريات ومشاهدات»، وهو عنوان يتسع للكثير من فصول الأحداث السياسية وتقلباتها المستمرة، متضمنة انتهاء الحرب العالمية الثانية ووضع ميثاق الجامعة العربية وحرب فلسطين التى انتهت بالنكبة، ورحلة المؤلف وأسرته إلى قبرص، واندلاع ثورة يوليو، وحصوله على جائزة الدولة فى الأدب - مناصفة - عام ١٩٥٥، وتأميم شركة قناة السويس العالمية، وسفره مع وفد من اتحاد كتاب مصر لزيارة رومانيا وروسيا، واضطرارهم فى طريق العودة إلى النزول فى بيروت لإغلاق المطارات

عندما اختار شوقي ضيف عنوانًا لافتًا لسيرته الذاتية هو «معي»
فإنه لم يكن بعيداً عن عنوان الكتاب الذي وضعته السيدة سوزان طه حسين وهو «معك»
عن زوجها الراحل، وصدرت ترجمته العربية عن دار المعارف أيضاً

والموانى المصرية بسبب العدوان الثلاثي على مصر، ومشاركته في احتفال المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون بذكرى حافظ إبراهيم، وقيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، واختيار المجمع العلمي العراقي له عضواً مراسلاً، ومشاركته في مهرجان الشعر الثاني بدمشق الذي أقامه المجلس الأعلى عام ١٩٦٠. وينتهز شوقي ضيف الفرصة ليعلن موقفه من الشعر الجديد أو الشعر الحر في مناسبة التقائه - من خلال هذا المهرجان: «بمجموعة كبيرة من شعراء الشباب المصريين والسوريين الذين ينظمون هذا الشعر الحر الجديد، وحاورهم طويلاً فيما سقط في شعرهم من أنغام القصيدة العربية وخاصة القافية، وفي إلغائهم فكرة الشطر والبيت وإحلالهم مكانهما فكرة السطر، فالمنظومة منه سطور متوالية، ولا يعتد فيها بشيء من موسيقى الشعر العربي سوى التفعيلة. وأقنع صاحبي كثيرين من ناظميه أن يتلافوا ما سقط من أنغامه بالعودة إلى القافية المتنوعة المعروفة في الموشحات والشعر الدوري، واستجاب منهم كثيرون - فيما بعد - إلى فكرته مستوحين صور القافية المتنوعة الموروثة، إذ لا يتصور العرب شعراً بدونها، وكأنها تلتصق بأفئدتهم التصاقاً».

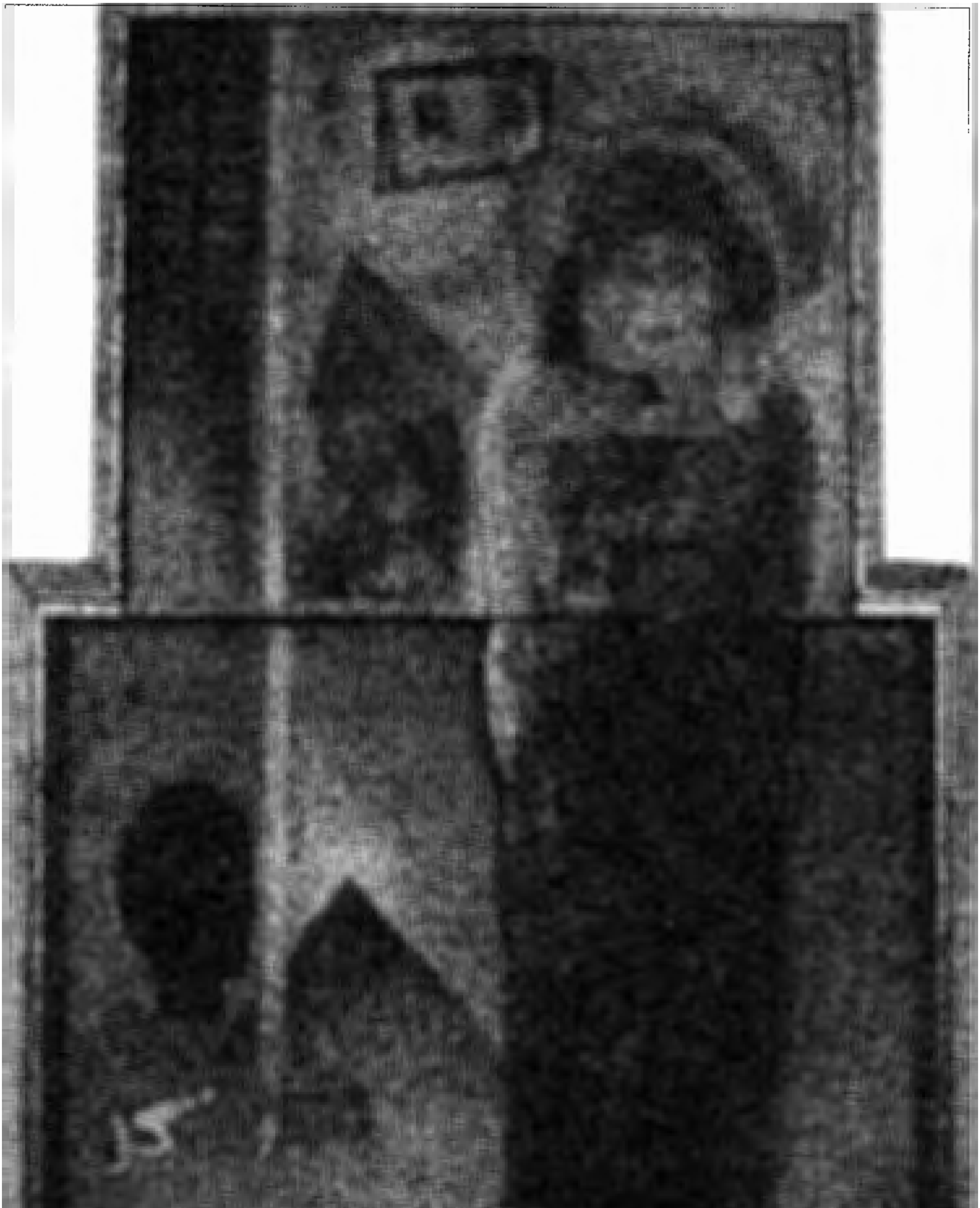
ولا يفوت المؤلف أن يسجل أن ذلك العام - ١٩٦٠ - شهد نشر المجلد الأول من سلسلته عن تاريخ الأدب العربي، وهو المجلد الخاص بالعصر الجاهلي. وهي السلسلة التي سوف تنتظم التاريخ للأدب العربي حتى العصر الحديث، والتي سوف تصبح الدرة المتألقة في عقد مؤلفات شوقي ضيف: الأدبية واللغوية والإسلامية والبلاغية. ثم تتسع صفحات الجزء الثاني من السيرة لطبيعة عنوانه «ذكريات ومشاهدات» فيتحدث عن دعوته إلى جامعة بيروت العربية أستاذاً زائراً لمدة أسبوعين في تاريخ البلاغة العربية، وعن إعارته إلى جامعة عمان بالأردن للمشاركة في تأسيسها وليحاضر طلاب قسم اللغة العربية بها في بعض مواده، ثم وفاة والده الشيخ، وأدائه لفريضة الحج، ثم دعوة جامعة بغداد له أستاذاً زائراً لمدة أسبوعين، ثم أدائه للعمرة، واستعانة جامعة الكويت به في عام ١٩٧٠ للمعاونة في إرساء النظام الجامعي بها، ثم زيارته للندن عام ١٩٧٢، ثم وفاة والدته، وقيام حرب أكتوبر ثم زيارته مدينتي مدريد وباريس، ثم ترشيحه عضواً في مجمع اللغة العربية وانتخابه عام ١٩٧٦، وعضويته الشرفية في مجمع اللغة العربية الأردني، ومنحه جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٩٧٩ (عرفاناً بما قدم للعربية من أعمال تتصل بأدبها في مختلف عصوره وأقاليمه، وبالدراسات اللغوية والبحوث اللغوية والنقدية) فحصوله على جائزة فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٨٣، ثم قيامه برحلة مع بعض الأساتذة والطلبة إلى إسبانيا، ثم قضائه بعد ذلك فترة من الصيف في ألمانيا وسويسرا، فتكريمه في مؤتمر أعلام دمياط الذي أقامته كلية التربية بدمياط باسم جامعة المنصورة في عام ١٩٨٥، ومشاركته لعدد من الأساتذة والطلبة في رحلة إلى اسطنبول، وتعيينه في العام التالي أستاذاً متفرغاً بآداب القاهرة، ويختتم هذه الذكريات والمشاهدات بانتخابه عام ١٩٨٧ عضواً عاملاً في المجمع العلمي المصري أقدم الهيئات العلمية بمصر منذ تأسيسه في أواخر القرن الثامن عشر.

بالرغم من الحشد الضخم من الذكريات والمشاهدات، وامتلاء الجزء الأول من السيرة بالأحداث والمواقف السياسية، إلا أن شوقي ضيف نفسه لم يعمل بالسياسة قط، ولم يجرب مرة واحدة أن يكون حزبياً أو كاتباً سياسياً أو مشاركاً في معركة سياسية. ويبدو - بشكل أكيد - أنه حدد لنفسه دوره ومكانه من البداية، مؤثراً العزلة في صومعته العلمية والأكاديمية، مكتفياً بالمراقبة والتأمل والتحليل، عازفاً عما قد تتسبب فيه السياسة من إعلاء للجاه والسلطان، واقتناص للمناصب العليا والقيادية. فهو لم يسع - طوال حياته الجامعية - إلى ما هو أبعد من رئاسته لقسم اللغة العربية في كلية الآداب، وبقدر ما كان هذا الأمر منجاة له وعاصماً من الوقوع في أحابيل السياسة وعواصفها الهوج، وبعداً عن صراع المناصب العليا، إلا أنه تسبب في حرمانه من الخبرات الإدارية اللازمة لإدارة الهيئات والمؤسسات، وهو الأمر الذي ظهر إبان سنوات رئاسته لمجمع اللغة العربية، حين اكتشف المجمعيون أنه يدار بعقلية أستاذ جامعي وأكاديمي بارز، وفكر عالم كبير متميز بأكثر من كونه يدار طبقاً لفلسفة إدارية عصرية ناجحة، تحكم ربط الأجزاء بعضها ببعض، في إطار تصور كلي لطبيعة العمل في المجمع، وتحديد المسئوليات، وتحقيق لامركزية التصرف، في إطار مركزية الفكر والتوجه والخطة.

لكن هذه المتابعة الراصدة للتاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي المصري على امتداد - أكثر من ستين عاماً - تشهد على عمق الحس الوطني لدى شوقي ضيف، فالرجل يكشف عن محبة غامرة لوطنه ومواطنيه، وعن حرص بالغ على أن يرى هذا الوطن دائماً في المستوى الذي يعتقد أنه لائق به مكانة ومنزلة. وهو الأمر الذي لا نرى له مثيلاً في السير الذاتية لدى العديد من الأساتذة والكتّاب: فكثير منهم كان مشغولاً بذاته عمن حوله وما حوله، وكثير منهم كان حريصاً على أن يوضح دوره هو وإنجازه هو بغض النظر عن أن هذا الدور وهذا الإنجاز هما جزء من سياق أكبر وأشمل، وهو موقف يكشف عن التواضع الأصيل في شخصية شوقي ضيف. وهو تواضع حقيقي وغير زائف، ذلك أن التواضع الزائف والمصطنع هو في حقيقة الوجه الآخر للغرور، وأن صاحبه يقصد به - عادة - استدراج الآخرين وحثهم على المبالغة في مدحه والإشادة به. أما شوقي ضيف فهو يرى نفسه طيلة الوقت - على امتداد سيرته - غير مستحق لمدح أو ثناء، ويرى نفسه - وهو الكبير القدر والقيمة - صغيراً بالنسبة لأساتذته ومعلميه من جيل الرواد الكبار: طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأمين الخولي ومصطفى عبد الرازق وغيرهم، بالرغم من أن تلاميذه ومريديه يرون أن إنجازه في مجال الدراسة الأدبية والتأريخ الأدبي يفوق إنجاز كثير من أساتذته. مضافاً إليه إنجازه في المجال اللغوي والبلاغي والإسلامي. مثل هذه الشخصية تكشف لنا - نحن قراءه وعارفي فضله - عن كنز من القيم النبيلة، والخلق الكريم، والأستاذية الحقيقية البعيدة عن زهو الادعاء وجنبة المكابرة.

ولو أن شوقي ضيف كان قد خطط لسيرته أن تكون على نهج غير الذي سلكه في الجزءين اللذين أصدرهما بعنوان «معي»، لكان اندماجهما والتحامهما في المضمون الذي قصد إليه أكثر اكتمالاً وغنى، ولكان الجزء الثاني أبعد من الطابع السردي والتسجيلي، على عكس الجزء الأول الذي يتوهج بحس الكتابة الأدبية، وروعة اللغة البيانية، وجمال العرض والتصوير والتحليل، وهو ما يجعل منه عملاً إبداعياً بكل معنى الكلمة، وسيرة ذاتية متفردة بغناها واحتشادها، جديرة بمكانتها بين السير الذاتية الكبرى لطه حسين وسلامة موسى وأحمد أمين وشكري عياد ولويس عوض وغيرهم وصولاً إلى السير البديعة لمحمود الربيعي ومحمد عفيفي مطر وغيرهما من المبدعين.

وحسبه أنه قدم لقارئه عملاً كاشفاً، لا غنى عنه لفهم شخصية شوقي في مكوناتها الأولى، وفي التربية الروحية والوجدانية التي أتيحت له، وفي روح العناد والإصرار اللذين كان يحلق بهما دائماً ويتجاوز، وفي تفسير القدرة الهائلة على إنجاز ما أنجزه في مجالات شتى، لا تكاد تخلو سنة واحدة - من عمره الحافل بالعطاء - من درة جديدة يضيفها إلى العقد الفريد الذي تركه مكتملاً عند رحيله، لا نكاد نفتقد فيه حبة واحدة غالية، أو حبة واحدة موضوعة في غير مكانها اللائق وحتميتها العلمية، شوقي ضيف بهذا المعنى، ومن خلال الإضاءة التي تضيفها سيرته الذاتية «معي»: مشروع ضخم أدرك تحققه واكتماله، ورحل عنا صاحبه بعد أن سكب من روحه زيتاً يضيء ما بقيت سطوره، وعطراً يتضوع ما هبت علينا نسمات فكره الهادئ الواثق، وجهده الموسوعي الشامل. ■



فنـان

ينظـر إلى نفسـه

فى المرآة

تعودنا، وتعودت الصحافة، على تقديم الفنانين وأعمالهم من خلال كتابة «نقدية» يكتبها ناقد، قد يسعى إلى تقييم أعمال الفنان، أو - فى حالة تواضع وإنسانية الناقد - أن يشرح ويُيسِّر ويقدِّم أعمال الفنان إلى القراء.. ونحن هنا نحاول تقديم شكل آخر من الاقتراب والتعامل مع الفنانين وأعمالهم، هنا ينظر الفنان إلى عالمه.. إلى نفسه فى المرآة.. ينظر إلى أفكاره وهواجسه ورؤاه وشواغله.. وأيضا إلى جماليات أعماله كما يراها هو.. أو كما يتصورها هو، وعلى القارئ أن يتأمل ويقارن بين ما يفكر فيه الفنان، وما يقوله.. وبين تجلّى وتجسّد هذه الأفكار فى أعماله.. فأنت.. فى هذه الحالة.. أيها القارئ.. أنت الناقد وأنت الحكم.

حلمى التونى

عن الجمال والنظام

ثروت البحر

تتغير مقاييس الجمال بتغير البشر والأزمنة والأمكنة. وتظل هناك ثوابت لهذه المقاييس تكون قاسمًا مشتركًا مع كل تلك المتغيرات. وهى إجادة الصياغة، وقوة التعبير، والتفرد، ويمكن أن تكون أكثر رقيًا حين تصبح نبل المحتوى، وتناغم التكوين ونقاء الأسلوب أو رقى الخط واللون، ويبقى فى العمل شىء آخر خفى كالروح. فأنت تستطيع أن تفرق بين صورة الحى، وصورة الميت لنفس الشخص، لأن الروح تسكن فى الملامح، ملامح الشخص، وكذلك تغيب حين تفارقها فى الصورة. وهذه الروح لا تتحقق فى العمل الفنى إلا بخروج طاقة من الفنان إلى عمله وهى طاقة الحب أو إرادة الحياة، يستوى فى هذا كل المبدعين من موسيقيين، وشعراء، وكتاب. ولقد أغدقنا نحن على الطبيعة من أوصاف وجماليات يستريح إليها الشعراء والموسيقيون كغطاء لعملهم. إلا أن كل هذه الأوصاف والمعانى هى نتاج بشرى. فالطبيعة لا تعرف الرحمة بالمنظور البشرى والإنسانى فهى فى عالم الكائنات الحية آكل ومأكول. إن البشر هم الذين اخترعوا المعانى والمبادئ مثل: الشرف، والبطولة.. إلخ. فلا يوجد شىء ملموس اسمه الشرف بل يوجد فقط الإنسان الشريف. هو الحامل لهذا المعنى. نحن لا نعرف كثيراً عما يدور فى المملكة الحيوانية أو النباتية بدقة. لكن هناك مؤشرات عديدة ثابتة عن الجمال بالمفهوم البشرى. وهو علاقة الجمال بالنظام. فالفارق بين الحديقة والغابة هو النظام. والفارق بين الصحة والمرض هو النظام، وكذلك الفارق بين النصر والهزيمة. إن حركة الكون كله تقوم على النظام. وإذا كانت العلاقة بين الجمال والنظام بهذه القوة فما الذى يجعل الجمهور ينصرف عن الفنون التشكيلية فى مصر؟ ما لم يكن أحدهما بعيداً عن النظام أو كلاهما معًا. فالمجتمعات العشوائية لا يمكن أن تفرز إلا عشوائيات مثلها فى المسكن والملبس والمأكل والتعليم والتفكير بل والروح أيضاً، إن النظام هو الذى يغرس فى الأجناس البشرية قوة مضادة للعشوائية تلك التى تحولهم إلى ضحايا لا أمل فى نجاتهم من مصير عشوائى ثم كحالهم التعس. ونحن لا نتحدث عن الطفرات لأن ذلك يأتى فى بند المقاومة، وبند طفرات الفطرة السوية التى تولد من بطن المحن لتصوب مساراً خفياً. وهذا نراه جلياً فى أوقات الخطر القومى الذى تشعر به الجماهير بالفطرة مثل جميع الكائنات، ورغم أن الحياة البرية آكل ومأكول. إلا أنها ليست ميسرة للآكل طول الوقت إلا برضاء المأكول وتقاعسه عن المقاومة. والمقاومة فى المجتمعات مثل ركائز المبانى. تسقط بسقوطها، وتبقى وتنمو بثباتها وقوتها. فهى مثل أجهزة المناعة فى الجسم، وهى فى المجتمع، التعليم، والقضاء. فهما ركيزتان أساسيتان إن تأثرا يتأثر نظام المجتمع كله ويبقى الشك فى استمراره وارداً. وحين يتحدث السياسيون عن الشعب فدائماً يقولون (حس الجماهير الصادق ووعى الفطرة) وحين يتحدث الفنانون فهم يعزون انصراف الجمهور لعدم الوعى التشكيلى. وهنا نود أن نوضح أمراً آخر بالنسبة لحالنا فى مصر. فالفن التشكيلى بشكله الراهن هو شىء مستورد. فالفنان محمود مختار هو أول نحات مصرى معاصر منذ العصر الفرعونى. فأين كنا خلال الألفى عام الأخيرة حتى مائة عام خلت. حين أنشئت مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨م بمدرسين أجانب ولدراسة الفن الغربى من عصر النهضة حتى العصور الحديثة. وهذا فن خرج من واقع وثقافة غيرنا. والمفروض أننا نرسم على شاكلتنا، ونحب على شاكلتنا. وحين بدأنا فى النقل والاقتداء بعالم بعيد عنا فى همومه وصراعاته وطبيعته، وتحدياته. لم يلق ذلك قبولاً وانسجاماً لدى العامة، وتم قبوله فى أوساط معينة كقيمة مكملة ومصاحبة لحياة مقلدة للغرب، وبغض النظر عن صواب الشرق أو اختلاف الصواب لدى الغرب فنحن بصدد قضية. وهى أن الفنون لا تستورد. فهى تولد وتنمو مثل نباتات الأرض. فكما أن النخلة، والجمل يناسبان الصحراء وظيفة وشكلاً وأداءً وإنتاجاً. فهما بحالتهما فى اتساق مع المكان والزمان والوجود نفسه. وهناك رؤية شرقية فلسفية للوجود كما قال: عمر الخيام (إن تؤخذ القطرة من بحرها ففى مداه منتهى أمرها) والمسألة ليست الاختلاف بين رؤية برجماتية للوجود وبين رؤية الشرق له. المشكلة أننا كشرقيين لا نفهم أيضاً حكمة الشرق. فمنذ غربت عنه شمس الإبداع

[illegible]

وسار مقلداً تابعاً، وليس مبدعاً. لم يفهم نفسه ولا قيمة ما لديه، وحال السوق أو الشارع العشوائي يؤكد هذا بالبرهان. ما بين أسماء إسلامية في الحواف الفقيرة من المدينة وأسماء إفرنجية في وسط المدينة الغني. وما بين تكفير من يجتهد، وإباحة ما لا يباح، وحين يتحرر الدين من التعصب تتحرر الثقافة. وبين التشبه بالغرب في الإعلان والأزياء وأنماط الغذاء، وبين ظاهرة أسلمة الأسماء، والأشكال تأكيداً على مقولة ابن خلدون (يميل المغلوب إلى التشبه بالغالب)؛ فالبعض يريد قبل أن يحصل على القوة أن يملك مظهر القوة ولو تقليداً في الفن أو في غيره، ومصر مغلوبة مرتين، مرة بحصار الغرب وهذا حقه الطبيعي كمنتصر، ومرة أخرى بنقود الشرق، وهذا قدرنا كفقراء لم نحسن إدارة أمورنا. وتركنا كل شيء لحركة الطبيعة التي لا تعرف الرحمة. فقط تبقى القيمة، وهي المقاومة. فماذا لدينا منها؟!

وجدت أن هذا مدخل موجز للغاية ومناسب للحديث عن الفن. فإذا تحدثنا عن الفن اليوم في مصر فمن الطبيعي أن نتحدث عن فن المقاومة.. مقاومة من؟؟ مقاومة مكان؟ ومقاومة هذا المكان ضد زمان لا يسير في نفس الاتجاه ولا في صالحه؟ وإن كان هذا المكان لديه ما يصلح فسيقاوم وإن لم يكن لديه ما يصلح. فهو يرحب ولا يقاوم وهذه طبيعة الأشياء دون عنتريات مسبقة وحين أقول نحن نرسم على شاكلتنا فلا أقصد معنى الشطرة الرفيع الذي تخلينا عنه طواعية بل على شاكلة ما وصلنا إليه من تهتك ثقافي واجتماعي. ومازالت لدي القناعة في أن قيمة الشيء في مقاومته.. مقاومة الظلم ومقاومة القبح. والفوضى، والموت، والتعصب. إن الجسم لا يمرض إلا إذا ضعفت مقاومته وضعفت إرادته، ويقوى بالنظام، وطاقة الحب. بدءاً من حب الحياة حتى حب الآخر. من أجل وعي أكثر رقياً ورحابة وحرية. وهذه هي قواعد المملكة البشرية التي صنعت البشر فصنعوا الفنون. أما حب البقاء فمازال هو الحاكم للمملكة الحيوانية. وهي لا تنتج فناً. ربما يكسب البعض من ميزانها المختل إلى حين. لكنها حين تخرج عن النص البشري فإنها على المدى تدمر نفسها بخروجها عن الطابع الإنساني المشترك بين البشر الأسوياء أجمعين، وتعطي الآخر فرصة وذريعة لأكلها كما في عالم الحيوان. لأن الحب، والتعليم والعدالة، والثقافة، والديمقراطية مثل أوراق التوت الإنسانية متى سقطت عن كائن فقد خرج عن النص البشري وأحل ذبحه كما حدث لدول عديدة وحضارات على مر التاريخ لم تتمكن من التلاؤم مع مصادر قوتها وبذلك لم تتواجد في المكان المناسب في الوقت المناسب، فالأمر ليس قبول ثبات فني على أساس قانون تغير مفترض بل العكس من تقبل تغيرات معينة تقوم على الثبات الضروري الواضح الذي يعكس الجمال والنبل والجلال. ■



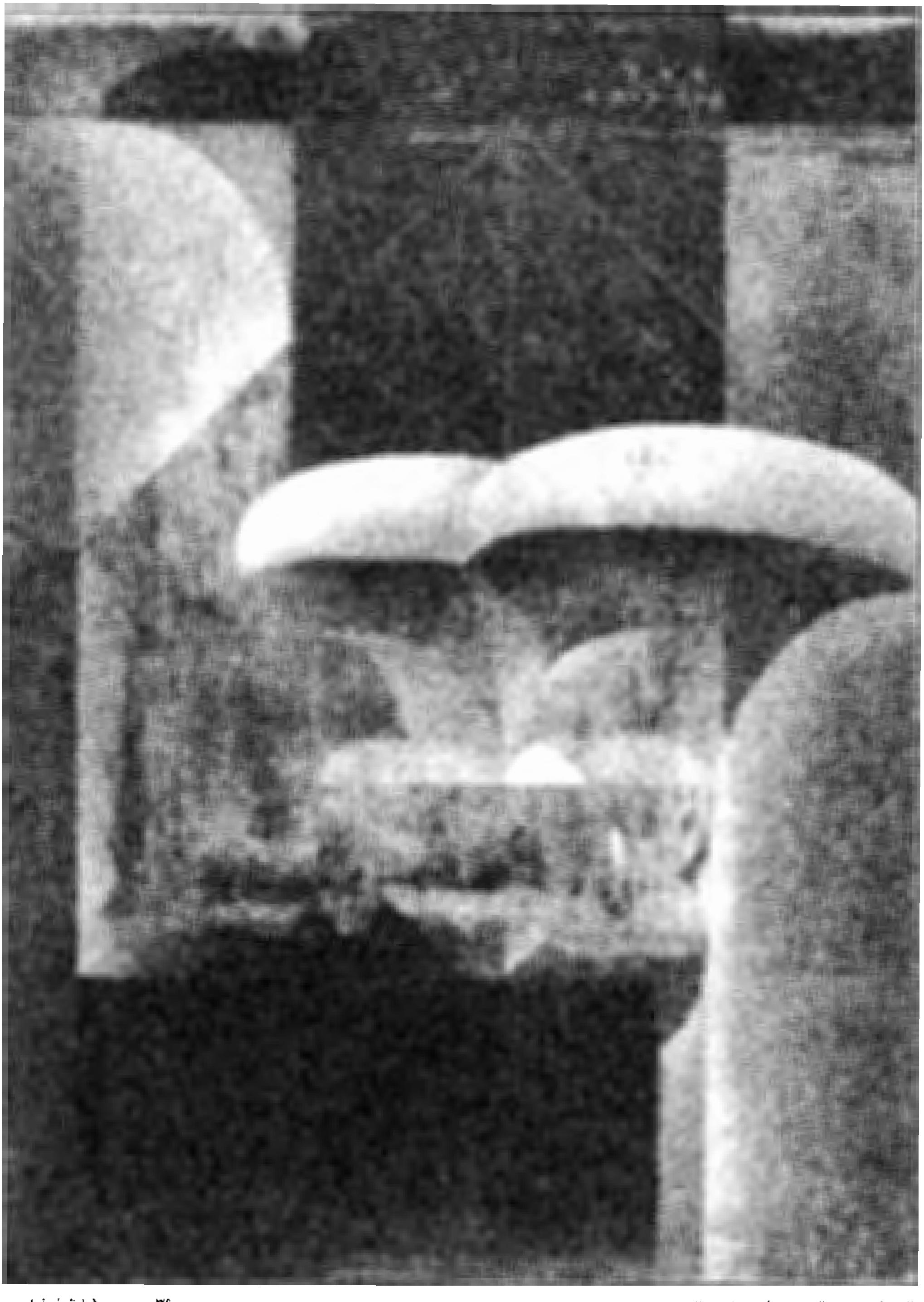
اللوحة.. زيت على قماش ١٠٠ × ١٠٠ سم ١٩٨٠

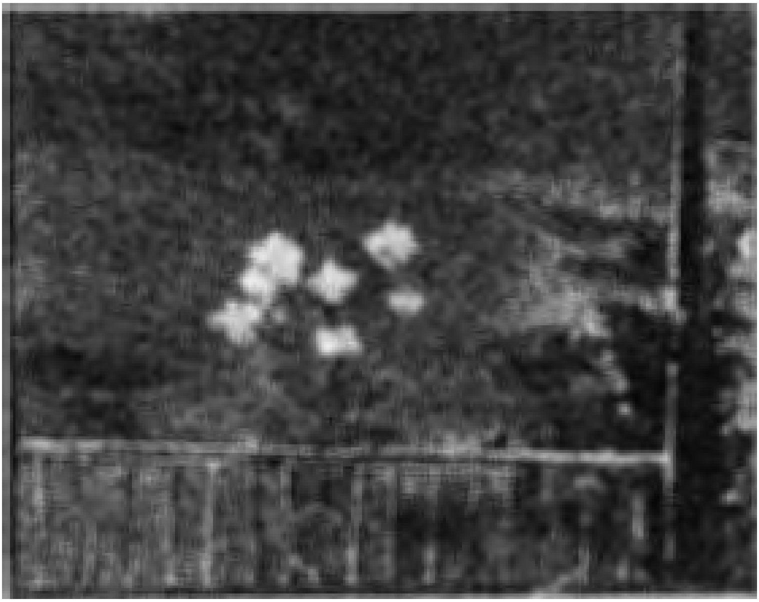
[illegible]

[illegible]

تكوين من معبد فيلة ١٢٢ × ١٥٥ سم. زيت على خشب ١٩٧٨م

[illegible]

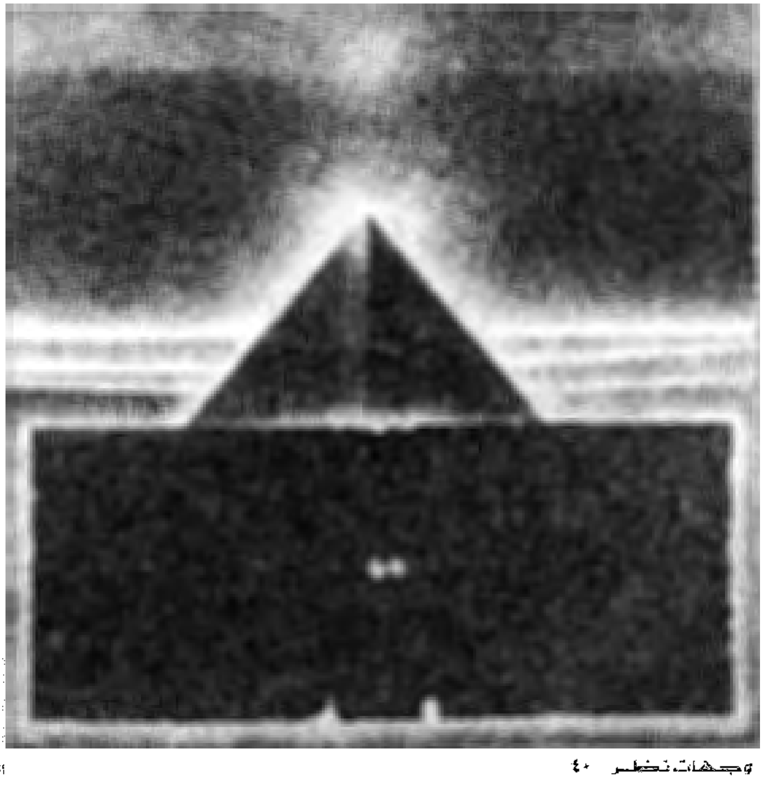




زيت على خشب ٣٠ × ٤٠ سم

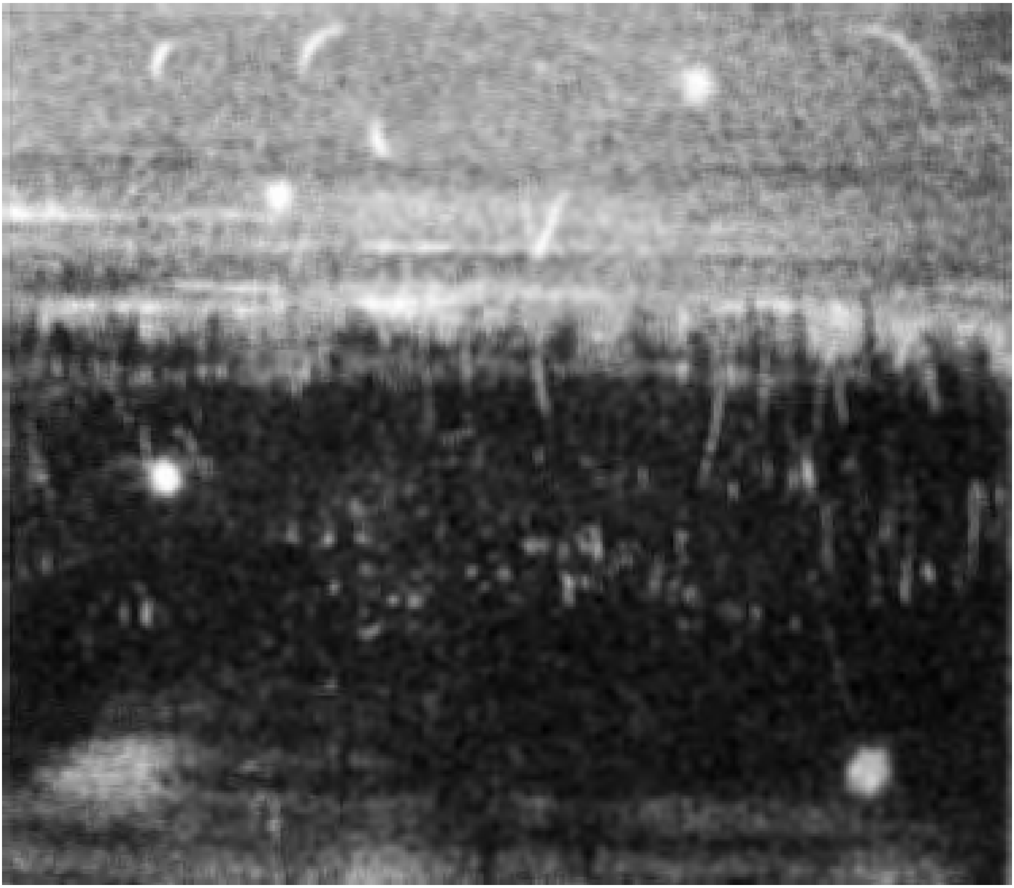
منظر بسيط لسطح زاهية الجو ... وفي زاوية مضيئة بها سهام وقرابة وجعلت اللوحة كوسائد كلاسيكية وجاذبة تنسيق العناصر والألوان في آلة متوحدة من غرابة في اللون أعلى اللوحة مثل زاهية ... وهو مسقط ترتيب من الألوان ... بتكشيف متماس يتدفق ... من اللون الذهبي.

[illegible]



زيت على خشب ١٥٥سم × ١٥٥ سم

عمل بنائي يجمع بين حروف عربية مكتوبة بشكل الهرم وبأشكال هائلة مضيئة فالهرم موجود في مكان لا نطلق بالعربية وما زالت ليه أسراره التي تستعصي علينا. وفي الجزء السفلي أحرف عربية كالطلاسم أو التعويذة في غموض يحاكي غموض الهرم بينما الهالة النورانية الضوئية يتشابك حتى أعلى الهرم في شكل إضاءة من السماء لكوكب مجهول، ليس بالشمس وليس بالقمر، إنه تكوين رمزي يوحي بوجود النور فيه نابعا من العمل وليس ساقطا عليه من مصدر.



(منظر) أكريليك على قماش.. ٢٠٠ × ١٨٠ سم.

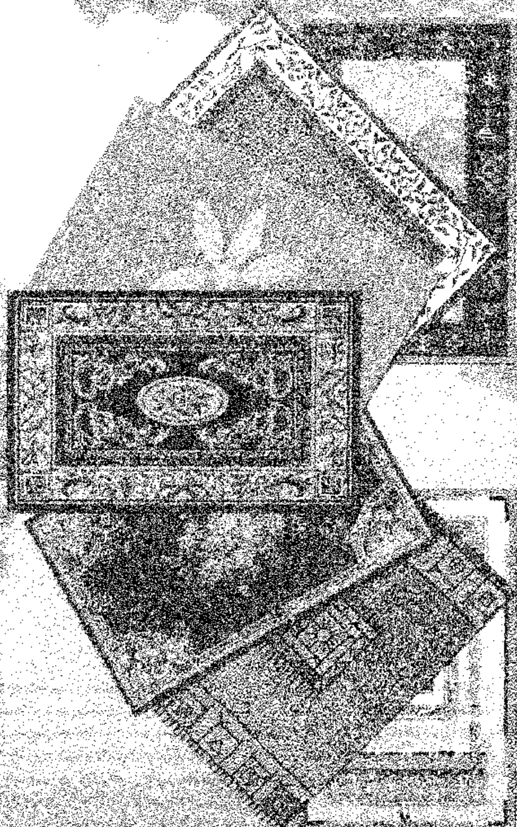
[illegible] في واقع الفنانة [illegible] أساسي لكل [illegible] وهناك مقاربات للتشكيل عبر الصحراء [illegible] التي تمتد حول الأرض وحول الشمس [illegible] الروحي [illegible] الأسلوب [illegible] مع حركة الكون [illegible] العمل [illegible] خلال الشكل [illegible] الجميل [illegible] التناغم الروحي بين الأشياء في الصحراء [illegible] هذا العمل لا بد من [illegible] هنالك القمر، وأهلة [illegible] مساحات اللوحة [illegible] التجريد [illegible] الأشياء في [illegible] الألوان [illegible] الأسود [illegible] [illegible] الإيحاء [illegible] [illegible] [illegible] المكان.



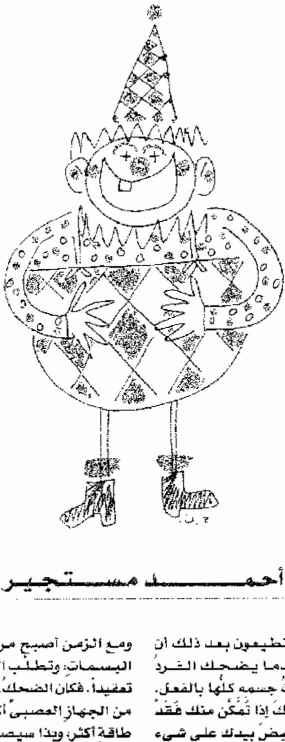
وجه ١٨ × ٢٤سم
زيت على ورق ١٩٦٧م

رسم هذا الوجه بعد [illegible] وهو لا يزال [illegible] [illegible] التجريدية [illegible] [illegible] ويمكن القول أن الحزن [illegible] في الوجه [illegible] في اللون والتعبير.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
متواجد فى مراكز بيع بواقى



علم اسمه الضحك



أحمد مستجير

■■ أمن الممكن حقاً أن تتخيل عالمنا هذا وقد خلا من الضحكة والبسمة؟ أن تتخيل عالماً لا تشهد فيه على وجوه الناس سوى علامات الحزن والقلق والخوف؟ عالماً لا تسمع فيه غير آهات تتردد؟ أيمكنك أن تعيش في عالم كهذا؟ إننا في داخلنا الأعمق نحب الضحكة والبسمة. الضحك جميل، ونحن نحب من يجعلنا نضحك. كلنا يسعى إلى عالم كوجه حبيبة الشاعر أبي القاسم الشابي:

كالسماء الضحوك كالليلة ال
قمراء، كالورد، كابتسام الوليد

نولد جميعاً ولدينا القدرة على الضحك. إنه لغة عالمية لا نحتاج أن نتعلمها. كل الناس تضحك. كل الشعوب. الضحك جزء من السلوك البشري في كل مكان بالعالم. يضحك الفرد منا في المتوسط ١٧ مرة كل يوم. إننا نضحك أكثر مما نأكل أو نغني أو نحب. كلنا يفهم لغة الضحك دون تدريب. الضحك هو أقصر المسافات بين اثنين. إذا رأيت شخصاً يضحك، شاركته الضحك، حتى دون أن تعرف السبب. ترد عليه بضحكة. لا يهم من أي جنسية هو، ولا أي لغة يتحدث. الضحك كالبكاء. تمارسه حتى وأنت رضيع عمرك ثلاثة أشهر ونصف أو أربعة، إذ تبتسم لأمك عندما تراها وتحس بالحنان يغمرك. الطفل يضحك قبل أن يتعلم الكلام. نشأ الضحك بلا شك قبل الكلام. وبسمة الطفل لأمه لا تأتي فقط محاكاة لبسمتها. الرضيع الذي يولد أعمى أو أصم أو أبكم يمكنه أن يبتسم. البسمة جزء من العتاد البشري يورث. الضحك سلوك مبرمج، برمجته جيناتنا.

الحياة في جوهرها المكنون ضحكة. هي نصيبنا من الحياة. تكمن هناك في ربتة على كتف غريب، في وجه طفلة تلعب، في عيني طفل يحبك، في انبلاج فجر، في صوت يمامة، في موسيقى تسبح، في رائحة ياسمينة، في أصداء عطر حبيبتك تنشقه قبل أن تراها. في زهرة تتمايل على غصن، في عنقود عنب يتدلى من تعريشة، في حقل قمح ترقص سنابله، في نسيم رقيق يداعب موجة، في قوس قزح، في مطر ينهمر وينشر الخير، بل وحتى في تأوه عاشق.

لماذا نضحك؟

يقول الفيلسوف الأمريكي جون موريل J. Morreall إن الضحكة البشرية الأولى ربما تكون قد صدرت تعبيراً عن الارتياح لزوال خطر ما. يسمع الآخرون الضحكة فيحسون بالأمان ويطمئنون، ويضحكون. يستطيعون بعد ذلك أن يسترخوا. عندما يضحك الفرد تسترخي عضلات جسمه كلها بالفعل. (والحق أن الضحك إذا تمكن منك فقد تضطر إلى أن تقبض بيدك على شيء ما حتى لا تسقط على الأرض!). إن الاسترخاء يبطئ من استجابة «اضرب أو اهرب». بالضحك ستثق في من حولك. إنه إشارة ثقة في رفاقك، وإعلان عن زوال تهديد.

يرى البعض الآخر أن ضحك الإنسان قد تطور كوسيلة لتشكيل العلاقات بين الناس وتوطيدها. كانت البسمة أولاً، تنقل بها إلى الآخر الرغبة في التواصل. ومع الزمن أصبح من السهل تزييف البسمات، وتطلب الأمر إشارة أكثر تعقيداً. فكان الضحك. الضحك يتطلب من الجهاز العصبي أكثر، ويحتاج إلى طاقة أكثر، وبذا سيصعب تزييفه. حل الضحك إذن محل الابتسام كدلالة أمينة على الرغبة في الانخراط في صفوف الجماعة.

لابد أن الضحك قد نشأ لتغيير سلوك الآخرين، شأنه في ذلك شأن غيره من ضروب السلوك البشري. ففي وقت الخطر، قد يخدم الضحك كإيماءة للتهدئة والاسترخاء، كوسيلة لتنحية الغضب بعيداً. إذا اشترك معك في الضحك الشخص الذي يهددك، تلاشى خطر المواجهة. إذا تغير الحديث من الجاد إلى غير الجاد، اختفى التهديد.

لكن هناك فريقاً آخر من العلماء لا يرى في الضحك وسيلة لبناء العلاقات بين الناس، وإنما يرون فيه دليلاً على فعل عدواني في المقام الأول. الضحك يعني لديهم أنك قد كسبت جولة. ضحكك يعني أنك قد انتصرت. كما يقول تشارلس جرونر C.Gruner. هو يرى أن الضحك في الأصل صيحة النصر والسخرية يطلقها المحارب إذا هزم عدوه. الوليد في رأيه يبتسم لا ليرضي والدته، وإنما لأنه قد حصل أو سيحصل منها على ما يريده!

إذا ضحك رئيس العمل، ضحك جميع مرءوسيه. دراسات عديدة تؤكد أن ذوي السلطة، رؤساء العمل أو كبار رجال القبائل، يستخدمون الفكاهة أكثر من مرءوسيهم، ليصبح التحكم في ضحك الجماعة طريقاً لممارسة السلطة. الناس يضحكون أكثر إذا جاءت النكتة من رئيسهم. فإذا ما تزحلق رئيسهم على قشرة موز وسقط ثم وقف سريعاً، وجدوا في ذلك أمراً مضحكاً للغاية. للغاية. هم بشكل ما قد «انتصروا»!!

ما الضحك؟

كنت تجلس مع صديقة لك، وفجأة وجدت أن وجهها قد بدأ يتشنج. عضلات الوجه، والشفتان على وجه الخصوص، تتمدد. في عينيها ظهرت تعبيرات غريبة. أجهزتها الصوتية تصدر تتابعاً من أصوات زفير متواترة. لكن أحداً ممن حولكما لم يعر الأمر اهتماماً، رغم أنها قد أصبحت على حافة الاختناق، وتحاول جاهدة أن تقتنص شهيقاً مفاجئاً. كتفاها تهتزان بعنف وجسدها كله يلتوي ويرتج. ماذا ستفعل؟ هل تستدعي لها الطبيب؟ لا لزوم لذلك. لقد حدث لك أنت هذا كثيراً. ربما كان السبب في كل ما حدث لها جملة قلتها أنت. إن ما حدث يسمى «الضحك»!

قد يبدو هذا الوصف وكأنه وصف لمرض عصبي، ولكن التحليل الفسيولوجي «لأعراض» الضحك يكشف عن تشابه يلفت النظر بينه وبين النوبات العصبية، بل حتى بينه وبين بعض صور الصرع.

الضحك يعدي

في عام ١٩٦٢ حدثت في تنجانيقا واقعة غريبة للغاية. بدأت الحكاية في

قرية كاشاشا الصغيرة المعزولة على الشاطئ الغربي لبحيرة فكتوريا، كنوبة ضحك اجتاحت مجموعة صغيرة من البنات بمدرسة داخلية، أعمارهن تتراوح ما بين ١٢ و١٨ سنة، ثم انتشرت بسرعة في صورة وباء! لا نعرف التفاصيل، لكن الضحك انتقل من فرد إلى فرد ليصيب في نهاية المطاف بعض المجتمعات المجاورة. عم الوباء، حتى لقد تطلب الأمر إغلاق المدارس لمدة ستة أشهر.

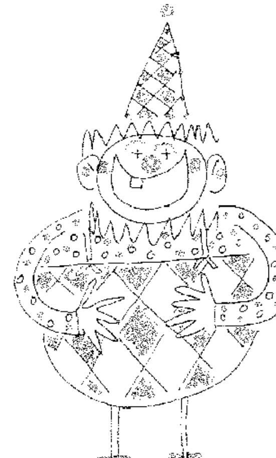
كانت طبيعة الوباء هي ظهور نوبات عَرَضية من الضحك تجتاح الجماعات بالمنطقة على فترات غير منتظمة. كانت الدولة قد استقلت حديثاً عن انجلترا، وشعرت الطالبات والناس جميعاً بضغوط نفسية خوفاً من المستقبل. يرجح بعض العلماء أن هذا هو السبب في انتشار «الوباء».

هذا الوباء يُعتبر مثالاً دراماتيكياً للطبيعة المُعدية للضحك. وهذا أمر نعرفه جميعاً في حياتنا اليومية. إننا نجد النكتة أظرف إذا كان مَن يُلقيها يضحك. ولقد وجد الباحثون بالفعل، كما سنرى، أن من يُلقي النكتة يضحك بالفعل أكثر مما يضحك مستمعوه.

الضحك يُعدي. نعم. إنه يقع تحت أقل تحكم واعٍ، هو تلقائي، ولا يخضع تقريباً لرقابة. الضحك المُعدي صفة مؤكدة يتميز بها جنس الإنسان، هذا الحيوان الثديي الاجتماعي. إنه ينفض عنه رداء الثقافة الخادع، ويتحدى النظرية التي تقول إننا نتحكم تماماً في سلوكنا.

وحقيقة أن الضحك يُعدي، تثير احتمال أن يكون لنا نحن البشر مكشاف سمعي للضحك، دارة عصبية في المخ تستجيب فقط للضحك (التثاؤب المُعدي يتضمن عملية مثيلة في المجال البصري). إذا ما قدح زناد هذا المكشاف نشط مُولّد الضحك، دارة عصبية تتسبب في أن ننخرط في الضحك.

هناك فريق آخر من العلماء لا يرى في الضحك وسيلة لبناء العلاقات بين الناس، وإنما يرون فيه دليلاً على فعل عدواني في المقام الأول. الضحك يعني لديهم أنك قد كسبت جولة



قصيرة من طبقة صوت أعلى من أن نسمعها نحن بآذاننا. في تجربة أجريت عام ٢٠٠٠ اتضح أنها تستجيب للدغدغة (للزغزغة) (في البطن والضلوع) بعضة مزاح أو بسقسقة فوق سمعنا. وكانت الأفراد التي تصدر أعلى سقسقة هي الأكثر حرصاً على أن تُدغدَغ. أما النتيجة الأكثر إثارة فكانت أن تزاوج الأفراد التي تحب الدغدغة قد أنتج بعد أربعة أجيال من التربية نسلاً يُسقسق ضعف عدد مرات سقسقة أجداده!

فإذا نظرنا إلى الرئيسات primates الأقرب إلينا فسنتأكد أن الضحك ليس أمراً يخصنا وحدنا. وليس في هذا ما يُستغرب. ألسنا نوعاً اجتماعياً كغيرنا من الرئيسات الاجتماعية؟ لماذا يكون الضحك حكراً علينا؟ داروين (سنة ١٨٧٢) أشار في كتابه «التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوان» إلى أن الكثير من أنواع القردة يصدر عند السرور أصواتاً متكررة تشبه في وضوح ضحكنا». والواقع أن القردة العليا كالشمبانزي تقوم بما يشبه ضحكنا إذ تصدر الصوت اللاهث «ها آه» صوتاً يشبه صوت منشار ينشر خشباً! وهي تفتح الفم واسعاً، وتكشف عن أسنانها، وتسحب زوايا الشفاه، عندما تلعب مع بعضها أو مع إنسان، أو عندما تُدغدَغ. لكن الشمبانزي لا يستطيع أكثر من صوت واحد في كل نفس، وهو صوت يختلف عن «ها.. ها» في ضحكنا نحن.

بل ولقد نجد الضحك حتى بين الثدييات الأدنى من الرئيسات. الكلاب عندما تلعب تُصدر أصواتاً غريبة عند الزغير تختلف عن الأصوات التي تُصدرها عندما تخاف أو عندما تهاجمك.

على أن الواجب أن نتوخى الحرص عند تفسيرنا للهاث الحيوانات لما تلعب. من الجميل أن نتصور أن هذا يناظر الضحك، لكن الأمر قد يكون شيئاً آخر له وظيفة أخرى.

الضحك جزء من طبيعتنا البشرية

الواضح أن الضحك جزء من حياتنا نشط فعّال. هو جزء من السلوك الوطيد لجنس البشر. هو بعض من «الطبيعة البشرية»، هو من أكثر الأشياء شيوعاً في حياتنا. إذا فقدنا القدرة على الضحك، فقدنا كل شيء. أدرك أهميته من قديم الزمان علماء وفلاسفة: أرسطو، كانط، داروين، بيرجسون، فرويد. لكننا لا نزال نجهل عنه الكثير على الرغم من تفهمنا لأهميته، ومن تأكدنا من أنه مفيد لنا. «هناك ثلاثة أشياء حقيقية: الله، وحماقة البشر، والضحك. الأول والثاني أبعد من إدراكنا. علينا إذن أن نفعل ما نستطيعه مع الثالث». كذا قال جون كيندي. ما هي الخصائص الفيزيقية للضحك؟ ما هي القواعد التي تحكم التعبير عنه؟ هل هناك نظير له لدى الأنواع الحيوانية الأخرى؟ علماء الإيثولوجيا ethology (علم سلوك الحيوان) يعتبرون ضروب السلوك الحيواني صفات تكيفية. سلوك «الضحك» في الحيوانات الأخرى له عندهم أساس وراثي وفسيولوجي. فهل الأمر كذلك لدينا نحن البشر؟ لكن: هل تضحك الحيوانات؟

هل تضحك الحيوانات؟

لا يَتفرّد الإنسان بالضحك. نحن لا نحتكر الضحك. الضحك شائع بين معظم الحيوانات. حتى جرذ المعمل يضحك، وليس لديه الكثير مما يُضحك! لاحظ أحد العلماء أن الجرذان تبدو خائفة قلقة إذا كانت منفردة في مكان مفتوح، فإذا عادت إلى القفص مع غيرها من الجرذان بدت بالفعل سعيدة، بدت وهي تلعب مع أقرانها وكأنها «تضحك»! لاحظ العالم أن صغار الجرذان تُصدر أثناء اللعب تعبيرات صوتية

الـدغـدغـة

يحدث الضحك عندما يلتقي اثنان أو أكثر في لقاء غير رسمي، أو عندما يُدغدغ (يُزغزغ) آخر قدمك. أنت لا تستطيع أن تُدغدغ نفسك وتضحك، لكنك تضحك إذا دغدغك آخر. جرّب! هذه حقيقة دوّخت علماء الأعصاب عقوداً طويلة. إن دراسة الدغدغة ستوضح الطريقة التي يتمكن بها المخ من أن يصفي الإحساسات الكثيرة التي تلتقطها

هناك ثلاثة أشياء حقيقية:
الله، وحماقة البشر، والضحك.
الأول والثانى أبعد من إدراكنا. علينا إذن أن نفعل
ما نستطيعه مع الثالث.
كذا قال جون كينيدى

حواسنا. شحذ مخنا بطريقة تجعلنا نتجاهل التافه والمألوف لنلتفت إلى الهام. إذا كنت تمشى حافياً فستتجاهل ما تتوقعه من ضغط على باطن قدمك. أنت تتوقعه ومن ثم لا تنتبه إليه وتتجاهله، حتى أن يعثر إصبع قدمك فى حجر، فتنتبه. يصل المخ من الأحاسيس والأصوات والشعور الكثير والكثير مما لا يستطيع استيعابه كاملاً، وسيكون عليه أن يفرز ما يهم وأن يتغاضى عن المألوف والمتوقع. يسمع عصف الريح يدوى حتى يألفه فينساه، ولكنه ينتبه إذا جاء مع صوت الريح بكاء طفل يطلب العون. يمشى فى الغابة والجو حوله يعبق بالروائح، لكنه يلتقط ويميز رائحة ثمرة نضجت فوق غصن شجرة.

الدغدغة إذا أجريت فى الموقع الصحيح من الجسم تختزلك إلى «هلام». مخك يتوقع ذلك إذا حركت يدك وأرسلتها تداعب قدمك مثلاً. إذا دغدغ الشخص نفسه فإن جهازاً للإحساس موجوداً بالمخيخ فى مؤخرة الرأس يعطل البهجة والضحك (المخيخ هو الجزء من المخ المسئول عن مراقبة الحركة)، إذ يرسل إشارة تثبط المنطقة من المخ التى تحس بالدغدغة (منطقة اسمها القشرة الجسدية الحسية).

الضحكة ليست كلمة تُقال

عكف روبرت بروفاين R.R. Provine وثلاثة من طلبته على دراسة السلوك اليومى للبشر إذ يضحكون. تجولوا فى أماكن تجمع الناس وأخذوا يتنصتون عليهم وهم يضحكون: فى المتاجر، فى فصول الدراسة، فى الشوارع والطرقات، فى المكاتب، فى الحفلات. جمعوا مادة وفيرة من البيانات لدراسة الضحك كتعبير اجتماعى: ١٢٠٠ حالة ضحك وقعت طبيعياً. إذا سمعوا ضحكاً رصدوا جنس المتحدث (من يتحدث قبل بداية الضحك)، ورصدوا من يستمع، وما إذا كان المتحدث يضحك أو من يستمع إليه، وماذا قال المتحدث قبل الضحك.

كان الهدف الأول هو وصف التركيب الصوتى للضحك فى البشر. اتضح أن هذا أمر بالغ الصعوبة، إذ يختفى الضحك ما أن تحاول ملاحظته، لاسيما فى المعمل. من بين الطرق التى جربت: أن يُطلب من الناس أن يضحكوا. هذا الطلب ذاته كثيراً ما يستجيب له الناس بالانفجار فى الضحك. لكن نحو النصف منهم كانوا يقولون إنهم لا يستطيعون أن يضحكوا «بالأمر». الواقع أن تحكمنا المتعمد فى الضحك يقل بالفعل كثيراً عن تحكمنا فى الكلام. يمكنك بسهولة أن تقول «ها... ها... ها»، لكن يصعب أن تطلق الضحكة الحقيقية بالأمر. إن الضحكة ليست «كلمة» تقال. إن هذا يقترح أننا لا نستطيع عامدين أن ننشط آليات الضحك بالمخ. إن المزاح، والوجود فى وسط لمة، والنغمة العاطفية، تسم الوضع الاجتماعى لمعظم الضحكات.

أخذت تسجيلات الضحك إلى معمل الصوت لتحلل بالمطياف الرسام spectrograph، وهذه آلة تترجم الصوت إلى رسوم تكشف ما يحدث من تغير فى تردد الصوت وحدته.

أوضح طيف الصوت البصمة المميزة للضحك. الضحك سلسلة من نغمات قصيرة، طول كل منها نحو ٧٥ مللى ثانية، تتكرر على فترات منتظمة يفصل بينها ٢١٠ مللى ثانية. تستخدم نغمات أية ضحكة - نمطياً - أصوات حروف لينة محددة متشابهة، فقد تكون الضحكة (ها . ها . ها) أو (هو . هو . هو) أو (هى . هى . هى . .). ولكنها أبداً لا تكون (ها . هو . ها . هو). هناك صعوبات حقيقية فى إصدار مثل هذه الضحكة. حاول أن تجربها وستحس بأنها غير طبيعية. فإذا مزجت النغمات، فسيكون المزج فى النغمة الأولى أو الأخيرة. يمكنك مثلاً أن تضحك (تشا . ها . ها) أو (ها . ها . هو).

ثمة تركيب إيقاعى (هارمونى) واضح للانفجار ضحكاً. يتألف كل إيقاع من تكرر لتردد رئيسى منخفض. يظهر التركيب الهارمونى على مطياف الصوت فى صورة حزم متتابعة من خطوط أفقية قصيرة، تكون منها الحزمة الأدنى هى التردد الأساسى. فإذا عرفنا أن للنساء طبقة صوت عالية، فلن نستغرب أن يكون لضحك النساء تردداً أساسياً أعلى من ضحك الرجال (٥٠٢ هيرتز مقابل ٢٧٦ هيرتز). وأياً كان نوع الضحكة، مسترسلة مرتفعة تهز البطن، أو محبوسة عالية الطبقة، فإن كل ضحك البشر تنويع على هذه الصورة الأساسية. هذا التركيب الإيقاعى هو الذى يجعلنا ندرك أن ما نسمعه ضحك رغم الفروق فيه بين الأفراد، فلكل فرد منا بصمة لضحكه تميزه!

إن محدودية جهازنا الصوتى هى السبب فى التركيب المقولب للضحكة. من الصعب أن تضحك فى نغمات طويلة جداً، مثل (هااااه، هااااه، هااااه) أو فى نغمات قصيرة جداً (أقل من ٧٥ مللى ثانية). وبنفس الشكل لن تجد نغمات طبيعية تفصلها فترات بينية أطول كثيراً من الطبيعى. حاول أن تضحك ضحكة تتخللها بين النغمات فترات زمنية طويلة (ها .... ها .... ها) وستجد صعوبة بالغة. للضحك طرق محدودة.

وبساطة تركيب الضحكة تقترح أيضاً إمكانية أن نعكسها. إذا أخذنا مقطعاً قصيراً من الضحك (ها . ها . ها) مسجلاً على شريط، ثم استمعنا إليه معكوساً، فسيعطى تقريباً نفس الصوت (ها . ها . ها). والحق أن طيف صوت الضحكة متشابه سواء رصدناه من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. لنغمة الضحكة درجة عالية من السيمترية الزمنية. على أن هناك ناحية من الضحكة ليست سيمترية. تلك هى ارتفاعها. يتميز الضحك بالتخافت decressendo، أى تكون فيه النغمة الأخيرة فى تتابع النغمات، عادة، أقل اتساعاً.

السلوك الاجتماعى واللغوى للضحك

لكل ما يفعله البشر وظيفة، والضحك ليس استثناء. للضحك بالتأكيد دلالة اجتماعية، فهو ليس تعبيراً فردياً عن العواطف. أنت تضحك فى صحبة الآخرين ثلاثين ضعف ضحكك وأنت منفرد (إذا لم يكن حولك تلفزيون أو راديو أو مطبوعات). إذا كنت وحدك منفرداً، فالأغلب أن تبتسم أو تكلم نفسك، لا أن تضحك. مهما كانت درجة سعادتنا فإن الضحكة فى الأصل هى إشارة نرسلها للآخرين، وتكاد تختفى إذا لم يكن ثمة من يسمع. حتى الغاز الضحاك (أكسيد النيتروز) يفقد الكثير من قدرته على الإضحاك إذا كنت منفرداً. مع الآخرين أنت تضحك عندما تستريح إليهم ويستريحون إليك، عندما تحس بأنك تقترب منهم وبأنك لا تريد أن تنعزل بعيداً عنهم: عندما تحس بأنك واحد منهم. وعندما تضحك فإنك تحب أن تتكلم أكثر، وأن تنظر فى عين من تحدثه أكثر، وأن تفعل ما من شأنه أن يزيد ما يربطك به. الضحك إشارة إلى ثقتك فى من حولك. الضحك طقس من طقوس استرضاء الآخرين.

اتضح أن الضحك معظمه لا يأتى استجابة لمحاولات هدفها الإضحاك، كإلقاء النكت أو القصص الهزلية. جاءت نسبة الضحك الناتج عن مثل هذه المحاولات أقل من ٢٠٪ من مجموع الضحكات. ظهر أن معظم الضحك يأتى عن ملاحظات عادية، مثل «انظر، ها قد جاء فلان» أو «هل أنت متأكد؟» أو «سعيد أنا جداً بلقائك». لم يكن ما يسبب عاصفة من الضحك بالضرورة نكاتاً زاعقة وأشياء مضحكة أو بلهاء، وإنما شيئاً مثل: «لا يلزم أن تأكل معنا، يكفى أن تدفع فاتورة الطعام!». الأمر الذى يقترح أن المنبه الحاسم للضحك ليس هو النكتة، وإنما الشخص الآخر: هناك من يقول الشئ المضحك، وهناك من يقول الشئ مضحكاً!

من بين الملامح الأساسية للضحك موقعه من الحديث. الضحك لا يتناثر عشوائياً فى الحديث. يندر أن يقطع المتحدث أو المستمع تركيب الجملة بالضحك. فى عينة الـ ١٢٠٠ ضحكة التى رصدها بروفاين وطلبته، لم يجدوا إلا ٨ مقاطعات كهذه، وكانت جميعاً من المتحدث. أنت تقول: «إلى أين تمضى؟... ها . ها»، ولكنك لا تقول: «إلى أين... ها . ها... تمضى؟». إنما نضحك عند التوقف بعد نهاية الجملة، الأمر الذى يقترح

للضحك بالتأكيد دلالة اجتماعية، فهو ليس تعبيراً فردياً عن العواطف. أنت تضحك في صحبة الآخرين ثلاثين ضعف ضحكك وأنت منفرد

عمليةً قد تكون أعصابية تَحكُمُ موقعَ الضحك فى الحديث، عمليةً يكون فيها للكلام الأولويةُ فى السبيل الوحيد الذى تملكه لإصدار الصوت. الحديث يكسب. يكبح الضحك. هذه العلاقةُ المتينةُ بين الكلام والضحك تشبه الترقيم فى الكتابة، وتسمى «ظاهرة الترقيم» punctuation effect. أنت تَكتُبُ أولاً، ثم تُرقِّم.

اتضح أيضاً أن المتحدثَ يضحك أكثر من مستمعيه بنسبة تبلغ فى المتوسط نحو ٤٦٪، الأمر الذى يعنى أهمية ألاّ تقتصر الدراساتُ عن الضحك على سلوك المستمعين وحدهم.

النساء يَضحَكْنَ أكثر

جنسُ المسئول عن الضحك يلعبُ دوراً كبيراً فى تحديد قدرِ ضحك المتحدث. وأيا كان جنسُ المتحدث أو المستمع فإن المرأةَ تضحك أكثر من الرجل، وتبتسم أكثر مما تضحك. ثمة تنوعٌ كبير فى أصوات الضحك، فقد يُعبَّر عنه بشكل مسموع: قهقهة أو ضحكة خافتة، وقد يكون الضحكُ صامتاً، كالهمهمة. لكن انفجارات الضحك المسموعةَ تتكرر من النساء أكثر مما تتكرر من الرجال. المتحدثاتُ من النساء يَضحَكْنَ ١٢٧٪ أكثر ممّن يستمعُ إليهن من الرجال. فإذا كان المتحدثُ رجلاً فإنه لا يضحك أكثر من مستمعاته إلاّ بمقدار ٧٪ فقط. ثم إن جمهور المستمعين، رجالا ونساء، يضحك أكثر إذا كان المتحدث رجلاً لا امرأة.

هل يدخُلُ الضحكُ عاملاً فى التلاقى والتوافق بين الجنسين؟ بحث بروفاين عن الإجابة بدراسة الإعلانات الشخصيةِ بالجرائد. فحص ٣٧٤٥ إعلانا شخصياً ظهرت يوم ٢٨ أبريل ١٩٩٦ فى ثمانى جرائد. اتضح أن النساء يؤكدن على «الضحك» فى إعلاناتهن بقدر يزيد ٦٢٪ عن تأكيد الرجال عليه. إنهن يتذوقن الفكاهةَ أكثرَ من الرجال، وحسّ الفكاهة لديهن أقوى. الرجلُ، فى كل الثقافات «يؤدى الفكاهةَ ويحرّض» على الضحك، والمرأةُ تستمتع بالفكاهة أكثر. النساء يبحثن عمّن يُضحكهن من الرجال، والرجالُ يتلهفون كى يقدموا لهن الفكاهة! إن وجود الكوميديانات أمر ليس سهلاً. نغمةُ الضحك بين رجل وامرأة تشير إلى مدى اهتمام كل منهما بالآخر، لكن ضحكَ المرأة لا الرجل هو الدليل الحاسمُ على العلاقة الصحية بينهما. ثمة إختلافاتٌ مؤكدة فى الضحك بين الثقافات. لكن الضحك الصاخب والتعبيرات والحركات المبالغ فيها عند الضحك تُعتبر فى معظم الثقافات أموراً «غير أنثوية»، بينما نجدها أكثر شيوعاً فى الرجال.

على أنه من الضرورى هنا أن نقول إن طريقةَ الضحك «مرنة»، وتتحول فى اللاوعى مع الظروف الاجتماعية. فعلى سبيل المثال تقل قهقهةُ الأنثى، والذكر، مع الارتقاء على السلم الوظيفى. هل رأيت عمرك مديراً أو وزيراً يقهقه مع موظفيه؟

يمكننا أن نَصلَ إلى تبصرات فى الوظيفة الاجتماعية للضحك بدراسته فى جماعات تختلف فى المكانة الاجتماعية والجنس. إن استجابة المستمعين بالضحك توضح أثر الرسالة فيهم: الضحك «المؤدب» قد يكون محاولة مفتعلة من المستمعين تعلن اتفاقهم مع المتحدث. وهى تعكس الاستجابة بدعاء ما خطة. ولقد يلطُف المتحدث ملاحظة له عدوانية بضحكة، أو قد يقدم ملاحظته باستخدام هجين ما بين الضحك والكلام.

الضحكُ المُعلَّب

اكتشف التلفزيون قوة الضحك فى استثارة الضحك: الضحك فى حد ذاته، دون ما نكتة أو تعليق، يمكن أن يستثير الضحكَ. الضحك كما ذكرنا يُعدى. على فصل يضم ١٢٨ طالباً قام بروفاين باستخدام «صندوق ضحك» لدراسة هذا الضحك المعدى. الصندوق عبارة عن جهاز تسجيل ذى بطارية يصدر عند تشغيله دفقةً من الضحك تستمر ١٨ ثانية. شغّل هذا الضحكَ المُعلَّبَ عشر مرات، بينَ كلِّ مرةٍ والتالية لها دقيقةٌ واحدة. فى المرة الأولى استجاب نصف الطلبة بالضحك ونحو ٩٠٪ منهم بالابتسام. لكن الأثر أخذ يتضاءل مع كل تكرار، حتى وصل عدد من يضحك فى المرة العاشرة إلى ٣ فقط. رأى الطلبةُ عندئذ أن ما يسمعونه من الضحك قد أصبح أمراً بغيضاً. النكتةُ إذا سمعتَها كثيراً تصبح «بايخة»!

ما الذى فى النكتة يُضحِكُنا؟

الفكاهة تقدح زناد الضحك. وهناك نظرياتٌ تفسر ما يضحكنا فى النكتة. تقول نظرية «التناقض» إن الفكاهة تكون عندما نستبدل بالمنطق وبالمألوف أشياء أخرى لا تتوافق مع بعضها. يقول توماس فيتش T. Veatch إن النكتة تصبح ظريفة عندما تتوقع شيئاً ويحدث غيره. تبدأ النكتة، فتتوقع ما تتوقعه بالمنطق وبالحاجة وبخبرتك السابقة وبأعمال ذهنك. وإذ بكل هذا يتحول فجأةً إلى عواطف وفكرٍ آخر. هذا التناقض هو ما يسبب الضحك. أنت تسمع صديقك يقول: «من يضحك أخيراً ....» فتتوقع من خبرتك السابقة أن بقية الجملة ستكون ..... «يضحك كثيراً»، ولكنك تفاجأ به يقول .... «إنسان بطىء التفكير»، فتضحك كثيراً!

ثمة نظرية أخرى، هى نظرية «الاستعلاء»، تقول إننا نضحك على النكتة إذا ركّزتْ على أخطاء شخص آخر أو غبائه أو محنته. هنا نشعر بأننا أفضلُ منه، فنضحك.

وهناك أيضا نظرية تقول إننا نضحك إذا وَجدنا ما يشرح عن توتر يجتاحنا.

دارةُ الضحك فى المخ

فى صباح أحد أيام الشتاء عام ١٩٣١، وفى إحدى جبانات لندن، كان ويلى أندرسون يحنى رأسه فى خشوع وهو يرقُب نعش أمه يهبطُ إلى القبر. وفجأة، ولدهشة الجميع ورعبهم، إذا به يضحك. حاول فى البداية أن يكتم الضحك، فأخفى فمه بيده، لكنه لم يستطع. ارتفع صوت ضحكه. فترك المكانَ على عجل. وبعد بضع ساعات كان لا يزال عاجزاً عن التحكم فى الضحك، فأخذته عائلته إلى المستشفى. فحص الطبيب عينيه، فلم يجد ثمةَ ما هو خطأ، لكنه رأى ضرورةَ أن يبقى ويلى تحت المراقبة فى المستشفى. وبعد يومين مات الرجل. فُحصت جثته بعد الوفاة، واتضح أن ورماً فى شريان بقاع المخ قد انفجر، ليضغط على غدة الهيبوثالامس وأنسجة أخرى قريبة منها. أثمة عضو للفكاهة؟ أثمة دارة للضحك؟

كان أحدُ الباحثين بجامعة كاليفورنيا يدرس مخ فتاة تبلغ من العمر ١٦ عاماً مصابة بالصرع. فلاحظ شيئاً غريباً: كلّما لطأ بصدمة كهربائية الفص الأيمن الجبهى من المخ، فى منطقة منه بالذات، لا تتعدى مساحتها بوصة مربعة، بدأت الفتاةُ فى الضحك. فإذا سألها عن السبب فى ضحكها، عزت السبب إلى أى شىء تجده حولها: «زملاؤك دعهم خفيف وهم يقفون حولى هكذا»، أو «صورة هذا الحصان على الحائط تثير الضحك». التيار الكهربائى الضعيف يجعلها تبتسم، ومع زيادة قوة التيار تزداد الفتاة مرحاً، حتى أن تنفجر فى ضحك هستيرى معد. علماً أنّ نَبه مناطق أخرى من المخ بالكهرباء، لم تظهر نتائج مماثلة. أثمة عضو للضحك؟ قال الباحث إنه قد وقع على إحدى المناطق بشبكة معقدة للغاية: كانت منطقةً قريبة جداً من مناطق لها علاقة بوظيفة الكلام، ومنطقتا الكلام والضحك قريبتان جداً من بعضهما بعضاً.

هناك تقنياتٌ حديثةٌ متقدمةٌ لتصوير المخ وهو يعمل، وقد ساعدت هذه كثيراً فى معرفة مناطق المخ المرتبطة بالعواطف المختلفة، الطبيعى منها وغير الطبيعى. لدارة الضحك مكوناتٌ عاطفيةٌ وحركيةٌ ومعرفيةٌ، ولكلُّ مكوّنٍ جزء فى مكانٍ ما من المخ يتحكم فيه. إن حس الفكاهة الحقيقى يتضمن أكثر من مجرد قابلية البطن وباطن القدم أو الإبط للدغدغة. النكات منها النوعُ اللفظى

(التلاعب بالألفاظ)، ومنها الدلالي (المختص بمعنى الألفاظ)، ومنها غير اللفظي (كالكارتون). يعتمد كل نوع من النكات على سلسلة من القدرات الذهنية، كل منها يقع في منطقة مختلفة من المخ، ويبدو أنها تحفز بعضها بعضاً. أجريت القياسات على المخ أثناء استجابة الأفراد لمادة فكاهية. هنا شوهد نشاط الموجات المخية وهي تنتشر إلى الفص الجبهي من منطقة الفص القذالي، وهذه منطقة بمؤخر المخ تعالج الإشارات البصرية. يبدو أن للفص الجبهي دوراً في إدراك أن الشيء ظريف. الجانب الأيسر من هذا الفص الجبهي يحلل كلمات النكتة وبنيتها، بينما يقوم الجانب الأيمن بالتحليلات العقلانية اللازمة لتفهم النكتة وتقديرها، لينتشر النشاط إلى المناطق الحركية من المخ التي تتحكم في الوظيفة الجسدية للضحك. يمكننا أن نعرف هذه المسالك المعقدة بدراسة الأمراض العصبية والإصابات: أورام المخ، أو السكتة الدماغية، أو مرض باركنسون، التي يتميز حاملوها بما يسمى «الوجه المتحجر»، لأنهم لا يستطيعون الضحك.

الضحك خير دواء

إن فوائد الضحك أكثر من أن نتجاهلها. هناك من يعتقد أن السبب في أن يبني الإغريق مستشفيات قرب المسارح هو الاستفادة من الخصائص العلاجية للضحك. يمكنك أن تغير حياتك إلى الأفضل إذ تعلمت أن تضحك أكثر، وألا تأخذ الحياة بكل هذه الجدية. «لأنك أبداً لن تخرج منها حياً». كما يقولون. إن الحس الفكاهي يمكن أن يضيف لسة إنسانية إلى حياتك وعملك. إننا لا نضحك لأننا سعداء، إنما نسعد لأننا نضحك. الضحك يغير إحساسك بذاتك، بكيانك، بعائلتك، بأصدقائك، بالعالم كله. إن تذوق الفكاهة يتضمن القدرة على اكتشافها حتى في المواقف الحرجة والمتوترة، بل وفي المواقف التراجيدية، كما يتضمن القدرة على اكتشاف الظرفاء. من يستطيع أن يكشف النواحي المضحكة في المواقف الصعبة عادة ما يكون أقل عرضة للاكتئاب والغضب والتوتر. الضحك، مثل البكاء، يقلل الاحباط ويسمح بتفريغ العواطف المكبوتة. ثبت علمياً أن الضحك يعمل كصمام أمان إذ يقلل من هرمونات الإجهاد. عندما نضحك تزداد مناعة الجسم بزيادة إفراز بروتين جاما إنترفيرون (لمقاومة الأمراض) وخلايا ت cells T وخلايا ب cells B (خلايا الدفاع ضد الأمراض)، كما يرتفع الأكسجين في الدم، وتتحسن الدورة الدموية، ويزداد تركيز جلوبيولين المناعة أ في اللعاب (ويعمل ضد عدوى الجهاز التنفسي)، وتزداد الإندورفينات (قاتلات الألم التي يفرزها المخ)، وتتعزز القدرة على تخزين المعلومات في المخ. الضحك إذن يخفف من ضغوط الحياة ويخفض ضغط الدم، ويعزز مناعة الجسم، ويسكن الألم، ويقلل القلق: (أنت لا تستطيع بالفعل أن تضحك وأنت خائف) ويريح المخ. كما أنه يشجع التواصل مع الآخرين، ويلهم الإبداع، ويدعم المعنويات. عندما تضحك في مواجهة مشكلة، فإنك تضعها في منظور جديد، فترى النواحي السخيفة والتافهة فيها. الفكاهة تسمح لك أيضاً بأن تعبر عنها بشكل غير مباشر. شعورك الذي كان من الخطر أن تعبر عنه تعبيراً مباشراً، يمكن للفكاهة أن تنقذك منه. من هنا كثيراً ما تكون الفكاهة سلاحاً للمغلوبين والأقليات.

ثم إن الضحك يقلل من خطر الإصابة بنوبات القلب:

قد يكون للضحك «من القلب» مردوده الطيب على القلب. في مارس ٢٠٠٥ أعلنت جماعة من الباحثين من جامعة ميريلاند ولأول مرة أنهم قد وجدوا أن الضحك يتسبب بالفعل في تمدد البطانة الداخلية للأوعية الدموية، الأمر الذي يزيد من تدفق الدم، وهذا أمر طيب لصحة القلب. «أنا أعتقد أنه من المعقول جداً لنا جميعاً أن نضفض عن أنفسنا، وأن نضحك كل يوم ١٥ - ٢٠ دقيقة». كان الدكتور ميشيل ميلر M. Miller، رئيس هذه المجموعة البحثية، قد لاحظ قبلاً أن مرضى القلب على وجه العموم يستجيبون لوقائع الحياة اليومية بقدر من البشاشة يقل عنه عند الأصحاء، كما لاحظ آخرون أن احتمال إصابة أصحاب النظرة المتفائلة بمرض القلب أقل من غيرهم.

قدر الباحثون تدفق الدم في الشريان العضدي لمائة وستين حالة واتضح أن التدفق قد ازداد في ٩٥٪ منهم أثناء مشاهدتهم فيلماً فكاهياً، وأن ٧٥٪ ممن شاهدوا فيلماً حربياً قد انخفض لديهم هذا التدفق. بلغ متوسط الزيادة في تدفق الدم أثناء الضحك ٢٢٪، وبلغت نسبة الانخفاض ٣٥٪ في حالة الإجهاد الذهني. استمر الأثر ٣٠ - ٤٥ دقيقة عقب مشاهدة الفيلم.

لا يزال السبب في هذا غامضاً، لكن ميلر يقول: «تحمل البطانة الداخلية للأوعية الدموية مستقبلات للإندورفين، وربما كان الضحك يتسبب في زيادة إفراز الإندورفين الذي ينشط المستقبلات، ليتسبب في تفاعلات تؤدي إلى اتساع الأوعية. ربما يتسبب الإجهاد الذهني من ناحية أخرى، في إفراز هرمونات الإجهاد مثل الكورتيزول cortisol الذي يقلل بدوره من إفراز أكسيد النيتريك من خلايا البطانة. والذي قد يؤدي إلى انقباض الوعاء. على أية حال فإن رسالة طبيب القلب لزملائه الأطباء واضحة: «إن علينا أن نقضي وقتاً أطول في الحديث مع المرضى عن الكرب والنواحي السيكولوجية للمرض، وهذا جزء لا يقدره الأطباء حق قدره عادة».

ربو المرح

على أنا يجب أن نذكر أن هناك حالات لا يكون فيها «الضحك خير دواء»، ذلك أن الضحك قد يقدح زناد أزمات الربو في الأطفال بأكثر مما ينجم عن الضخان smog أو الرياضة. في بحث ظهر عام ٢٠٠٢ حللت فيه حالات كل من وصل قسم الطوارئ من الأطفال، خلال ستة أشهر، بإحدى مستشفيات نيوساوث ويلز، اتضح أن الثلث منهم كانوا يعانون من «ربو المرح» هذا. ظهر أن هذا الربو يشيع بين الأطفال الكبار، وبين من تتكشف فيهم أعراض الربو أثناء الليل أو في الصباح الباكر. لم يعرف بالضبط السبب في هذا، لكن يبدو أن الأمر يرجع إلى التنبيه الفيزيقي لمستقبلات بالمسالك الهوائية.

الضحك والشيخوخة

عندما نتقدم في السن، فإننا نلحظ أن مخاخنا لم تعد تعمل مثلما كانت أيام الصبا. وظائف المخ تتغير بالفعل مع الهرم. المخ بالتأكيد ينكمش مع العمر. إنه لا يفقد حقاً مليون خلية كل يوم كما كانوا يقولون، لكن الخلايا ذاتها تغدو أصغر. وخلايا مخ الرجل تنكمش أكثر مما تنكمش خلايا مخ المرأة، سوى أن خلايا الرجل تكون من البداية أكبر (بمقدار ١٥٪). وعلى عمر ٤٥ يصبح لمخ الرجل نفس حجم مخ المرأة. ليصبح مخ المرأة بعد ذلك أكبر. ويبدو أن الفصوص الجبهية من المخ هي أول ما يتعرض للتدهور مع تقدم العمر في كلا الجنسين.

على أن الكبار يمكنهم بالتأكيد أن يمتعوا أنفسهم بالضحك وأن يقدروه. فنحن لا نتوقف عن الضحك لأننا نهرم، إننا نهرم لأننا نتوقف عن الضحك. سوى أن القدرة على تفهم الصور المعقدة من الفكاهة تقل مع العمر. تزداد الحكمة مع العمر: نعم، الكبار يصبحون أفضل وأسرع في تفهم الصورة العامة الكبرى، مقارنة بأقرانهم الأصغر سناً. لكن القدرات المعرفية اللازمة لتفهم الفكاهة تتضمن الاستدلال التجريدي والمرونة الذهنية والذاكرة النشطة، وهذه على الأغلب ترتبط بالفصوص الجبهية من المخ التي تتدهور مع السن.

اثنان من أكلة لحوم البشر جلسا يتسامران بعد وجبة شهية من اللحم المشوي. قال الضيف منهما لمضيفه:

– الشكر كل الشكر لزوجتك، لقد قدمت لنا وجبة لحم رائعة!

تنهد المضيف ثم قال:

– آه... آه... سأفتقدها كثيراً! ■

المرأة تستمتع بالفكاهة أكثر.
النساء يبحثن عمن يضحكهن من الرجال،
والرجال يتلهفون كي يقدموا لهن الفكاهة!
إن وجود الكوميديانات
أمر ليس سهلاً



كتاب الزاوية

أسير الاستبداد

عبد الرحمن الكواكبى

من أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان، يُقاد حيث يُراد. ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح، لا نظام ولا إرادة، وما هى الإرادة؟ هى أم الأخلاق، هى ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هى تلك الصفة التى تفصل الحيوان عن النبات فى تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه، ولهذا قال الفقهاء: لا نية للرقيق فى كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية مولاه. وقد يُعذر الأسير على فساد أخلاقه، لأن فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلاً وشرعاً.

أسير الاستبداد لا نظام فى حياته، فلا نظام فى أخلاقه، قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً. وقد يمسى فقيراً فيبيت جباناً خسيساً، وهكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد يبغى فيُزجر أو لا يزجر، ويُبغى عليه فيُنصر أو لا يُنصر. ويحسن فيُكافأ أو يُرهق، ويسىء كثيراً فيُعفى وقليلاً فيشنق؛ ويجوع يوماً فيضوى، ويخصب يوماً فيتخم؛ يريد أشياء فيمنع، ويأبى شيئاً فيرغم؛ وهكذا يعيش كما تقتضيه الصدف أن يعيش.

اقل ما يؤثره الاستبداد فى أخلاق الناس، أنه يرغم حتى الأخيار منهم على إلفة الرياء والنفاق، ولبئس السيئتان، وأنه يعين الأشرار على إجراء غى نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح.

التعليم



في دراسة صدرت في يناير الماضي عن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم، **لم يرد اسم أي جامعة مصرية أو عربية** بينما وردت أسماء ٧ جامعات إسرائيلية لتحتل إسرائيل المركز التاسع في مستوى التعليم الجامعي. هناك أسباب كثيرة لهذه الفجوة العلمية بين العرب والعالم إلا أن أحد أهم الأسباب هو التمويل، فبدون توافر موارد مالية معتبرة لا يمكن الحصول على خدمة تعليمية جيدة.. المشكلة التي يختلف حولها الخبراء هي من يمول التعليم الجامعي؟ الدولة أم القطاع الخاص أم الطالب نفسه؟ وهل بإمكان الطالب المصري بمستويات الدخل المعروفة أن يدفع عمليًا نفقات تعليمه الجامعي الفعلية؟ وفي أي دول العالم يتحمل الطالب تلك النفقات خاصة في الكليات العملية؟ ثم ما هي النتائج المترتبة على دخول القطاع الخاص مجال التعليم الجامعي وتقلص دور الدولة؟ «وجهات نظر» تعرض وجهتي نظر حول بعض جوانب هذه القضية.

المحـــرر

سياسات وتجارب دولية

معتـــــز خورشـــيد

في جامعـــة القاهـرة تقـــوم مكاتـــب رعايـــة الشبـــاب بالكليات ببحـــوث اجتماعيـــة عـــن الطـــلاب محـــدودي الدخل بهـــدف إعفائهـــم من جزء من المصروفات الدراسية

تعرضت في مقال سابق - نشر بمجلة «وجهات نظر» عدد سبتمبر ٢٠٠٤ - إلى خصائص نظم التعليم العالي واتجاهاته في عصر العلم والمعرفة إبان الألفية الثالثة. ولسوف نبدأ فيما يلي بتقييم التجارب العالمية في مجال تنويع النظم والبرامج الأكاديمية بهدف تحقيق الأهداف الإنمائية ثم نتطرق بعدها لنناقش بشكل مفصل وسائل تنويع مصادر تمويل مؤسسات التعليم العامة.

الجـــزء الأول:

تنويع النظم التعليمية

تفيد مؤشرات التعليم العالي - للدول التي نجحت في تحقيق أهدافها التعليمية - إلى وجود مجموعة متكاملة ومتباينة من المؤسسات التعليمية تغطي عددًا من الأهداف والمهام مثل البرامج المهنية قصيرة الأجل، ومراكز التعليم المفتوح، والتعليم من بعد، ذلك بالإضافة إلى المؤسسات التعليمية الخاصة. ولعل **التجربة الآسيوية تمثل إحدى التجارب المهمة في مجال تطوير التعليم العالي. فرغم أن الإنفاق الحكومي على التعليم - كنسبة من الناتج القومي الإجمالي - يعتبر الأقل مقارنة بباقي دول العالم، إلا أن هذه الدول قد نجحت في تبني السياسات الملائمة في مجال تنويع الخدمات التعليمية، بما يسمح باستيعاب الطلب الاجتماعي المتزايد على خدمات التعليم وتحقيق متطلبات** أسواق العمل في هذا المجال. وهذه النتيجة تؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك - أن تطوير برامج التعليم العالي لا تعتمد فقط على حجم الإنفاق العام على التعليم، بل أيضًا على تبني سياسات تعليمية ملائمة.

ويمكن تصنيف نظم التعليم العالي بالدول النامية - بوجه عام - إلى ثلاث فئات على النحو التالي:

• النظم المعتمدة على الجامعات الحكومية «public university-based systems».

• النظم الحكومية المتنوعة التي تشتمل - إلى جانب الجامعات الحكومية - على عدد من المؤسسات الحكومية غير الجامعية «differentiated public systems».

• النظم المشتركة التي تعتمد على كل من القطاعين العام والخاص في تقديم الخدمات التعليمية «differentiated public plus private».

وتوضح مؤشرات البنك الدولي التعليمية حقيقة مهمة تتلخص في أن «مستويات التنوع في مؤسسات التعليم العالي وبرامجه تتجه إلى التزايد مع ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي والرفاهية الاجتماعية للمواطنين».

وكما ذكرنا سابقًا، فإن دول قارة آسيا تعتبر الأفضل من حيث تنويع نظم التعليم العالي، فقد توجهت تايلاند - على سبيل المثال - إلى إنشاء جامعتين مفتوحتين ترتبط كل منهما بعدد من الجامعات الإقليمية لاستكمال الجهود التعليمية التي تقوم بها الجامعات الحكومية الأربع الرئيسية بمدينة بانكوك. ومن ناحية أخرى، فقد أقامت الصين شبكة متكاملة من الجامعات الإقليمية وتبنت - في نفس الوقت - منهجيات تعليمية تعتمد على النقل التليفزيوني والتعليم من بعد.

وتبين مؤشرات المجلس الأعلى للجامعات بمصر توجه الحكومة - من خلال وزارة التعليم العالي - إلى تشجيع إنشاء أشكال مغايرة لمؤسسات التعليم العالي إلى جانب الجامعات الحكومية الاثنتي عشرة، إذ سمح القانون رقم ١٠١ لسنة ١٩٩٢ بإنشاء جامعات خاصة وفق ضوابط محددة يعتمدها مجلس قومي للجامعات الخاصة. **كما صدر القانون رقم ٤٩ لعام ١٩٦٢ لينظم عملية إنشاء معاهد متخصصة في مجالات التعليم الصناعي والتكنولوجيا والطاقة والحاسبات. كذلك أظهرت السنوات الأخيرة زيادة في أعداد المعاهد العليا الخاصة والتي تنظم من خلال القانون ٥٢ لسنة ١٩٧٠. كما تشير مؤشرات التعليم المصرية إلى تنامي التوجه إلى إنشاء فروع لجامعات أجنبية. على نمط الجامعة الأمريكية بالقاهرة. مثل الجامعة الفرنسية والجامعة الألمانية، ومثل الجامعات البريطانية والكندية (تحت الإنشاء).**

بيد أن هذا التوجه نحو تنويع مصادر تمويل الجامعات وتباين أشكالها - برغم أهميته - لا يتضمن سياسة واضحة للتوسع في إنشاء

مؤسسات تعليم عال غير جامعية تقدم أنماطًا ومناهج مغايرة لما يتم بالجامعات الحكومية، وبما يخدم أغراض سوق العمل في عصر التنامي المعرفي. ومن هنا فإنه يتعين على الحكومة المصرية أن تدعم الأنماط التعليمية الحديثة مثل التعليم الإلكتروني، والتعليم من بعد، ومراكز التعليم المفتوح بغية التغلب على الزيادة العددية في الطلب على التعليم العالي من ناحية، وتحقيق التوجه العالمي نحو التعليم المستمر (أو التعلم مدى الحياة)، من ناحية أخرى، وعلى الرغم من وجود ١٦ معهدًا متخصصًا في الدراسات العليا - في رحاب الجامعات الحكومية المصرية - إلا أن الأمر يتطلب وضع استراتيجية أكثر تكاملاً لدعم نظم الدراسات العليا وارتباطها بتطوير البحث العلمي والتوجه نحو الابتكار والتحديث.

أولاً: المؤسسات غير الجامعية

تفيد المؤشرات الدولية للتعليم العالي - خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضي وبداية الألفية الثالثة - أن معدلات التسجيل في النظم غير الجامعية تنمو بمعدلات أعلى من معدلات التسجيل في الجامعات التقليدية. حيث ظهرت أنواع متعددة للمؤسسات غير الجامعية مثل المعاهد الفنية والتكنولوجية العالية، والمعاهد المهنية المتوسطة (عامين دراسيين)، وكليات التعليم الأهلي (المنشأة من هيئات المجتمع المدني)، بالإضافة إلى المؤسسات التي تقدم خدمات التعليم من بعد، وبرامج تعليم الكبار.

المزايا والإنجازات:

وتتميز هذه النوعية من مراكز التعليم غير الجامعي بانخفاض تكلفة إعداد البرامج الدراسية قصيرة الأجل، وانخفاض معدلات تسرب الطلاب (مقارنة بالجامعات التقليدية)، بالإضافة إلى تراجع نصيب الطالب من حجم الإنفاق الكلي على خدمات التعليم. ففي تونس على سبيل المثال، قامت الحكومة بإنشاء شبكة إقليمية من المعاهد التكنولوجية التي تمنح دبلومًا فنيًا متوسطًا لمدة عامين دراسيين، مما ساهم في انخفاض تكلفة التعليم العالي السنوية بنحو (١٢٪) في المتوسط.

وتفيد نتائج تقييم الأداء على مستوى خريجي التعليم ما بعد الثانوي أن



يتعين على الحكومة المصرية أن تدعم الأنماط التعليمية الحديثة مثل التعليم الإلكتروني، والتعليم من بعد، ومراكز التعليم المفتوح

مؤسسات التعليم غير الجامعي تقدم فرصًا تدريبية على درجة عالية من المرونة بما يتواءم مع متطلبات أسواق العمل. وهو أمر ضروري لمجابهة التقلبات الاقتصادية على المستوى العالمي والتغيرات الهيكلية في سوق العمل في ظل الثورة التكنولوجية والمعرفية التي يشهدها القرن الحالي.

وفي مجال التعليم الهندسي يمكن التفرقة بين نوعين من الخريجين: «خريج كليات الهندسة»، و«خريج المعاهد الفنية التطبيقية». ففي حين ينغمس النوع الأول من الخريجين في الدراسات التحليلية والعلمية، يركز النوع الثاني في دراسته على النواحي التطبيقية لعملية إنتاج السلع والخدمات واختبار جودة أدائها. وعلى مستوى الدول النامية، فإن دولة المكسيك نجحت في إنشاء شبكة ممتدة عبر البلاد تتضمن معاهد تكنولوجية ذات توجه تطبيقي. وأخيرًا فإن هذه المعاهد غير الجامعية نجحت في اجتذاب شريحة من الطلاب الأقل فرصًا، مثلما هو الحال في المعاهد الفنية بدولتي الهند وبنجلاديش التي ركزت على تحقيق المتطلبات التعليمية والثقافية للإناث على مستوى المدن الصغيرة والمناطق الريفية.

العيوب والمخاطر:

يجب الأخذ بمبدأ الحذر عند التوسع في إنشاء مؤسسات غير جامعية للتحوط من المخاطر التالية:

١ - قد يعتقد الطلاب وأولياء الأمور أن هذه النوعية من المعاهد تأتي في المرتبة الثانية بعد الجامعات التقليدية - من حيث جودة العملية التعليمية وتوافر فرص العمل. وبالتالي فإن عامل المخاطرة المرتبط بعدم اقتناع الطلاب للالتحاق بها يظل قائمًا، ومن ثم تغدو هذه المعاهد مؤسسات تعليمية، تقوم في الأساس على استيعاب الطلاب غير القادرين على الالتحاق بالجامعات الحكومية أو الخاصة. وهكذا فإنها لا تعدو أن تكون مراكز أكاديمية تتكدس داخلها الشريحة المتبقية من خريجي الثانوية العامة، ممن لا يجدون مكانًا بالجامعات. ففي جمهورية مصر العربية - التي لديها أحد أكبر النظم التعليمية على مستوى العالم النامي - حددت الحكومة معايير القبول بنظم التعليم العالي، وحددت بناء على ذلك مستوى استيعاب الطلب الاجتماعي المتزايد على التعليم العالي، من خلال جعل القبول بالجامعات الحكومية الرئيسة (وفق معدل الدرجات التي يحصل عليها الطالب في الثانوية العامة) كما أنشأت معاهد فنية عليا (لمدة عامين دراسيين) لقبول الطلاب غير المؤهلين للقبول بالجامعات (وهم يمثلون الشريحة المتبقية من خريجي المرحلة الثانوية). وقد توسعت هذه المعاهد العليا خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين بحيث أصبحت تستوعب نسبة تصل إلى (٤٠٪) من الخريجين. ونظرًا للقصور في الموارد المالية والبشرية والمادية اللازمة لتحقيق مستوى جودة التعليم الفني المطلوب، فقد انخفض مستوى الخريجين بتلك المعاهد وتراجعت الفرص المتاحة أمامهم للحصول على وظائف مناسبة. يضاف إلى ما سبق أن العديد من هؤلاء الخريجين فضل التوجه إلى الأعمال الإدارية أو استكمال دراسته في إحدى الكليات الحكومية بعد انتهاء الدراسة بتلك المعاهد. وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن الحكومة المصرية - ممثلة في وزارة التعليم العالي - قد تنبهت لهذه الظاهرة وخصصت أحد مشاريع تطوير منظومة التعليم العالي (الخطة الخمسية الأولى ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧) لتحديث المعاهد الفنية العليا وتطويرها وتعظيم مساهمتها في تحقيق متطلبات سوق العمل بالألفية الثالثة.

٢ - هناك مخاطرة أخرى تترتب على ابتعاد المؤسسات غير الجامعية عن الأهداف التي أنشئت من أجلها «academic drift»، مما يؤدي بها إلى أن تتحول تدريجيًا إلى جامعات أو مؤسسات تعليم عال تقليدية. فتفقد بالتالي هدفها الرئيسي وهو تنويع برامج التعليم العالي. ففي مصر - على سبيل المثال - تمثل جامعة حلوان أحد الأمثلة الواضحة في هذا المجال، حيث تكونت الجامعة من خلال تجميع عدد من المعاهد العليا الفنية والمتخصصة، ثم جرى استكمالها بعدد من الكليات الجديدة لتصبح أقرب إلى الجامعات الحكومية القائمة منها إلى الجامعة التكنولوجية.

ثانياً: التعليم المفتوح

تمثل تقنية التعليم الإلكتروني من بعد، واحدة من الأدوات التي تسمح بالتغلب على مشكلة تزايد أعداد طلاب مرحلة التعليم العالي ونقص الإمكانات المادية والبشرية بالجامعات. كما تقدم برامج التعليم المفتوح وسيلة فعالة على درجة عالية من المرونة لاستكمال الدراسة بالنسبة للطلاب غير القادرين على الانتظام بالدراسة وسداد الرسوم الدراسية. حيث يمكن لخريج المرحلة المتوسطة (الثانوية العامة) أن يعمل ويستكمل دراسته في نفس الوقت. كما تسمح هذه النوعية من مراكز التعليم المفتوح بإعداد برامج تعليم الكبار أو التعليم المستمر، الذي أصبح ضرورة في عصر العلم والمعرفة.

ومن هنا فإنه يمكن الاعتماد على هذه التقنيات التعليمية الحديثة لمقابلة الزيادة في الطلب على خدمات التعليم العالي من خلال السماح لبعض شرائح الخريجين غير القادرين على الاستمرار بالتعليم المنتظم باستكمال دراستهم في مقابل تكلفة مقبولة. وتشير المؤشرات التعليمية أن نسبة (٤١٪) من المسجلين ببرامج التعليم المفتوح والتعليم من بعد بالهند من النساء، في حين أن معدل مشاركة النساء في التعليم المنتظم

بالجامعات لا يتعدى (٣٢٪) فقط من خريجي المرحلة الثانوية.

ثالثاً: المؤسسات الخاصة

تمثل مؤسسات التعليم الخاصة - في الألفية الثالثة - أحد العناصر المهمة في منظومة التعليم العالي بالدول النامية، حيث يمكن الارتكاز على تلك الوحدات الخاصة لمجابهة الطلب المتزايد على خدمات التعليم العالي ومواجهة التغيرات في أسواق العمل. وتسمح **المؤسسات الخاصة بزيادة فرص التعليم** المتاحة بدون تكلفة إضافية ترهق الميزانية العامة للحكومة، أو بتكلفة عامة محدودة تتمثل في الدعم الحكومي أو الحوافز المالية التي توفرها الدولة للمؤسسات التي تحقق أهداف التنمية المستدامة. وبطبيعة الحال، فإن هذه المؤسسات التعليمية الخاصة تكون متحررة من القيود الإدارية والمالية الحاكمة لعمل الجامعات الحكومية مما يزيد من درجة مرونتها وكفاءتها للتأقلم مع التطورات السريعة لمجتمع المعرفة والتطوير التكنولوجي.

ومن هنا فإنه يمكن النظر إلى إنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية خاصة كوسيلة لتحقيق الآتي:

- استكمال جهود الجامعات الحكومية لمواجهة تكلفة التوسع في إعداد المسجلين في نظم التعليم العالي.
- تحقيق مستويات أعلى من التنوع في برامج التدريب والتأهيل المهني.
- التوسع في المشاركة المجتمعية في أنشطة التعليم العالي ومجالاته.

وتشير نتائج تقييم برامج التعليم العالي في العديد من دول العالم إلى زيادة معدلات القيد بالمؤسسات التعليمية الخاصة. حيث تصل نسبة المقيدين بالقطاع الخاص إلى (٨٦٪) في الفلبين، (٧٥٪) في كوريا، ونحو (٦٠٪) في كل من بنجلاديش، والبرازيل، وكولومبيا، وإندونيسيا. وتوضح المؤشرات السابقة أن هذه الدول قد نجحت في توسيع نطاق نظمها التعليمية العليا ومجالاتها دون إضافة أية أعباء إلى ميزانية الدولة.

وبرغم تنامي التوجه نحو مشاركة القطاع الخاص في جهود تطوير التعليم العالي واستكمال متطلبات أسواق العمل من المهن التخصصية التي تتطلب مستوى مهارياً متقدماً، فإنه يتعين على سلطات التعليم العالي بالدولة النامية أن تضع المعايير والأسس للتأكد من كفاءة العملية التعليمية والتدريبية وجودتها بالقطاع الخاص. وتظهر أهمية هذا التوجه في ظل سعي بعض مؤسسات القطاع الخاص لتحقيق الربح على حساب الجودة. وهنا يتعين التفرقة بين الجامعات الخاصة غير الهادفة إلى الربح (أو الجامعات الأهلية) والجامعات والمعاهد التي تسعى إلى تعظيم العائد المادي. حيث تكون المؤسسات التعليمية غير الهادفة إلى الربح - في غالب الأحيان - صغيرة الحجم، وتهتم باختيار أفضل العناصر الطلابية، وذات تكلفة مرتفعة.



قد يعتقد الطلاب
وأولياء الأمور أن هذه النوعية
من المعاهد تأتي في المرتبة الثانية
بعد الجامعات التقليدية

كما دلت نتائج الدراسات الحصرية على مستوى العالم أن خريجي المؤسسات الخاصة غير الهادفة إلى الربح (أو الجامعات الأهلية) يحصلون على وظائف أفضل من زملائهم خريجي الجامعات الهادفة إلى تعظيم العائد المادي: وهو ما يعني جودة أفضل للأداء بتلك المؤسسات، على الأقل من وجهة نظر أصحاب العمل. ولعل هذه النتيجة تؤكد ضرورة النظر إلى خدمات التعليم العالي والبحث العلمي بوصفها منتجاً لا يخضع لقواعد الربحية وآلياتها السائدة في أسواق السلع التقليدية.

أي أن الأمر يتطلب بالضرورة صياغة أطر قانونية وسياسات لإدارة عملية نمو المؤسسات الخاصة في مجال التعليم العالي. وهو ما ظهر بشكل واضح في العديد من الدول النامية. ويمكن تلخيص السياسات المستخدمة لدعم وحدات التعليم العالي الخاصة في الآتي:

- إنشاء نظم ملائمة للاعتماد وآليات محددة لتوكيد الجودة.
- توفير الدعم المطلوب لتطوير المقررات الدراسية والإدارة المؤسسية والشئون الأكاديمية.
- تقليل التحكم في رسوم الالتحاق والتسجيل بالقطاع الخاص، والتوجه في بعض الأحيان إلى توفير الدعم المالي للتطوير الأكاديمي والتحسين الكيفي لمؤسسات التعليم الخاص.

الجزء الثاني:

تنويع برامج تمويل التعليم العالي

في ظل تنامي المؤسسات التعليمية الخاصة والأهلية والتوجه العالمي للارتقاء بمعدلات الأداء الجامعي وتوكيد جودته، يتعين على الجامعات الحكومية أن تتوجه إلى إعادة هيكلة أنشطتها وتنويع مصادر تمويل برامجها التعليمية من خلال زيادة مساهمة القطاعين الخاص والأهلي في تكلفة العملية الأكاديمية بها وإيجاد مصادر غير تقليدية للتمويل، مع التوجه - في نفس الوقت - إلى وضع نظم لعدد الطلاب غير القادرين أو الأقل دخلاً. حيث إن القصور في معالجة نقص الموارد المالية بالجامعات الحكومية من الممكن أن يؤدي إلى عدم تحقق هدفي التنوع في النظم والبرامج التعليمية وعدالة فرص الالتحاق بالتعليم العالي، حتى مع وجود أعداد متزايدة من مؤسسات التعليم الخاصة. ويمكن تحقيق هذا الهدف بالتركيز على الآليات التالية:

- وضع الأنظمة التمويلية التي تسمح بمشاركة الطلاب في جزء من الرسوم الدراسية.
- الاستفادة من خريجي الجامعات القادرين على المساهمة في تكلفة التعليم.
- إلغاء معظم أنواع الدعم المادي للأنشطة غير التعليمية (أو التي لا ترتبط مباشرة بالعملية التعليمية)، مثل تغذية الطلاب أو الإقامة بالمدن الجامعية.
- التوجه إلى إنشاء وحدات ذات طابع خاص - في شكل مراكز دراسية وبحثية تطبيقية - تسمح بتوفير دخول إضافية للجامعات لتمويل أنشطتها المتعددة.

مشاركة الطلاب في تكلفة التعليم cost sharing:

يمكن الارتقاء بالقدرة التمويلية لمؤسسات التعليم العالي الحكومية من خلال زيادة مشاركة الطلاب أنفسهم في تمويل الأنشطة الأكاديمية بتلك المؤسسات. ويعتبر هذا توجهاً مشروعاً لو أخذنا في الاعتبار أن الطلاب يتوقعون أن يحصلوا على عائد مالي مرتفع - بعد حصولهم على عمل - كثمرة لما تعلموه خلال مرحلة التعليم العالي، مع ملاحظة أن عدداً غير قليل من هؤلاء الطلاب يأتي - في غالب الأحيان - من عائلات قادرة على المشاركة في تكلفة تعليم أبنائهم في الجامعات الحكومية.

وتفيد المؤشرات التعليمية إلى تنامي هذا التوجه الرامي إلى تطبيق المشاركة في التكلفة من قبل الطلاب. إذ تبين إحصاءات التعليم العالي أن حجم مشاركة الطلاب كنسبة من جملة التكلفة الجارية للعملية التعليمية يقدر بنحو (٢٢٪) في فيتنام، و(٣٦٪) في شيلي، و(٤٠٪) في الأردن، وما يقارب (٤٦٪) في كوريا الجنوبية. كذلك اتخذت السلطات الصينية قراراً بتحميل الطلاب ما يمثل (٩٪) من جملة الإنفاق الجاري على الخدمات التعليمية، كما ضاعفت الرسوم الدراسية على الطلاب ذوي الدرجات المتدنية، وألغت كل صور الدعم المادي والعيني المخصص لهم. ومن ناحية أخرى، قامت كل من بوتسوانا وغانا بإلغاء الدعم الموجه للوجبات الطلابية وخصخصت عملية التغذية بالجامعات مما ساهم في تحقيق تخفيض في الإنفاق الحكومي بشكل عام.

التمويل من خريجي الجامعات والشركات الخاصة: funding from alumni and private companies:

تمثل المنح والهبات والقروض الميسرة السداد التي توفرها جمعيات الخريجين والشركات العامة والخاصة أحد المصادر المهمة لتنويع القاعدة التمويلية بالجامعات الحكومية. وتأخذ هذه النوعية من التمويل أشكالاً مختلفة مثل: (أ) دعم عملية إنشاء أبنية تعليمية وتجهيز



الاستفادة من خريجي الجامعات القادرين على المساهمة في تكلفة التعليم

معامل بحثية، (ب) إنشاء منصب أستاذ كرسي يمول عن طريق إحدى الشركات الإنتاجية، (ج) المساهمة في شراء الأجهزة والمعدات العلمية (د) توفير منح عينية في شكل كتب ودوريات علمية ونشرات إحصائية، (هـ) كفالة الطلاب محدودي الدخل عن طريق دعم تكلفة الرسوم الدراسية ومصروفات الإقامة بالمدن الجامعية والوجبات الغذائية والملابس، (و) اختيار الشركات لعدد من الطلاب ودعمهم خلال مرحلة الدراسة تمهيداً لعملهم بها، وأخيراً (ز) قيام الشركات المالية والبنوك بتوفير قروض بأسعار فائدة منخفضة وشروط سداد ميسرة لدعم العملية الأكاديمية والبحثية بالجامعات.

ويمكن أن تساهم السلطات الحكومية في تشجيع هذا التوجه من خلال تبني نظم مالية تسمح بمنح إعفاءات ضريبية للشركات والمؤسسات الخاصة التي تدعم المؤسسات التعليمية والبحثية، ففي شيلي - على سبيل المثال - تمنح الدولة إعفاءات ضريبية تصل إلى نحو (٥٠٪) من قيمة الضريبة على الدعم المالي الذي تقدمه الشركات الخاصة للجامعات ومؤسسات التعليم غير الجامعي، وتطبق مثل هذه الإعفاءات في الهند ومصر والعديد من دول العالم. وبرغم هذه الإعفاءات فإن حجم الدعم المالي - الذي توفره الشركات والمؤسسات الخاصة للجامعات - لا يتعدى نحو (٠٫٦٪) من الإنفاق الجاري على التعليم العالي في المتوسط.

ويعتبر إنشاء صناديق خاصة، تتضمن ودائع يستخدم عائدها في تمويل الأنشطة التعليمية والبحثية بالجامعات، أحد التوجهات الناجحة في مجال تنويع مصادر تمويل برامج التعليم العالي. هذا وتمثل منحة «نيبون» التي توفرها مؤسسات تمويل يابانية لصالح قسم اللغة اليابانية بكلية الآداب بجامعة القاهرة أحد الأمثلة في هذا المجال، حيث تخصص مؤسسات التمويل اليابانية وديعة مالية يستخدم عائدها لتمويل المنح الدراسية لطلاب الجامعة والبحوث العلمية في مجال اللغة اليابانية وباقي الأنشطة الأكاديمية بكلية الآداب. وتمثل هذه الأداة التمويلية وسيلة لدعم الأقسام العلمية الحديثة.

وحدات توليد الدخل

income generating units:

يعتمد التوجه الاستراتيجي الثالث لتعبئة الموارد التمويلية من القطاع الخاص على إنشاء وحدات ذات طابع خاص بالجامعات الحكومية كمصادر لتوليد دخل ذاتي من خلال برامج التدريب المهني قصيرة الأجل والبحوث التعاقدية مع الشركات والمؤسسات الصناعية والخدمات الاستشارية. ومن المفروض أن تتمتع هذه الوحدات باستقلالية اتخاذ القرار والتحرر من قيود الموازنة العامة للدولة، وحرية الحركة فيما يخص البحوث التعاقدية والاستشارات الفنية. ففي مصر - على سبيل المثال - سمحت اللائحة التنفيذية المعدلة لقانون تنظيم الجامعات بإنشاء مراكز للدراسات والاستشارات - في شكل وحدات ذات طابع خاص - تتميز بالاستقلالية المالية والمرونة الإدارية المطلوبة لتقديم خدمات مجتمعية. هذا وقد تم إنشاء منصبي وكيل كلية ونائب رئيس جامعة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة بهدف متابعة نشاط هذه الوحدات على مستوى الجامعة. وقد تزايد عدد هذه الوحدات بالجامعات الحكومية في الآونة الأخيرة مما ساهم في توفير موارد إضافية استخدمت بشكل أساسي في الإنفاق على تكلفة الخدمات المقدمة من ناحية، وتوفير التمويل اللازم لتطوير البنية الأساسية للجامعة والمشاركة في تكلفة الأنشطة التعليمية والبحثية، من ناحية أخرى. ويمكن لحكومات الدول النامية أن تشجع هذا التوجه بأساليب متنوعة، أهمها تقليل التعقيدات الإدارية والمالية وإطلاق حرية هذه الوحدات في التفاعل مع آليات السوق. كذلك تتجه بعض الحكومات إلى زيادة التمويل من الموازنة العامة بنسبة تتحدد بحجم الإيرادات المتولدة بالوحدات ذات الطابع الخاص. وغني عن الذكر أن العديد من الجامعات بالولايات المتحدة الأمريكية تشترط على الأساتذة أن يستكملوا دخلهم من الجامعة من خلال نجاحهم في التعاقد على بحوث تطبيقية وخدمات استشارية.

نخلص مما سبق أن مؤسسات التعليم العالي بالدول النامية يمكن أن ترتقي بإمكاناتها التمويلية وتضمن التوازن المالي لأنشطتها الأكاديمية من خلال تعبئة موارد إضافية من خلال المؤسسات غير الحكومية. وقد أفادت الدراسات المقارنة، أنه يصعب حتى على الدول - التي تخصص نسبة عالية من إنفاقها العام للتعليم العالي - أن تتفادى التقلبات قصيرة الأجل من الموارد التمويلية، مما يؤدي إلى تراجع قدرتها على إدارة أنشطتها التعليمية بكفاءة. ومن هنا فإن توجه الجامعات الحكومية إلى إلغاء الدعم على الأنشطة غير التعليمية، وزيادة الرسوم الدراسية، وتعظيم الفائدة من المنح والهبات والقروض الميسرة من القطاع العائلي والخاص، وإنشاء وحدات قادرة على توليد الدخل الذاتي، سيسمح لها ببناء قاعدة تمويلية أكثر تنوعاً وأكثر ثباتاً. ويمكن للجامعات الحكومية - في هذا الصدد - أن تضع هدفاً كمياً يتمثل في السعي إلى تحقيق نسبة تغطي نحو (٣٠٪) من إجمالي الإنفاق الجاري من خلال التمويل من مصادر غير حكومية، وهي نسبة ممكنة التحقيق على مستوى الدول النامية، أخذاً في الاعتبار أن بعض الدول مثل الأردن، وشيلي، وكوريا قد تخطت هذه النسبة بالفعل. يضاف إلى ما سبق، أن تعبئة موارد مالية إضافية من القطاع الخاص تجعل مؤسسات التعليم الحكومية أكثر استجابة لمؤشرات الطلب على خدمات التعليم العالي. كما أن مشاركة الطلاب - في سداد الرسوم الدراسية - يجعلهم أكثر جدية في اختيار برامجهم الدراسية والعمل الدءوب من أجل تقليل فترة دراستهم.

الدعم المالي للطلاب محدودي الدخل

تمثل برامج الدعم الحكومي للطلاب المتميزين محدودي الدخل سياسة مكملة لمشاركة الطلاب القادرين في تكلفة الخدمات الدراسية. حيث يساهم هذا التزاوج بين السياستين - بالإضافة إلى التمويل الحكومي - في الوصول إلى مستوى أعلى من تغطية تكلفة برامج التعليم العالي، وتحقيق أهداف الارتقاء بجودة العملية التعليمية والبحثية، مع الحفاظ - في نفس الوقت - على المساواة في حقوق الالتحاق بنظم التعليم العالي أمام كل الشرائح السكانية.

تأسيساً على ما سبق، اتجهت بعض الدول النامية إلى تطبيق نوعية من القروض الدراسية ذات أقساط السداد الثابتة (fixed repayment loan schemes) تغطي المصروفات التعليمية أو تكلفة الإعاشة للطالب بحيث يقوم بسداد أقساطها على فترات مستقبلية من الدخل الذي سيحققه بعد تخرجه. غير أن تجربة تطبيق القروض الدراسية في نحو خمسين دولة صناعية ونامية كانت مخيبة للآمال، ويعود ذلك في الأساس إلى الصعوبات الناجمة عن تضخم مستوى الدعم على أسعار الفائدة المطبقة، وزيادة معدل القروض المعدومة (أي التي لا يتم سداد أقساطها أو جزء منها)، ذلك بالإضافة إلى ارتفاع تكلفة إدارة هذه القروض.

ونظراً للنجاح المحدود للقروض الدراسية ذات المعدلات الثابتة لسداد الأقساط، اتجه عدد متزايد من الدول إلى تطبيق نوعية من القروض يتم حساب معدلات سداد أقساطها كنسبة من الدخل السنوي الذي يحققه الخريج (income-contingent-loans). وتتميز هذه النوعية من القروض بسهولة إدارتها نظراً لأنها تتشابه - إلى حد كبير - مع نظم إدارة الضرائب على الدخل وبرامج التأمينات الاجتماعية. وفي كل الأحوال، فإن هذه القروض حققت التوازن المطلوب بين معدلات تغطية أصل القرض من ناحية، ومرونة عملية إدارتها من ناحية أخرى. وتفيد بعض تجارب التطبيق أن السويد - على سبيل المثال - قد خفضت أقساط سداد القروض الطلابية إلى نحو (٤٪) من دخل الخريج وذلك



تفيد المؤشــــرات التعليميـــــة إلى تنـــامي هــذا التوجـــــه الرامـــــي إلى تطبيـــق المشاركـــــة في التكلفة من قبـــل الطـــلاب

لتقليل فرص التعثر في سداد القروض.

وبرغم سعي الحكومات الوطنية إلى توفير القروض الميسرة للطلاب المميزين وغير القادرين ماليًا لاستخدامها في سداد المصروفات الدراسية، فإن هناك العديد من الطلاب الذين يصعب عليهم أيضًا توفير تكلفة إعاشتهم خلال فترة الدراسة. وبهدف ضمان تساوي حقوق الالتحاق لمعظم الشرائح الطلابية، تتجه بعض الحكومات إلى دعم الطلاب المتميزين علميًا لاستكمال دراستهم الجامعية. فعندما اتخذت دولة الفليبين قرارًا برفع الرسوم الدراسية، قامت - في نفس الوقت - بإنشاء صندوق لدعم الطلاب الذين ينتمون إلى عائلات ذات دخل منخفض من خلال منح وإعانات. وفي جامعة القاهرة تقوم مكاتب رعاية الشباب بالكليات في القيام ببحوث اجتماعية عن الطلاب محدودي الدخل بهدف إعفائهم من جزء من المصروفات الدراسية. كما تقدم الجامعات الشيلية أيضًا منحًا أو هبات مالية للطلاب غير القادرين. ويمثل نظام التكافل الاجتماعي الذي تتبناه كلية التجارة بجامعة القاهرة أحد الأنظمة الواعدة لدعم الطلاب. إذ أنشأت الكلية صندوقًا للتكافل الاجتماعي يمول من خلال منح مالية يقدمها القطاع الخاص بوجه عام، وكذا رجال الأعمال من خريجي الكلية على وجه الخصوص. ولضمان تحقيق الفائدة المرجوة من الصندوق، فإن أمواله تستخدم في الدعم العيني للطلاب من خلال سداد تكلفة الغذاء بالجامعة أو توفير ملابس بالاتفاق مع بعض الشركات الإنتاجية أو سداد قيمة الكتب الدراسية. هذا وقد قامت الكلية بإعداد قاعدة معلومات متكاملة عن الطلاب تتضمن مؤشرات دالة على الحالة الاجتماعية لعائلاتهم من حيث القدرة على سداد الالتزامات المالية لدراسة أبنائهم.

وأخيرًا تمثل برامج الدراسة والعمل بعض الوقت للطلاب (student work-study program) إحدى الطرق البديلة للمساعدة المالية، حيث يمكن للطالب غير القادر أن يكلف ببعض الأعمال الجزئية واستخدام عائدها لسداد التزاماته المالية خلال الدراسة. وبالطبع فإن تطبيق هذا البرنامج يكون أكثر نجاحًا على مستوى الدراسات العليا حيث يكون الطالب قد أنهى دراسته الأساسية الجامعية واكتسب الخبرات اللازمة للقيام ببعض الأعمال الأكاديمية والإدارية بالجامعة أو خارجها.

ويتميز هذا التوجه بأنه يحفز المنافسة بين مؤسسات التعليم العالي للارتقاء بالأداء الأكاديمي من ناحية، ويعطي للسلطات الحكومية مؤشرات مفيدة عن سوق التعليم العالي والطلب على الخدمات الدراسية من ناحية أخرى.

كفاءة تخصيص الموارد المالية

بما أن الميزانية العامة للحكومة مازالت تمثل أهم مصادر تمويل نظم التعليم العالي بالدول النامية، وفي ظل التراجع المتوقع مستقبلاً لدور الدولة في دعم التعليم العالي والبحث العلمي، يصبح تحقيق التخصيص أو الاستخدام الأمثل للموارد المالية أمرًا ضروريا.

وتأسيسًا على ذلك، فإنه يتعين على الحكومات الوطنية أن تضع قطعًا متكاملة تتضمن الضوابط والمعايير التي تسمح بالتخصيص الأمثل لجوانب الإنفاق على التعليم وتحقيق أفضل استخدام للموارد المالية الحكومية المحدودة.

ويمكن تصنيف الأساليب المتبعة بالجامعات لإعداد موازناتها المالية على النحو التالي:

١ - الميزانيات التفاوضية (negotiated budgets): وهي الميزانيات التي تتحدد من خلال التفاوض بين إدارة الجامعة والسلطات الحكومية المختصة (مثل وزارة المالية ووزارة التخطيط).

٢ - الميزانيات المعتمدة على مدخلات العملية التعليمية (input-based budgeting): وهي الميزانيات التي تتحدد أبوابها بصيغة محاسبية تعتمد على معدلات الالتحاق بالمؤسسة التعليمية ونصيب الطالب من الإنفاق الجاري والرأسمالي للوصول إلى النسب المالية لتوزيع الموارد.

٣ - الميزانيات المعتمدة على مخرجات العملية التعليمية (output-based budgeting): وهي تمثل نوعية من الميزانيات التي تعتمد في تخصيص الموارد المالية العامة للمؤسسات التعليمية وفق معيار إعداد الخريجين ومستوى كفاءتهم العلمية.

٤ - الميزانيات المعتمدة على كفاءة العملية التعليمية (quality-based budgeting) وهي الميزانيات التي تعتمد على ربط تخصيص الموارد المالية الحكومية بمستويات أداء المؤسسات التعليمية.

وتفيد مؤشرات التعليم العالي على المستوى الدولي أن الميزانية التفاوضية تمثل أكثر الوسائل شيوعًا لتوزيع الموارد المالية العامة على المؤسسات التعليمية. وفي غالب الأحيان تتحدد مخصصات أبواب الميزانية - وفق هذا الأسلوب - بناءً على حجم التمويل خلال السنة السابقة والتوجهات الاقتصادية والمالية للحكومة فيما يخص تخصيص الموارد. وبالطبع، فإن هذا الأسلوب في تقدير الميزانية يعجز عن توفير الحوافز اللازمة لتحقيق كفاءة الأداء المالي من ناحية، ويؤدي إلى صعوبة مواءمة الموارد المالية المتاحة للتقلبات في المناخ التعليمي، من ناحية أخرى.

ومن المؤكد أنه يصعب على الحكومات - في ظل غياب معايير موضوعية للتقييم ومعلومات كافية عن أداء المؤسسات التعليمية الوطنية - أن تحقق التوزيع الأمثل للموارد المالية العامة على الجامعات.

ومن هنا يغيب عن متخذ القرار السياسي معايير أخرى مهمة مثل كفاءة أداء المؤسسات التعليمية وضمان جودة برامجها الأكاديمية عند توزيع الموارد المالية العامة.

وبناء على ما سبق، فإن توجه معظم الحكومات - عند حدوث تخفيض عام في الإنفاق الحكومي - أن تجري تخفيضات متساوية على معظم بنود ميزانية التعليم، دون القيام بدراسة للبرامج الدراسية والنظم الأكاديمية التي يمكن تخفيضها دون التأثير - بشكل كبير - في معدلات أداء نظام التعليم العالي.

وللتغلب على عيوب النظام المعتمد على مدخلات العملية التعليمية، اتبعت بعض الدول أسلوبًا تمويليًا يعتمد على قدرة المؤسسات التعليمية على إعداد خريجين على مستوى مقبول من الكفاءة. ففي دول مثل أستراليا والدانمارك وهولندا، ساهم الأسلوب المعتمد على مخرجات العملية التعليمية في تقليل تسرب الطلاب ومعدلات رسوبهم بالإضافة إلى تحسين كفاءة نظم التعليم العالي الحكومية واستخدام موارد المالية العامة. وتكمن أهم عيوب هذا الأسلوب في تركيزه على كم الخريجين أكثر من جودة مستوى البرامج التي تقدمها مؤسسات التدريب والتعليم. أما الأسلوب الحديث للتمويل - الذي بدأت في استخدامه بعض الدول - فيتجه إلى تخصيص نسبة أعلى من الدعم المالي الحكومي إلى المؤسسات التعليمية الأكثر جودة في الأداء وقدرة على تنظيم العملية التدريسية والبحثية.

وعلى وجه العموم فإن الصيغ المستخدمة لتمويل ميزانيات المؤسسات التعليمية، يجب أن تتسم بالشفافية والمرونة وتأخذ في اعتبارها التكلفة المعيارية لمختلف المستويات التعليمية والبرامج الأكاديمية. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن تشجع الصيغة التمويلية الجودة الداخلية للمؤسسات من خلال حجم التمويل بالفترة الزمنية اللازمة للحصول على درجة جامعية، على سبيل المثال، وأخيرًا يجب أن تعكس الصيغة المستخدمة في إعداد الميزانية التعليمية التوجه إلى تقليل الإنفاق على الأنشطة غير التعليمية والتركيز على التدريب والبحث العلمي. ■

جامعات للربح

تعليم بالخسارة

محـــــمد أبو الغــــار

■■ خلال الحقبة الأخيرة حدث تحول جذري في تفكير وفلسفة الدولة المصرية تجاه دور القطاع الخاص وحجمه في ملكية وسائل الإنتاج ودوره في التنمية بشكل عام. ويرجع هذا التحول التدريجي في فكر الدولة والذي تم خلال ثلاثة عقود إلى تغيير جذري في فكر الحكام الذين نالوا تعليماً مختلفاً عمن سبقوهم وتشكل وجدانهم بثقافة مختلفة ولكن العامل الحاسم في هذا التحول هو انتصار المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة وهزيمة الماركسية وتفكك المعسكر الاشتراكي وصاحب ذلك ضغوط خارجيه على مصر جمعت بين الترغيب والمساعدة من ناحية والضغط السياسي والاقتصادي من ناحية أخرى. وقد طالت ما يسمى بالخصخصة عدة قطاعات إنتاجية مختلفة ولكن خصخصة التعليم الجامعي بدأ الكلام عنه مؤخراً بصوت هامس ارتفع تدريجياً وسبقت له المبررات المختلفة حتى أصبح هو قرار الدولة التي تحاول أن تجد الوقت والطريقة المناسبة لتنفيذه، وتؤجله قليلاً خوفاً من رد فعل شعبي غاضب وهادر قد يهدد كيان الدولة المصرية التي فقدت شعبيتها ومكانتها في قلوب الجماهير.

من المعروف تاريخياً أنه كانت هناك نسبة هامة من التعليم ما قبل الجامعي تابعة بشكل كامل أو جزئي للقطاع الخاص ويدفع فيها التلاميذ مصروفات مقابل التعليم ومن المعروف أن هذه النسبة قد تقلصت بعد عدوان ١٩٥٦ حين أممت المدارس الفرنسية والإنجليزية وأصبح التعليم ما قبل الجامعي تشرف عليه الحكومة المصرية بالكامل وأصبح من المستحيل أن يدخل الطفل المصري مدرسة في بلده ولا يتعلم فيها اللغة العربية وكذلك تاريخ مصر والمنطقة العربية ولكن حتى بعد أن وضعت الحكومة المدارس الأجنبية والخاصة تحت إشرافها، استمر فيها التعليم بالمصروفات ولكن كان معظمها مصاريف معقولة في متناول يد الطبقة الوسطى التي تعلم الكثير من أبنائها في هذه المدارس. وتبقت مدارس أجنبية تعد على أصابع اليد الواحدة لأبناء الأجانب ومنعت الدولة أولاد المصريين من دخول هذه المدارس بالقانون.

ومنذ منتصف السبعينيات حدث توسع هائل في المدارس الخاصة التابعة لجهات أجنبية أو هيئات مصرية أو أفراد. وفتحت أبواب المدارس الأجنبية التي لا تدرس اللغة العربية ولا تاريخ مصر على مصرعيها أمام أولاد وبنات الأغنياء المصريين الذين دفعوا مبالغ طائلة من عدة آلاف من الدولارات، وفي النهاية لا يستطيع معظم هؤلاء التلاميذ حتى كتابة أسمائهم بالعربية، بالإضافة إلى الجهل المطبق بتاريخ وجغرافية مصر. وتعاظمت مصاريف هذه المدارس والتي أصبحت بعيدة من متناول الطبقة الوسطى وصاحب ذلك انهيار في التعليم الحكومي المجاني وبالرغم من أن التعليم الخاص أصبح يسيطر على جزء هام من التعليم العام إلا أن صمام الأمان كان دائماً موجوداً في وجود امتحانات الابتدائية والاعدادية والثانوية العامة التي أعطت فرص متكافئة للجميع. إلا أن الباب أصبح مفتوحاً لنسبة محدودة من خريجي المدارس التي لا تعلم العربية لدخول الجامعة المصرية، وفيما عدا ذلك كان دخول الجامعة يتم بمنافسة حرة بين الجميع، صحيح أن طلبة المدارس الخاصة والمميزة كانت فرصتهم في الحصول على درجات عالية أكبر بكثير من تلاميذ المدارس الحكومية وخاصة في الأقاليم والأحياء العشوائية حيث ينحدر مستوى التعليم بشدة ولكن نتائج الثانوية العامة كانت توضح أن هناك أعداداً من المتفوقين من كل أنحاء البلاد حتى النائية منها.



التعليم العالي الخاص في مصر

الجامعة الأمريكية التي أنشئت في عام ١٩٢٠ هي أقدم مؤسسة في مصر للتعليم الجامعي الخاص غير الخاضع لإشراف الدولة ولكنها كانت معزولة تماماً عن المجتمع المصري الحقيقي وأعداد طلبتها كانت محدودة جداً فمثلاً في عام ١٩٤٥ كان كل الطلبة الذين التحقوا بالجامعة الأمريكية ١٣٤ طالباً معظمهم من الأجانب أو المصريين ذوي الأصول الأجنبية.

وكانت هناك أيضاً بعض المعاهد العليا الخاصة ومدة الدراسة بها كانت قصيرة في مدد أقصاها سنتين لتعليم بعض التخصصات مثل الفندقة والسكرتارية وغيرها ولم تكن هذه المعاهد مرتفعة المستوى ولا كانت مصاريف التعليم فيها مرتفعة وكان يدخلها أبناء الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى أو الطبقات الفقيرة الذين لم تتح لهم فرص التعليم العالي بسبب ضعف درجاتهم.

وقد حدثت طفرة هائلة في مرحلة تالية في التعليم العالي الخاص بإنشاء

عدد من الجامعات الخاصة المملوكة لأفراد وكذلك عدد كبير من المعاهد العليا الخاصة أيضاً.

وفى السنوات الأخيرة لأسباب تتعلق بتغير فلسفة الدولة عموماً من ناحية ولأسباب ضعف الاقتصاد المصرى المتناهى وقلة الأموال المتاحة للأنفاق على التعليم من ناحية أخرى بدأ التفكير جدياً فى خصخصة التعليم الجامعى الحكومى، وكعادة الحكومة لم تكن عندها خطة واضحة لتنفيذ الخصخصة ولا تم طرح الموضوع على الجامعيين المهتمين بالأمر لمناقشته وإنما تم عرضه على مجموعة من الأساتذة القياديين الموالين للحكومة المعروف عنهم مسبقاً تأييد الحكومة بصفة مستمرة بدون تفكير وذلك ليوافقوا على تنفيذ ما سبق أن تم تقريره وللأسف يتبارى بعضهم فى تأييد أفكار خصخصة التعليم حرصاً على مستقبلهم السياسى فى الترقى الجامعى والترقى السياسى خارج الجامعة بدون دراسة حقيقية لخطورة هذا الموضوع.

عندما نتكلم عن التعليم العالى دعنا أولاً نقسم الأمر إلى جامعات ومعاهد عليا مصرية حكومية وأخرى خاصة.

أما عن الجامعات المصرية الحكومية فقد ارتفع عددها من ثلاث جامعات عند قيام الثورة إلى أربعة جامعات بإنضمام جامعة أسيوط لها لعدة سنوات ثم افتتحت جامعات جديدة غطت معظم الوجة البحرى بالأضافة إلى فروع الفيوم وبنى سويف وجامعة المنيا وجنوب الوادى من الجامعات الجديدة فى الصعيد.

وفى النصف الثانى من الخمسينيات وحقبة الستينيات أنشأت الدولة معاهد تعليمية عليا مجانية فى معظم المحافظات وغلبت عليها فلسفة إنشاء معاهد هندسية أو تكنولوجية غطت فروعاً أخرى من المعرفة وكانت هذه المعاهد وعاء كبيراً لاستيعاب أعداد هائلة من الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية بنجاح. وبالرغم من أن فلسفة إنشاء هذه المعاهد العليا كانت صائبة وكان الغرض تخريج مهندسين وفنيين فى مختلف الفروع قادرين على استيعاب وتطبيق التكنولوجيا والتطور وكان المقصود أن يكون فيها التعليم فى معظمة تطبيقياً وعملياً إلا أن هذه الفكرة وئدت وحولت المعاهد إلى كليات وأنشأت جامعة حلوان لتضم معظم هذه المعاهد تحت لوائها، وكان هذا خطأ حكومياً اتخذ بدون دراسة فقضى على نوعية هامة من التعليم خطط لها بدراسة كبيرة وتم التنفيذ ولكن كالعادة أهدرت الفكرة ببساطة.

وهناك طرق مختلفة متاحة أمام الحكومة لخصخصة التعليم الجامعى:

١- إعادة نظام دفع مصاريف دراسية كاملة مقابل خدمة التعليم الجامعى لجميع الطلبة ويعنى ذلك إلغاء المجانية بالكامل.

٢ دفع مصاريف دراسية للطلبة كلهم مع إعفاء المتفوقين.

٣- تخصيص نسبة من الطلبة الذين يدخلون الجامعة بالمصاريف وهو ما تسميه الحكومة بالتعليم الموازى مع استمرار التعليم المجانى لبقية الطلاب.

٤ إنشاء جامعات حكومية جديدة بالمصاريف لجميع طلبتها وترك الجامعات الحكومية كما هى بالمجان.

٥- تشجيع القطاع الخاص على التوسع فى إنشاء الجامعات الخاصة وتقليص الجامعات الحكومية المجانية.

قبل أن نبدأ الحديث عن فلسفة التعليم بالمصاريف والتى يتحدث عنها الجميع من رجال الدولة وأصحاب المناصب العليا الذين يديرون الجامعات الحكومية فى مصر يجب أن نعرف أن ما يقال فى كل مكان الآن من أن التعليم بالمجان قد ولى عهده فى العالم وأن الدنيا كلها يتم التعليم فيها بالمصاريف هو كلام غير صحيح وغير دقيق وحقيقة الأمر أن التعليم الجامعى المجانى هو سمة هذا العصر فى معظم دول أوروبا الغربية بدءاً من الدول الاسكندنافية شمالاً مروراً بألمانيا ودول البنيلوكس (هولانده وبلجيكا ولكسمبرج) ثم فرنسا وغيرها، كل هذه الدول تعطى فرصة التعليم الجامعى بالمجان لأبنائها

وبالإضافة إلى ذلك تعطى هذه الدول جميعاً قروضاً لأبنائها حتى يصرفوا على معيشتهم خلال فترة الدراسة وذلك بالإضافة إلى ما يكسبونه من العمل فى الأجازة الصيفية. وبالطبع أوروبا الشرقية والتى كانت شيوعية حتى عهد قريب مازال التعليم فيها بالمجان.

أما عن الولايات المتحدة مثلنا الأعلى فى التعليم وفى كل شىء فى الحياة الآن والتى يريدون أن نقتدى بها فصحيح أن الدراسة الجامعية بها تكلف مبالغ طائلة ولكن لا يوجد أمريكى واحد يريد التعلم فى الجامعة ويتميز بالجدية والتفوق لا يجد مكاناً عن طريق منحة أو مساعدة أو العمل فى الصيف وحتى أثناء الدراسة. فظروف المجتمع الأمريكى المفتوح تسمح بطرق مختلفة للطالب الفقير المجتهد أن يدخل الجامعة ويتخرج عنها بل إن أمريكا تفخر دائماً بأن الفرصة موجودة للجميع والطريق ممهد لمن يثابر ويثبت كفاءته. ويذكر الجميع أن الرئيس الأمريكى السابق كلينتون الذى كان يأتى من أصول اجتماعية متواضعة للغاية وظروف عائلية صعبة ومع ذلك لأنه كفء ومثابر استطاع دخول الجامعة وتخرج منها بدون مشاكل بالرغم من أنه لم يكن يملك دفع مصاريف الجامعة.

إذاً فحكاية أنه لا يوجد تعليم مجانى فى العالم الآن مقولة تنقصها الدقة وعلى من يقولونها أن يتذكروا أن معظمهم لم يكن عندهم فرصة حقيقية فى التعليم العالى والوصول لمنصبه لو



منذ منتصف السبعينيات فتحت أبواب المدارس الأجنبية التى لا تدرس اللغة العربيـــة ولا تاريخ مصر على مصراعيها أمام أولاد وبنـــات الأغنيـــاء المصريين: وفى النهايـــة لا يستطيع معظم هـؤلاء التلاميـذ حتى كتابـــة أسمائهـــم بالعربيـــة

لم يكن التعليم العالى المجانى متاحاً لهم ولنتذكر ما كتبه دكتور رءوف عباس استاذ التاريخ حديثاً فى سيرته الذاتية عن فقره الشديد وعن عجزه عن دفع ثمانية عشر جنيها هى مصاريف كلية الآداب وحتى عدم قدرته على دفع مبلغ ثلاثة جنيهات بعد أن تم إعطاؤه المجانية له وإعفاؤه من المصاريف. ولو كان التعليم بالمصاريف لما كانت هناك فرصة لرءوف عباس وغيره من الكثيرين من الذين يتشدقون بإلغاء المجانية الآن.

نأتى الآن إلى مناقشة الطرق المختلفة المتاحة للحكومة لخصخصة التعليم والتى ذكرناها مسبقاً ومدى إمكانية تطبيقها فى الواقع العملى.

أولاً:

التعليم بالمصروفات وإلغاء المجانية

هو حل مستحيل تطبيقه من هذه الدولة المصرية الضعيفة المترهلة التى لا تستطيع أن تطلب من واضع أسئلة الثانوية العامة أن تكون أسئلته متدرجة فى الصعوبة، ليحتوى على السهل والوسط والصعب والأكثر صعوبة للتفرقة بين الطلاب وإعطاء فرصة لظهور المتفوقين بوضوح. وإذا وضع سؤال واحد صعب تعتذر الدولة عن ذلك ويصرح وزير التعليم فى الصحف والتليفزيون بأن هذا السؤال الصعب سوف تحذف درجاته، هذه الدولة التى ترفع أعداد الملتحقين بالجامعات كل عام حتى تستوعب الجامعات معظم الحاصلين على الثانوية العامة ضاربة عرض الحائط بإمكانيات الكليات المختلفة ورأى الأساتذة والنقابات التى تخشى من تردى مستوى مزاولى المهنة بسبب عدم وجود فرصة لتدريبهم. هذه الدوله لم ولن ولا يمكن أن تقوم بإلغاء مجانية التعليم الجامعى خوفاً على مستقبلها ولذا فهذا الحل غير وارد ولا يمكن للدولة تطبيقه.

ثانياً:

الجامعة بمصاريف باستثناء المتفوقين

من المسلم به أن أى مصاريف تحددها الجامعة للقبول بها سوف تتناسب مع مستوى متوسط الدخل فى مصر فإذا طلبت الجامعة عدة آلاف من الجنيهات لدخول كلية التجارة أو الزراعة مثلاً فلن يتعلم أحد

وإذا خفضت المصاريف إلى بضع مئات من الجنيهات في هذه الكليات فسوف يحرم عدد كبير من الطلبة الذين لا يملكون هذه المئات من الالتحاق بالجامعة وفي نفس الوقت لن يكون العائد المادي من المصروفات القليلة مجزيا نسبيا حتى يضيف شيئاً ذا قيمة إلى إيرادات الجامعة. يبقى بعض كليات ما يسمى بالقمة مثل كلية الطب التي قد يتسابق الأغنياء على دفع مصروفات عالية لإدخال أبنائهم بها ولكن حيث إن المتفوقين سوف يعفون من المصاريف فمعنى ذلك أن جميع الطلبة سوف لا يدفعون شيئاً لأن أقل مجموع لدخول الطب يزيد عن تسعين بالمائة وقد يصل إلى أكثر من ذلك ويعني أن كليات الطب والهندسة والصيدلة سوف تستمر مجانية ولن تحقق أية إيرادات للجامعة لأن الجميع متفوقون وبالتالي لن يفيد الدولة هذا الاقتراح في شيء لأنه سوف ينتهي بجمع بضعة آلاف من الجنيهات من الكليات التي لا يقبل عليها الطلاب.

ثالثاً:

التعليم الموازي

هذا هو أحد الحلول التوفيقية التي وصلت إليها أفكار الإدارة الجامعية وهي أقوى وأهم الحلول من وجهة نظر الدولة وملخص الحل أن تستمر الجامعة كما هي بالتعليم المجاني والدخول عن طريق مكتب التنسيق حيث هناك تكافؤ للفرص بين المتقدمين على أن تخصص نسبة من الطلبة قيل أنها قد تكون عشرين بالمائة كبداية تدخل الجامعة بالمصروفات، أما طريقة اختيار هؤلاء الطلبة فلم يتم الاتفاق عليها. وهذا الحل في تقديري هو حل مأسوي للأسباب التالية:

أولاً: هل سوف يقبل الطلبة الأغنياء على هذا النوع من التعليم والإجابة نعم ولكن فقط في كليات القمة أما باقي الكليات فلن يدفع أحد مصاريف ضخمة لدخول هذه الكليات وهذا يعني أن أعداد الطلبة الذين سوف يدخلون بالمصاريف عن طريق التعليم الموازي سوف يكونون عدة مئات في كليات القمة ولن تكون مساندتهم المالية إلا جزءاً ضئيلاً من ميزانية الجامعة.

ثانياً: ما هي طريقة اختيار هؤلاء الطلبة الدافعين للمصاريف: هل هي لمن يدفع أكثر أم هي أيضاً حسب المجموع للذين يريدون أن يدفعوا أم هي باختيارات شخصية وهو ما يعني الوساطة ويصبح دخول كلية الطب مثل كلية الشرطة معتمداً على الوساطة والاتصالات الشخصية.

ثالثاً: هل سيجلس من يدفع بجوار من لا يدفع في نفس المدرج ويتعلم على يد نفس الأستاذ أم سوف تخصص قاعات لمن يدفعون ويخصص لهم أساتذة بعينهم وهل سيتقاضى الأساتذة أجوراً إضافية عند التدريس للدافعين وهل سوف يحدث تكالب على التدريس لمن يدفعون وفي النهاية - هل سوف يدخل جميع الطلبة نفس الامتحان أم سوف يمتحن كل فريق على حدة.

هل يعلم السادة الحكام أن الاحتقان في المجتمع الجامعي أصبح لا يطاق بسبب الفوارق الشاسعة بين الطبقات والفروق بين طالب يدخل الكلية راكباً سيارة ثمنها نصف مليون جنيه وطالب آخر لا يجد ثمن تذكرة الميكروباص أصبحت من الأمور العادية في الجامعة وهل سوف تشعل الفتيل بأيدينا حين يشعر الطالب داخل نفس الكلية أن زميلاً له مميز عنه لأنه يدفع فيحدث الانفجار. ألا نفكر ولو للحظة في السلام الاجتماعي في هذا الوطن. لقد قرأنا أن التعليم الموازي قد تقرر بدؤه من هذا العام الدراسي ثم أجل الأمر فجأة فلا إقراره تمت دراسته ولا الغاؤه درس فعل لنا أن نفكر قليلاً قبل أن نقدم على كارثة محققة.

رابعاً: إنشاء جامعات حكومية جديدة على أن تكون جامعة خاصة بالمصاريف.

هل عند الحكومة المصرية استثمارات إنشاء جامعة بالمصاريف: إن الخبراء الجامعيين يعلمون جيداً حجم الاستثمارات المطلوبة في مثل هذا المشروع ولو تم حساب تكلفة المشروع وإضافته في حساب المصاريف المطلوبة من الطالب سوف يكون مبلغاً فلكياً لا يستطيع إلا أقل القليل من المصريين دفع هذا المبلغ وهذه الفئة قادرة على إرسال أولادها إلى الخارج للتعليم وهذا يعني أن أي جامعة حكومية خاصة لابد أن تكون مدعومة على الأقل بتكلفة الإنشاءات اللازمة.

أما إذا قررت الحكومة إنشاء جامعة حكومية خاصة قليلة التكاليف ومعدومة الإمكانيات على شاكلة الجامعات الخاصة الحالية فلماذا ننشئها أصلاً ولنترك التلاميذ يدخلون الجامعات الخاصة الحالية المحدودة الإمكانيات.

خامساً: هو تشجيع القطاع الخاص والدول الأجنبية على التوسع في إنشاء الجامعات الخاصة.

بالرغم من أن الجامعة المصرية التي أنشئت في أوائل القرن العشرين كانت جامعة خاصة إلا أنها كانت في حقيقة الأمر كلية للآداب فقط وحين أنشئت الجامعة المصرية الحكومية (فؤاد الأول - القاهرة) كانت أيضاً جامعة بالمصروفات ولكن كان الإعفاء من جزء من المصروفات أو كلها مفتوحاً على مصراعيه لغير القادرين. وبعد قيام الثورة ولمدة أكثر من نصف قرن أصبح التعليم الجامعي مجانياً في جميع مراحل التعليم العالي بأنواعه المختلفة.



كعادة الحكومة لم تكن عندها خطة واضحة لتنفيذ الخصخصة ولا تم طرح الموضوع على الجامعيين المهتمين وإنما تم عرضه على مجموعة من الأساتذة الموالين للحكومة المعروف عنهم مسبقاً تأييد الحكومة

هناك فارق جوهري بين الجامعات الخاصة التي أنشأها القطاع الخاص المصري وبين الجامعات الخاصة في كل العالم فالجامعة الخاصة في الولايات المتحدة هي جامعة أنشئت بأموال عدد من كبار الرأسماليين الأمريكيين الذين تبرعوا بأموال ضخمة لإنشاء الجامعة وهذه الجامعة الخاصة تتلقى التبرعات والهبات غير المشروطة من الأغنياء وتتقاضى أيضاً مصروفات من الطلبة وفي النهاية حين تحقق الجامعة فائضاً (وهو لا يسمى ربحاً) فإنما يستثمر هذا الفائض في تحسين المستوى العلمي للجامعة بإنشاء أقسام جديدة وشراء تجهيزات مستحدثة وتوظيف أساتذة مرموقين أي أن الأمر في نهايته ليس فيه أرباح توزع على أحد وإنشاء الجامعة لم يكن مشروعاً استثمارياً وإنما هو مشروع حضاري لخدمة المجتمع. أما هنا في مصر فإنشاء الجامعة الخاصة هو مشروع استثماري الغرض منه تحقيق الربح. والفارق كبير بين الجامعة التي تريد تحقيق ربح للمستثمرين فهي تريد دائماً قبول أعداد أكبر من الطلبة وتوفر في التكاليف بقدر الإمكان في كل شيء كأي مشروع تجاري وقد تتنازل عن المستوى العلمي في سبيل إغراء الطلبة بالالتحاق بالجامعة وقد تتبسط في الامتحانات لتشجيع الآخرين على دخول الجامعة. وأعرف شخصياً من زملاء يمتحنون طلبة الجامعات الحكومية والخاصة ويقولون بأن الفارق في المستوى رهيب ولن يكون لطلبة الجامعة الخاصة فرصة النجاح في جامعة حكومية. فمما لا شك فيه هذه الجامعات تريد أن تجذب الطلبة ولكنها قد تتنازل بسهولة عن مستوى معين لأن الطالب يدفع المصاريف وهي تريد هذه الأموال.

الجامعات الخاصة الأجنبية

الجامعة الخاصة لا يجب أن تكون مجالاً للربح وإنما هي خاصة لأن الطالب يدفع مصاريف مقابل التعليم وهذا الشرط ينطبق على الجامعة الأمريكية والألمانية والفرنسية التي لا تربح أموالا وإنما تربح من وراء تعليم الطلبة الدعاية للدولة صاحبة الجامعة وتخرج شباباً متعلماً يدين بالولاء والانتماء لهذه الدولة.

والجامعة الأكبر والأقدم وهي الجامعة الأمريكية ازدهرت بعد بدء سياسة الانفتاح وتغير الموقف تماماً

وأقبلت أعداد كبيرة من المصريين على الالتحاق بها بسبب انخفاض المجموع المطلوب مقارنة بالجامعة المصرية. وبسبب تطور التعليم فى الجامعة الأمريكية بما يناسب حاجة العمل فى مصر وأصبح خريج الجامعة الأمريكية مدرباً للعمل فى البنوك والشركات التى أنشئت بعد الانفتاح والسبب الآخر هو وجود طبقة من الأثرياء المصريين الذين يعتقدون أن التعليم الجامعى لأولادهم يجب أن يتم فى الخارج أو على الأقل بعيداً عن زحام المصريين ولكننا يجب أن تعلم أن هذه الجامعات الخاصة بما فيها الأمريكية لا تؤهل لشهادة الدكتوراة وهى ليست مكاناً لتخريج الباحثين والعلماء والأكاديميين وانما هى مكان لتعليم شباب مطلوب للعمل فى المؤسسات والشركات الأجنبية أما الخريج المميز المتفوق فإذا أراد تعليماً أعلى فعليه السفر للخارج للدراسة فى جامعة أجنبية للحصول على الدكتوراة، فكما هو معروف فإن التخرج من الجامعة فى النظام الأمريكى بعد ٤ سنوات من إنهاء الدراسة الثانوية لا يعنى أنك أنهيت الدراسة الجامعية وإنما هى إنهاء ما يسمى بالكوليج وبعد ذلك إذا قررت دراسة الطب أو الهندسة أو الحقوق أو الصيدلة أو الزراعة فعليك الالتحاق بهذه الكلية لتدرس عدداً آخر من السنوات قبل التخرج، ولكن معظم الطلبة بعد الحصول على درجة جامعية من الكوليج يلتحقون بسوق العمل ويتدربون على أعمال مختلفة. يعنى ذلك أن الدرجة الجامعية الأولى وبعض درجات الماجستير البسيطة من الجامعة الأمريكية لا تصلح أن تكون البناء الأساسى للتعليم الجامعى فى مصر.

ماذا تفعل الدولة للحفاظ على حقوق الشعب فى التعليم؟

١- ترشيد الإنفاق فى الدولة مما يوفر أموالا تصرف على التعليم الجامعة فهو مستقبل مصر.

٢- تشجيع البحث العلمى فى الجامعة حتى يستطيع أن يشارك فى زيادة الدخل الجامعى عن طريق بيع منتجة البحثى أو دراسته للمصانع والمتاجر والمشروعات الكبرى.

٣- التعليم المفتوح والتعليم عن بعد: وهى طرق تحقق إيرادات ودخل للجامعات وموجودة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية، ولكن يجب أن تنفذ كما تقتضى الأصول المهنية لأن هذه الطرق تحتم وجود كتب خاصة وشرائط مسجلة وشرائط فيديو ومعلومات ترسل من الأستاذ للطلبة بطرق مختلفة من ضمنها الإنترنت، ويقتضى هذا النظام أولا تدريب أعضاء هيئة التدريس على تحضير هذه المادة العلمية التى تختلف عن المادة العلمية التى تدرس للطلبة المنتظمين. وبالطبع يمكن بسهولة أن يقوم أعضاء هيئة التدريس بهذه المهمة بالطرق السليمة، وبهذه الطريقة لا يضاف عبء جديد على الأماكن المزدحمة فى الكليات ولا يؤثر على تعليم الطلبة المنتظمين. ولكن ما حدث عند تطبيق التعليم المفتوح والتعليم عن بعد بسبب عدم الدراسة وسوء التنظيم فى إدارة الجامعة. بعد أن طبقت الجامعة نظام التعليم عن بعد. احتج الطلبة الذين اشتركوا فيه وطالبوا بالحضور مقابل المبالغ التى دفعوها للجامعة. فتحول التعليم المفتوح إلى نظام تم تسميته بالانتساب الموجه وتضاعف عدد الطلاب المنتظمين بعضهم يدفعون ولكنهم حاصلون على مجموع أقل. وهو تحايل قامت به إدارة الجامعة لإرضاء هؤلاء الطلبة الذين يدفعون مصروفات ولا يتم تعليمهم عن بعد كما اتفق عليه، وإنما عن قرب فى نفس أماكن الطلبة المنتظمين مما أدى إلى ازدحام كبير وفوضى جامعية بسبب نظام تلفيقى يسمح بدخول الطلبة إلى التعليم المنتظم دون الحصول على المجموع المطلوب تحت مسمى اخترعته إدارة الجامعة وهو الانتساب الموجه. ويجب إلغاء هذا النظام وتحويلة مرة أخرى إلى التعليم المفتوح أو التعليم عن بعد مع تدريب أعضاء هيئة التدريس على تجهيز المواد العلمية المساعدة اللازمة لهذا النظام. وسوف تحقق الجامعة نفس الإيراد وتقلل الازدحام وتحقق العدالة فى الدخول للجامعة بالمجموع. والفوضى التى نتجت عن تغيير التعليم المفتوح لما تمت تسميته بالانتساب الموجه سوف تتكرر إذا طبق نظام التعليم الموازى.

٤- إنشاء دراسات لتعليم اللغات وبرامج الكمبيوتر وغيرها من متطلبات العصر فى الفترة المسائية. وهو ما تطبقه الجامعة الأمريكية بنجاح ويمكن أن يزيد إيرادات الجامعة المصرية.

٥- تشجيع إنشاء جامعات خاصة تابعة لجامعات أجنبية ذات سمعة عالية ويمكن أن تشمل جميع الكليات بما فيها كليات القمة لأن صمام الأمان هو ضمان تخريج دفعات على المستوى المطلوب لعدم وجود حافز الربح.

٦- إذا اضطرت الدولة إلى الموافقة على إنشاء جامعات خاصة تؤسس كمشروع استثمارى غرضه الأول هو الربح، فعلى الأقل يجب أن تشترط عدم الموافقة على جامعات بها كليات طب وهندسة وصيدلة وطب أسنان للأسباب التالية:

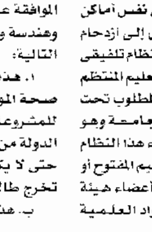
ا. هذه المهن مسئولة مباشرة عن صحة المواطن أو الأسس الهندسية للمشروعات القومية ويجب أن تتأكد الدولة من مستوى خريجى هذه الكليات حتى لا يكون الربح عاملاً فى قبول أو تخرج طالب دون المستوى.

ب. هذه المهن بها فائض من خريجى الجامعات الحكومية والتى يلزمها التدريب وليس زيادة الأعداد.

ج. هذه الكليات هى التى تهم الجامعة الخاصة لأنها تحقق أعلى ربحية لها وهذه الكليات مستعدة للتنازل عن المستوى المطلوب طبقاً لقوانين السوق وليس حسب القواعد الجامعية.

من المستحيل أن ترفع الدولة يدها عن تمويل التعليم الجامعى مع السيطرة عليه فعدم دعم التعليم لابد أن يستلزمه ترك الحرية للجامعات لاختيار الأساتذة الأكفاء والاستغناء عن البيروقراطيين من الحكوميين وأيضا يجب ترك الحرية للطلاب لتكوين اتحاداتها بالانتخاب الحر كجزء من هذا التفكير. ولا يمكن أن تتبع نظام التعليم الأمريكى فى ظل نظام سياسى واجتماعى ذى سلطة مركزية شديدة تتحكم فى كل شىء فأول مبادىء التعليم الجامعى الأمريكى الخاص هو الحرية الكاملة لكل جامعة بما فيها أساتذتها وطلابها. ولن يستطيع النظام المصرى تحجيم النشاط السياسى والثقافى للأساتذة والطلاب كما يحدث الآن فى نظام يتحكم فيه القطاع الخاص والطالب الذى يدفع مصروفات مقابل تعليمه، وهذا ما لا يمكن أن يسمح به النظام الحالى فى مصر.

من هذه الدراسة البسيطة يتضح أن هناك حاجة فى زيادة عدد الطلبة الذين يرغبون فى الالتحاق بالجامعة ونعلم أيضا أن الموارد محدودة بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة ولكن محاولة حل هذه الإشكالية بإلغاء التعليم الجامعى المجانى لن يزيد الإيرادات كما نتخيل أو نتوقع للأسباب التى ذكرتها ولن يحل إلغاء المجانية هذه الإشكالية وإذا كانت الدولة غير قادرة فعلا على إتاحة التعليم الجامعى لمن يريد وإذا وجد أن ذلك مستحيل فلتقلل من أعداد طلاب الجامعات على أن تكون الأولوية للمتفوقين حسب مجموع الثانوية العامة وليس حسب ما يملكه آباء هؤلاء الطلبة من أموال. ويترك القطاع الخاص للأغنياء الذين لا يؤهلهم مستواهم العلمى لدخول الجامعة الحكومية على أن لا تحتوى الجامعات الخاصة على كليات جامعية مما يسمى بكليات القمة إلا فى جامعات أجنبية لا يكون الهدف منها الربح للمساهمين مثل الجامعات الأمريكية والألمانية والفرنسية والبريطانية وأية جامعة مصرية لا يكون هدفها الربح. ■



ما يقـــال فى كـــل مكـــان من أن التعليم بالمجـــان ولى عهده وأن الدنيا كلهـــا يتـــم التعليـــم فيهـــا بالمصــــاريف هـــو كـــلام غير صحيـــح وحقيقـــة الأمر أن التعليـــم الجامعـــى المجـــانى هو سمـــة هـــذا العصـــر

«ولاد ناس»..!

سوق العمالة في مصر

غادة برسوم

تناقش هذه الدراسة - وهي جزء من رسالة ماجستير قدمت في الجامعة الأمريكية قسم الأنثروبولوجيا ونشرت حديثا - أزمة عمالة الخريجات في الأعمال الإدارية في مصر. وتبين الدراسة أن سوق العمل للخريجات تعطي الأولوية لمن يتقن اللغات الأجنبية ويتحلين بسلوكيات الصفوة - من وصفهن أصحاب الأعمال وشركات التوظيف بأنهن «أولاد ناس» أو بالأحرى «بنات ناس». تناقش هذه الدراسة هذا التركيب الثقافي المسمى بـ «بنات الناس» ودوره المعقد في استبعاد فئة ليست بقليلة من الخريجات اللاتي لا يملكن مواصفاته. حيث تضع هذه المناضلة الخريجات اللاتي لا يمتلكن هذه المواصفات في موقف خاسر لأنها تستبعدهن من الوظائف المميزة في مجال العمل الإداري. وتفيد الدراسات الإحصائية أن الوظائف الإدارية أحد أهم أربعة مجالات لعمل المرأة في مصر وهي الأعمال الإدارية، البيع، العمل بأجر في المنازل والتدريس. وبسبب ندرة فرص العمل في القطاع الخاص وقلة التعيين في القطاع العام فإن عدد الخريجين قد فاق الطلب مما خلق بيئة تنافسية تحصل فيها الخريجات اللاتي يمتلكن هذه الصفات على الوظائف المتميزة بينما يتم استبعاد الأخريات.

ومن هنا تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على هذا الاستبعاد وتوضيح كيفية تعامل الخريجات مع الاختيارات المتاحة لهن باختيار أفضل ما يناسبهن من فرص العمل المتاحة. كما تبين أيضا مسئولية نظام التعليم عن هذا الاستبعاد بسبب الفجوة المعرفية بين كل من التعليم العام والخاص وبالأخص في ربط فرص تعلم اللغات الأجنبية بالتعليم الخاص والذي يرتبط بدوره بالمستوى الاقتصادي لأسرة الخريجة.

وفي ظل عدم القدرة على إيجاد وظيفة مناسبة في شركة كبيرة يبقى للخريجة التي لا تمتلك مواصفات «بنت الناس» إما أن تقنع بوظيفة متواضعة أو أن «تحترم نفسها وتقعد في المنزل»، كما تقول إحدى الخريجات، حيث إنه عادة ما تنطوي هذه الوظيفة على مرتب ضئيل وساعات عمل طويلة ناهيك عن الخوف من التحرش الجنسي نظراً لأن غالبية هذه الوظائف تكون في قطاع الأعمال الصغيرة أو المتناهية الصغر والتي توظف عدداً قليلاً من الموظفين.

أما أمل الخريجات اللاتي شملتهن الدراسة واللاتي يتم استبعادهن فهو العمل في القطاع الحكومي أو العام وهو حلم صعب المنال نظراً لتخلي الحكومة عن سياسة الستينيات في تشغيل الخريجين.

تتبع الدراسة المنهج البحثي الكيفي المعتاد في الأنثروبولوجي حيث تعتمد على مقابلات مطولة مع بعض الخريجات إلى جانب بعض أصحاب الأعمال ومكاتب التوظيف ومدرسين ومسئولين عن التوظيف في الجهات الحكومية. كما تحتوي على بيانات عن سوق العمل والتعليم في مصر من الجهات المختصة لتضع الدراسة في إطار المناخ الاقتصادي والاجتماعي العام.

■■ حينما سألت شركات التوظيف وبعض أصحاب الأعمال عن مواصفات الموظفة المثالية كانت هذه بعض الآراء:

«أهم حاجة إنجليزي كويس وكومبيوتر كويس ومظهر رائع والأهم من كده تكون بنت ناس». «تكون خريجة الجامعة الأمريكية وبتتكلم إنجليزي كويس». «حسنة المظهر، تعرف ازاي تتكلم، لبسها كويس، و مش مهم إيه شهادتها».

The Employment Crisis of Female Graduates in Egypt:
An Ethnographic Account
(أزمة عمالة الخريجات في مصر.. دراسة أثنوجرافية)
Edited by: Ghada F. Barsoum
Cairo - AUC Press, 120pp., 2002

ترجمة: إنجي غنام

وفيما يلي سأقوم بتحليل هذه المعايير التي تمثل القواعد الأساسية لعمليات الاستبعاد للخريجات الأقل حظا. كما أنّ هذه المعايير بها تحيز طبقي حيث إنها تركز على رأس المال الثقافي والرمزي للطبقات الأكثر تميزا (كما يناقش ذلك المفكر الفرنسي بيير بوردو في دراسته للمجتمع الفرنسي ١٩٨٤).

إنجليزي كويس

الصفة الأولى للمرشّحة هي إتقان اللغة الإنجليزية بشكل جيد. لاحظ Altbach (١٩٨٧) أنّ اللغة الأجنبية lingua franca في دول العالم الثالث فيما بعد الاستعمار، وهي الإنجليزية في حالة مصر، هي لغة المعرفة والقوة. كذلك تؤكد Haeri (١٩٩٧) نفس الفكرة مستندة على عملها الميداني في مصر. وتركز Haeri على مشكلة فرق القوة بين مختلف أنواع رأس المال اللغوي في مصر مشيرة إلى دور المؤسسات التعليمية في تثبيت قيمة أعلى للقدرة على التحدث باللغات الأجنبية في مصر. فاللغات الأجنبية، متضمنة الإنجليزية، هي رأس مال نادر بين جموع الخريجين. فهي رأس مال يصعب الحصول عليه بالنسبة إلى أغلبية الخريجين الذين تخرجوا من مدارس «عادية»، وهو الاسم الذي يُعطى - بشكل مبرر - إلى المدارس التي لا تُدرس فيها اللغات الأجنبية بتركيز. وتضم هذه المدارس أكثر من ٩٧٪ من طلاب المدرسة الابتدائية كما تشير إحصاءات وزارة التربية والتعليم (١٩٩٨ MoE). هذه الطبيعة المزدوجة لنظام التعليم في مصر تزيد من ندرة و بالتالي رفع قيمة رأس مال القدرة على التحدث بالإنجليزية أو بأي لغات أجنبية.

علاوة على ذلك، في عالم العمل، فإن شركات القطاع الخاص - التي تعتبر المصدر الرئيسي للتوظيف بعد شبه التعليق الكامل للتوظيف الحكومي - يجب أن تجاهد لكي تتنافس في عصر اقتصاد العولمة. والإنجليزية، اللغة العالمية للمال، هي بالتأكيد ضرورية. وكما أوضحت مقابلاتي مع وكلاء التوظيف وأرباب الأعمال، فإن الثقافة المشتركة للكثير من الشركات الكبرى في مصر هي في الغالب إنجليزية. المذكرات والمراسلات الداخلية في المكاتب - حتى في بعض الشركات المصرية تماما بدون شريك أجنبي - تكون باللغة الإنجليزية، حتى المحادثات غير الرسمية بين بعض الزملاء في هذه الشركات تكون بالإنجليزية، مع وجود



بعض الكلمات العربية، أو العكس بالعكس.

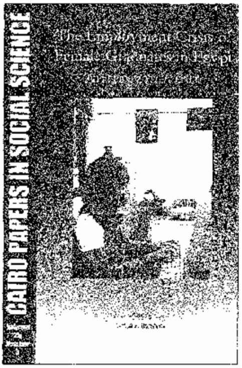
إتقان اللغة الإنجليزية هو رأس مال ثقافي متاح فقط لأولئك الذين ينتمون للطبقات المتميزة لذا فهو مؤشر مباشر عن الخلفية الاجتماعية. لذا تعلق إحدى موظفات شركة توظيف بأن:

الإنجليزي ضروري، حتى إذا لم تكن الوظيفة تتطلبه، فهو دليل على أن المرشح «راقي» (فبراير ١٩٩٩).

كما تشير المقابلات أنه ليس فقط المهم القدرة على فهم الإنجليزية والتواصل بها . فإن مستوى البراعة في استخدام اللغة الإنجليزية عند المرشح يتم تقييمها بطرق مختلفة. إحدى وكيلات التوظيف حدثتني عن مرشحة تم إرسالها إلى شركة نفط (معروف عنها ارتفاع مرتباتها) قبل أن تقوم هي شخصيا بإجراء مقابلة معها. وهذه المرشحة تم رفضها من الشركة. تضيف الوكيلة أنها عندما قابلت مديرة الوكالة المرشحة بنفسها، «أيقنت المشكلة». المشكلة كانت في طريقة نطق الباحثة عن الوظيفة لبعض الأصوات الإنجليزية والتي عكست قدراتها اللغوية المحدودة. كانت المشكلة في نطقها كلمة «that» بشكل مشابه لكلمة «zat» تشمل مشاكل النطق أيضا التشويش في نطق حرفي الـ «b» و«p» ولهذا السبب، رأت شركة النفط أن المرشحة ليست كفؤا. فالمستوى المطلوب من اللغة الإنجليزية أن تكون خالية من اللكنة المعرية. فليست الطلاقة هي ما يُهم فقط، إنما هي طلاقة باللهجة «الصحيحة». فاللهجة «الصحيحة» تفرق بين الـ «b» والـ «p» وتفرق بوضوح بين صوت الـ «s» و الـ «z» و الـ «th» بطرق نطقها المختلفة.

أن تكون المرشحة للوظيفة قادرة على النطق بلهجة «صحيحة» هي في الواقع سلعة نادرة في مصر. فالمدارس «العادية» لا تدرب طلابها على ذلك، وفي حالات كثيرة فإن المدرسين أنفسهم قد يواجهون مشاكل في التفريق بين الأصوات اللغوية السابقة الذكر كما قال لي أحد المدرسين. فامتلاك اللهجة «الصحيحة» متوقف على ارتياد المدارس الخاصة التي تضع أهمية كبيرة ليس فقط على النحو والمعجم ولكن أيضا على طريقة نطق تلاميذها. والمدرسة التي تعين مدرسا لغته الأم هي الإنجليزية ستكون بالتأكيد أفضل. وفي هذه الحالة، فإن مصاريف الدراسة سوف تعكس ضرورة تغطية راتب مدرس مغترب.

إن مهارات الكتابة بالإنجليزية، بالإضافة إلى النطق، هي أيضا مهمة فالتركيبة الصحيحة للجمل والقدرات



تعتقد حنان بأنّ ربّ عمل يجب أن يعينها، ثم يقدم لها الفرصة للحصول على تدريب الحاسوب، وربما أيضا أن يقوم بتمويل هذا التدريب. ولكن في سوق عمالة به فائض من الخريجين مثل حنان، هذه ليست طريقة توظيف سهلة المنال



النحوية أشياء أساسية. تعلق على ذلك إحدى موظفات شركة توظيف قائلة:

«عندما يكون ربّ العمل لا يتكلّم الإنجليزية، فهو يحتاج إلى سكرتيرة لتصحيح اللغة الإنجليزية في الرسائل المكتوبة. وإذا كان يجيد الإنجليزية، فهو لا يريد تضييع وقته في تصحيح ما تكتبه هي. وفي الحالتين، فإن إتقان اللغة الإنجليزية مطلوب في السكرتيرة».

من الصعب إخفاء عدم القدرة على التحدث باللغة الإنجليزية أو ادعاء العكس بالنسبة للمتقدمة للوظيفة. فمقابلة العمل تُجرى في معظم الأحيان باللغة الإنجليزية. وحتى السيرة الذاتية، التي عادة ما يتم إرسالها قبل تحديد موعد المقابلة، يجب أن تكون باللغة الإنجليزية. وبالطبع السيرة الذاتية يجب أن تكون خالية من الأخطاء اللغوية أو النحوية. و لقد سُمح لي برؤية العديد من السير الذاتية في إحدى شركات التوظيف وفي أثناء تصفحي لها كانت موظفة الشركة تشير إلى الأخطاء اللغوية أو النحوية الموجودة في أي سيرة ذاتية نقابلها.

لا تزال هناك فرصة أن تجد شركة التوظيف وظيفة لسكرتيرة لا تتكلم الإنجليزية. ولكن المرشحة للوظيفة يجب أن تكون:

«حركة وتعمل بقوة الـ monkey work. مش معنى كده أن موضوع الإنجليزي انتهى. لازم برضه تعرف ولو شوية إنجليزي».

فعدم امتلاك المرشحة للغة الإنجليزية «السليمة» قد يتم تحمله في هذه المرحلة. ولكن المرشحة مازال متوقعاً منها أن تكون قادرة على فهم وقراءة المراسلات المكتوبة باللغة الإنجليزية. وبالرغم من ذلك، سيكون عليها أن تعوض انخفاض مستوى إتقانها للغة عن طريق القيام بـ «monkey work» كما قالت محدثتي باللغة الإنجليزية مشيرة إلى الأعمال الروتينية الشاقة. و الراتب سوف يعكس بالتأكيد هذا النقص أيضا. دلال، خريجة ذات مستوى ضعيف جدا في الإنجليزية تقول: «إذا كنت لا تعرف الإنجليزية. فكأنما لا تعرف القراءة والكتابة». وهي تشير هنا للقدرة على القراءة والكتابة باللغة العربية. إن الإلمام باللغة الإنجليزية - بالنسبة لثقافة أي شركة كبيرة - له قيمة كقيمة الإلمام بأساسيات القراءة والكتابة.

ولذا فإن قيمة القدرة على التحدث بالإنجليزية تتجاوز استعمالها العملي. اللغات الأجنبية هي مثال جيد يوضح كيف أن رأس المال الثقافي أو اللغوي يمكن أن يتبادلا برأس المال الاقتصادي كما يقول المفكر الفرنسي بيير بورديو: فاللغة الإنجليزية تمثل جواز سفر إلى عالم الوظائف المربحة. وأولئك الذين لا يمتلكون رأس المال هذا يتم استبعادهم من هذا العالم.

كمبيوتر كويس

باستثناء خريجي المعاهد المتخصصة في علوم الحاسبات فإن المؤسسات التعليمية العليا في مصر لا تؤهل الخريجين والخريجات على العمل بالكمبيوتر. لذا، فإن أغلب هؤلاء الخريجين يجهلون التعامل مع الكومبيوتر إلا في حالة ما إذا وفرت العائلة تدريبا على الكمبيوتر وهو وضع لا يتأتى لكل الخريجين خاصة من يأتون من عائلات محدودة الدخل. كذلك بعض الجامعات الخاصة المرتفعة التكاليف توفر لطلابها التدريب على الكمبيوتر.

ولكن مهارات الكمبيوتر التي تحتاجها وظيفة السكرتارية لا تتطلب الحصول على درجة متخصصة في علم الحاسبات. فإن دورتين تدريبيتين قصيرتين (لمدة ثلاثة أشهر) قد تكفيان. ولكن هذه الدورات كما علمت من المقابلات مع بعض الخريجات القادمات من عائلات محدودة الدخل ليست متيسرة للجميع. فبالإضافة إلى تكلفتها النسبية، فإن العديد ممن قابلتهن لا يعرفن أي دورات يحتجن لتعلم علوم الحاسوب. حنان، وكانت متعطلة وتبحث عن العمل وقت المقابلة. أخذت دروس كمبيوتر. ولأنها لا تعرف أي مواد يجب أن تدرس، فلقد بدأت بـ DOS والمقدمة إلى Windows. و لدراسة هاتين المادتين، دفعت ١٨٠ جنيها. وبما أن راتب والدها هو ٣٥٠ جنيها بالشهر، فإن المبلغ الذي دفعته هو بمثابة ثروة. ورغم ذلك، فإنه لكي تكون مؤهلة للعمل كسكرتيرة، يجب أن تكون على معرفة ببرنامج معالجة الكلمات وربما أيضا برنامج إدارة قاعدة البيانات أو برامج الجدولة. هذه المعلومة لم تكن متوافرة لحنان. فقد ذهبت إلى مركز تدريب الكمبيوتر قائلة «أريد تعلم الكمبيوتر». والمركز لا يمكن أن يُلام على إعطائها فصولاً تمهيدية، ففي النهاية هذا هو ما طلبته.

حنان لم تأخذ أي دورات حاسوب أخرى. و هي تؤكد، مثلها مثل العديد من الخريجات، أنها حتى إذا أخذت دورات أخرى، فستنسى ما ستتعلمه إذا لم تجد وظيفة لكي تمارس ما تتعلمه. لذا، أوقفت حنان عملية التدريب واكتفت بهاتين الدورتين التدريبيتين. فالموقف المثالي، كما تقول، هو أن تجد وظيفة، تعرف

متطلباتها فيما يخص الحاسوب، وبعد ذلك تأخذ الدورات المطلوبة. ولكن هذا ليس ممكنا لأنها لن يتم تعيينها مالم تكن تمتلك متطلبات العمل فيما يخص مهارات الكمبيوتر. إنها معضلة دائرية.

تعتقد حنان بأن رب عمل يجب أن يعينها، ثم يقدم لها الفرصة للحصول على تدريب الحاسوب، وربما أيضا أن يقوم بتمويل هذا التدريب. ولكن في سوق عمالة بها فائض من الخريجين مثل حنان، هذه ليست طريقة توظيف سهلة المنال. بالإضافة إلى ذلك، فإن أصحاب الأعمال يريدون شخصا مستعداً للبدء بالعمل من اليوم الأول.

وعلى أية حال، فإن مهارات الحاسوب ليست كافية وحدها. ليلى، تخرجت من معهد علوم الحاسبات بعد دراسة أربع سنوات، وليس لديها أي مشكلة في استخدام برنامج معالجة الكلمات وبرنامج الجدولة. رغم ذلك، فإن كونها تعيش في منطقة فقيرة مثل المرج وكونها ابنة موظف بسيط في القطاع العام ولأنها غير قادرة على التحدث بالإنجليزية، كل هذا لم يسمح لها بأكثر من وظيفة في مكتب صغير في مدينة نصر بمرتب ٢٠٠ جنيه بالشهر. وقد اضطرت أن تترك عملها هذا بعد سنتين لأنها لم تستطع أن تتحمل كمية العمل وساعات العمل الطويلة والمرتب المنخفض جدا الذي يتضاءل بشكل أكبر بسبب نفقات المواصلات.

على الرغم من أن الكفاءة في استخدام الحاسوب هي شكل من أشكال رأس المال فإنه أقل أهمية من إتقان اللغات الأجنبية. أحد أسباب ذلك هو أن تعلم الحاسوب لا يتطلب التدريب في عمر مبكر. لذا، فتعلمه ليس متوقفا على أن ينتمي الشخص إلى خلفية اجتماعية محددة. فهذه المهارة يمكن أن تحصل عليها عن طريق أخذ عدد من الدورات أو عن طريق التخرج من معهد كمبيوتر، الذي لا يتطلب الالتحاق به الحصول على مجموع كبير في الثانوية العامة. في الحقيقة، لو كانت حنان أكثر صبرا، كان يمكن أن تحصل على رأس المال هذا بدورتين تدريبيتين أخريين. كون تعلم الحاسوب سهل الحصول بالنسبة لعدد كبير من الناس جعله ليس نادرا كاللغات. لذا، لم يكن الحاسوب رأس مال كافيا ليجعل ليلى تستطيع الحصول على وظيفة في شركة بمرتب كبير. فإنه ليس من النادر للشركات التي تدفع مرتبات كبيرة بشكل ما أن تعين سكرتيرات يملكن القليل ـ أو لا يملكن أساسا ـ مهارات كومبيوتر. فكرة حنان في إيجاد رب عمل يعينها وبعد ذلك يدربها، هي في الحقيقة ليست نادرة الحدوث في مجال الوظائف كما يؤكد وكلاء التوظيف. ولكن وظيفة الأحلام التي تريدها حنان متاحة فقط للخريجات اللاتي تنطبق عليهن المعايير الأخرى الأكثر أهمية من حيث القدرات اللغوية والمظهر كما يوضح الجزء القادم.

مـظـهـر رائــــع

إن مظهر الإنسان وجسمه يعكسان رسائل صامتة عن أسلوب حياته وعن العادات التي اكتسبها من عائلته فالميول التي يتلقنها الشخص وأصبحت راسخة في شخصيته منذ الطفولة تنعكس على المظهر (Bourdieu, 1993) ولهذا، فكما أنه من الصعب جداً أن يستطيع شخص ما إخفاء عيوب لغوية. فإن المظهر يستطيع أن يعكس رسائل صامتة حول خلفية مرشح ما من الصعب التهرب منها.

ومعيار المظهر يشتمل على امتلاك طالبة الوظيفة أسلوب التأنق «الصحيح» وطريقة الماكياج «الصحيحة». وكلاء التوظيف يقولون أنهم يجب أن يقوموا بإجراء «كشف هيئة» وهو مجاز استعير من الجيش حيث يقوم أطباء الجيش بالكشف الطبي على المنضمين الجدد ليحددوا إذا كانوا لائقين. وكشف الهيئة يبدأ بنوعية ما ترتديه المرشحة. وأسلوب اللبس «الصحيح» هو أسلوب الصفوة. فهيئة المرشحة يجب أن تظهر أنها تنتمي لخلفية اجتماعية جيدة فكما يقول وكلاء التوظيف وأصحاب الأعمال، السكرتيرة هي «صورة» الشركة وهذه الصورة يجب أن تكون ذات مستوى راق.

وقد تستطيع المرشحة الحصول على ملابس غالية الثمن عن طريق ادخار أو اقتراض المال، ولكنها لا تستطيع خداع أصحاب الأعمال ووكلاء التوظيف الذين ينتمون عادة إلى الطبقات الاجتماعية المتوسطة العليا أو العليا. فيما يخص خلفيتها الاجتماعية إذا كانت من خلفية متواضعة. لذا فهم يشيرون إلى هؤلاء المرشحات اللاتي يأتين مرتديات أحذية سوداء وحقائب بيضاء، ويضعن «طلاء أظافر ممحوا أو غير متناسق» ويلبسن جوارب مقطوعة أو سالبة و تكون شعورهن «مصبوغة باللون الأصفر ولكن مهملة ليتمو اللون الأسود الأصلي في الجذور» مما يتناقض مع لون الأطراف المصبوغة أصفر سابقا. وكل هذه الأشياء هي دقيقة للغاية وقد تمر دون أن تلاحظ من قبل شخص غير قادم من نفس الخلفية الاجتماعية. وقد ذكروا أيضا ارتداء الملابس بشكل مبالغ فيه كمشكلة أساسية في بعض الخريجات من



أن تكون المرشحة للوظيفة قادرة على النطق بلهجة «صحيحة» هي في الواقع سلعة نادرة في مصر. فالمدارس «العادية» لا تدرب طلابها على ذلك. وفي حالات كثيرة، فإن المدرسين أنفسهم قد يواجهون مشاكل في التفريق بين الأصوات اللغوية



الطبقات الفقيرة وهذا يشمل اختيار ألوان قوية مثل الأحمر والأصفر بالإضافة إلى وضع مساحيق التجميل بشكل مبالغ فيه. وملاحظة هذه الأشياء هو أمر في غاية الدقة. ولكنها أشياء تشير إلى امتلاك الموظفة الذوق والأسلوب الصحيحين ومعرفة ماذا يجب أن يرتدى في موقف معين.

ومطلب المظهر المناسب لا يشمل أسلوب اللبس والماكياج فقط. فالمرشحة السمينة تعكس رسالة أنها «مبهدلة» وأثناء حضوري مناقشة بين الموظفين في إحدى شركات التوظيف حول إرسال إحدى المرشحات إلى إحدى الشركات سمعت الآتي:

الموظفة الأولى: لماذا لا نرسل لهم (اسم الشركة) حالة؟

الموظفة الثانية: أه ديه كويسه – لأ لأ دي تخينة قوى.

ففي النهاية، السكرتيرة هي صورة الشركة. والصورة يجب أن تمتلك مظهرا رائعا. السكرتيرة يجب أن تكون «حلوة وتفتح النفس». وهذا التعبير يستخدم بكثرة في مصر للإشارة إلى أي شيء ذي صورة جذابة والمجاز هنا ليس بالضرورة جنسيا رغم أنه يمكن أن يحمل دلالة جنسية. وهذا التعليق جاء على لسان عميل واصفا ما يريده في الموظفة المطلوبة.

وفي مقابلة التعبير «تفتح النفس»، فإن المرشحات من الطبقات الفقيرة متهمات بأنهن «ما بيستحموش» ويعانين من رائحة العرق. سوء رائحة الجسم هي شكوى تتكرر كثيراً.

دلال خريجة معهد سنتين تعيش في شقة في مبنى من مساكن الإيواء، وفي هذه الشقة، يوجد حمام صغير ليس به ماء ساخن يستخدمه أفراد العائلة السبعة. إن جو مصر الحار يستلزم الاستحمام بانتظام واستخدام مزيل العرق لمحاربة رائحة العرق، ومثل هذه المعلومات لم تتعلمها دلال في المدرسة التي درست بها، وعليه فهي تشتري الملابس التي تستطيع دفع ثمنها وكذلك تضع المساحيق التي تستطيع تحمل ثمنها ورغم ذلك فشلت في ملاحظة هذه المشكلة.

ويشمل معيار المظهر «الرائع» ما تضيفه إحدى صاحبات شركات التوظيف:

«عندما أعين يجب أن تكون المرشحة تمتلك: إنجليزي كويس. شكلها كويس من عيلة كويسة، واحدة شكلها زي الأجانب والأحسن تكون نص خواجاية» (فبراير ١٩٩٩).

والأجانب هنا لا تشمل من هم من أصل آسيوي أو

كتاب الزاوية

عمى الاستبداد

عبد الرحمن الكواكبي

الأمر الغريب، أن كل الأمم المنحطة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكًا مكينًا، ويريدون بالدين العبادة؛ ونِعمَ الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا. لكنه لا يفيد أبدًا لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه، وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرسًا طيبًا نبت ونما، وإن صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مغراقًا هاف ولم يثمر. وما هي أرض الدين؟ أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها. حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد في المتنسكين.

وقد علّمنا هذا الدهر الطويل مع الأسف، أن أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهوًا ورياءً؛ وعلمنا أن الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان؛ وأن العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولد من الضرورة أو يحصل بالسائق المجبر. ولا يستحي الناس من أن يلزموا أنفسهم باليمين أو النذر، بناء عليه. ما أجدر بالأمم المنحطة أن تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ لا أن يتكلوا على أن الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها.

أفريقي. فهي تعني بالتحديد أن يبدو الشخص مثل «الأوروبيين أو الأمريكان (جنس قوقازي)». و«النص خواجاية» تكون مثالية إذا:

أ - كان عندها لكنة انجليزية غير معربة.

ب - يتحقق فيها معيار «المظهر الرائع» عن طريق امتلاك بشرة فاتحة.

ج - وتعطي الانطباع أن المكان الذي تعمل فيه هو شركة كبيرة قادرة على دفع مرتب عال إلى أجنبي فعلى عكس ما يحدث في دول الشمال حيث يتقاضى الاجانب خاصة هؤلاء الذين لا يمتلكون تصاريح عمل أقل الأجور فإن الأجانب القادمين من الشمال يتقاضون أجورًا عالية لمجرد أنهم أجانب.

ترجع Hammamsy 1975 المكانة العالية لكل ما هو غربي إلى سنوات الحكم العثماني والإنجليزي لمصر عندما كان هؤلاء الذين يمتلكون المظهر الخارجي «الأبيض» يمثلون الصفوة الأرستقراطية. ويضيف Farsoun 1988 أن هناك تبادلا في معاني التحديث (modernization) وتقليد الغرب westernization في أذهان العرب وأن التفوق الغربي «يهيمن» على أسلوب حياة المستهلك العربي. وليس من الصعب إيجاد الصلة بين تفضيل هؤلاء الذين يشبهون الأجانب وملاحظة فارسون عن أسلوب حياة العرب. إن اختيار هؤلاء الذين شكلهم أجنبي يؤكد الهيمنة التي ذكرها فارسون.

إن معيار المظهر الرائع يشمل الجمال الظاهري، القبول، والحسن، وأسلوب اللبس. فالمظهر هو مكون أساسي من كونها «بنت ناس».

بـنـت نـاس

يرجع تعبير «ولاد الناس» إلى العصر المملوكي كما تشير إلى ذلك Staffa 1977 وكذلك Hammamsy 1975. كان المماليك عبيدا لهم بشرة فاتحة اللون تتميز عن سائر الشعب المصري، اشتراهم الأيوبيون في القرن الثالث عشر وقد حكموا مصر في الفترة من ١٢٦٠ إلى ١٥١٧. وحتى بعد هزيمتهم من قبل الأتراك بقي المماليك طبقة متميزة عن سائر الشعب المصري. لقب أولادهم بـ «ولاد الناس». و«أولاد الناس» لهم بشرة فاتحة مثل آبائهم ويتميزون بوضع اجتماعي يفصلهم عن سائر الشعب المصري. وبذلك يمثل المكون الثقافي «ولاد الناس» أو «بنت ناس» كما تصف شركة التوظيف الموظفة المثالية أعلاه، تركيبة من الصفات بعضها له علاقة بالمظهر الخارجي والبعض الآخر له علاقة بالوضع الاجتماعي والحالة المادية. تبقى صفات «ولاد الناس» نوعًا من رأس المال الرمزي كما يعرفه الكاتب الفرنسي بيير بورديو على أنه رأس مال متنكر تكمن قوته في عدم الإفصاح عن أهميته، (Bourdieu 1997). وحين سألت عن كيفية تمييز «بنت الناس» عن غيرها تباينت الإجابات لتوضح مدى تعقيد هذا المكون الثقافي فهو يعني أشياء مختلفة تتباين حسب كل فرد. أشارت إحدى صاحبات شركات التوظيف إلى «تعليم كويس.. مدارس خاصة مش مدارس حكومة». كما أشارت إلى أنها - أي بنت الناس - «تعرف تتصرف» وعندها «right attitude» كما أضافت باللغة الإنجليزية. وهنا شمل هذا المكون الثقافي التعليم، المستوى الاجتماعي للأسرة وكذلك القدرات الخاصة بالتصرف في مكان العمل.

بنت الناس أيضا «عينها مليانة ما تبحسش» بمعنى أنها لا تنتمي إلى عائلة فقيرة أو قد مرت بالحرمان ولذلك لا «تحسد» ما قد تراه في مكان العمل مع زملائها أو مرءوسيها. وهنا يضاف إلى هذا المكون المعقد ظل ثقيل من مكون ثقافي معقد آخر يتعلق بالحسد والعين الشريرة.

وأشارت أخرى أن «بنت الناس» عندها «finesse» الكلمة الفرنسية لراقي مضيفة أنها «أشياء لايمكن تعلمها في المدرسة» ولكن تأتي من «الأصل» وهنا إشارة واضحة إلى الوضع الاجتماعي للأهل وأنهم ليسوا «محدثي نعمة». كل هذه صفات يتوقف عليها اختيار موظفة في المجال الإداري.

وتزيد هذه السيدة إلى تركيبة «بنت الناس» أو «أولاد الناس» جانبا أخلاقيا مضيفة أن بنات الناس يعرفن «الحرام من الحلال» كما يضيف أحد أصحاب الأعمال «أنا باحب أشغل ولاد الناس لأنهم مش هيخونوني ويدوا أسراري للمنافسين».

وحين تساءلت عن فرص العمل للخريجات والخريجين من غير «ولاد الناس» وهم من قمت بمقابلة بعض منهن من الباحثات عن عمل في مجالات تقدم خدمات التوظيف مجانا أو قابلتهن كموظفات مؤقتات بعقود في أحد الأجهزة الحكومية أثناء عمل البحث - بعضهن كما عرفت من المقابلات - قد تكبد وكبد أهله الكثير حتى يحصلن على شهاداتهن، حين تساءلت عن فرص العمل المتاحة لهن كانت الإجابة من أحد أصحاب الشركات «يروحوا يشتغلوا في محل فراخ»!!! ☒


أحدث إصدارات
دار الشروق
د. مصطفى الفقي
الدولة المصرية والرؤية العصرية
وثائق المحكمة الجنائية الدولية
أعمال
إبراهيم أصلان
تطلب من مكتبات الشروق
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com

الفقير الهندى

يوسف الشريف

إذا كان هناك مرجعية مؤتمنة على فكر جمال عبد الناصر وتراثه، فلا شك فى أنه محمد عودة

متعة ما بعدها متعة أن تجلس إلى المفكر والكاتب الكبير محمد عودة، وهى متعة لها مذاق مختلف عن المتع الحسية الزائلة، متعة الولوج إلى حصاده الزاخر بألوان الثقافة والفن والسياسة والتاريخ والذكريات العذبة عبر الحوار والمؤانسة والدعابة!

ولشدة ما يدهش الوافد الجديد لتواضعه الجم وبساطته الآسرة، إلا أنه من الأفضل التعرف على طرف من عاداته ومزاجه الخاص قبل التقائه، فقد تجده للوهلة الأولى متجهما أو مبادرا بالهجوم، وربما عازفا عن الحديث، و له فى كل ذلك شأن يغنيه لا يدرك كنهه فى حينه، لكننا أصدقاءه وتلاميذه وحوارييه. ندركه، فقد يكون همٌ من هموم الوطن يؤرقه وقتئذ، فاصبر عليه وتمهل حتى يطرحه عليك وتشاركه فى تفسيره والبحث له عن مخرج، وربما لأنه دلف إلى هذا المجلس بطريق الصدفة أو الخطأ، فاكتشف أن الجهل أو الجدل العقيم الأعلى صوتا، والأكثر افتراء على الحقيقة وانتهاكا لثوابت الوطن والأمة، لكن حين تكون الأجواء مواتية والحضور متجانسا والحنيفة غاية الحوار والجد طابعه، عندئذ يتألق عودة على سجيته ويبدع!

عرفت عودة أوائل الخمسينيات فى دار الأوبرا القديمة صباح يوم جمعة، إذ كانت وقتئذ تنظم حفلا أسبوعيا للطلبة والشباب الراغبين فى سماع وتذوق الموسيقى الكلاسيك التى يعزفها أوركسترا القاهرة السيمفونى بقيادة المايسترو عبد الحليم على، وكانت تذكرة الحفل لا تزيد على خمسة قروش، تتضاعف الى ٢٥ قرشا فى حفل المساء (السواريه)!

فى الاستراحة خرجت أنا وشقيقتى الأديبة الراحلة عايدة الشريف إلى ردهة دار الأوبرا، وهناك رأيت عودة لأول مرة، وكان فى عنفوان شبابه وكامل أناقته، واسترعى نظرى بياض بشرته وجاكتته البليزر الكحلى وكرافتته «البيبيون» والبيريه الأزرق فوق رأسه حتى خلته خواجة متمصرا. كان مستغرقا آنذاك فى الحديث مع صديقى محمود ذهنى وزميلى فيما بعد بمجلة روز اليوسف، والحوار بينهما كان سجالا حول أداء الأوركسترا وافتقاره إلى عازفين على المستوى العالمى.

انتهى الحفل فى الثانية عشرة ظهرا، وأخذت أنا وشقيقتى طريقنا كالعادة إلى ندوة نجيب محفوظ، وكانت على بعد خطوات فى صالون ناء يقع على يمين الطابق الثانى من كازينو أوبرا الذى شهد أمجاد الفنانة بديعة مصابنى إبان الحرب العالمية الثانية، فلما هربت من الضرائب إلى مسقط رأسها لبنان وافتتحت لنفسها مزرعة للدجاج فى شتورة، آلت ملكية الكازينو لتلميذتها الفنانة صفية حلمى التى رحبت باستضافة الندوة من باب الشهرة، و.. هناك وجدنا عودة قد سبقنا إليها، وأذكر أنه شارك يومها بالمناقشة حول واقعة استوقفته فى سجل النضال الوطنى تعرض لها نجيب محفوظ فى روايته الثلاثية. وبعدها تكررت لقاءات الجمعة التى جمعتنا به حتى أصبحنا نحلق تلقائيا فى سربه!

وبينما شدنى الشاعر كامل الشناوى وغيره من الظرفاء وصعاليك ذلك الزمان إلى عوالمهم، ظلت عايدة مشدودة إلى عوالم عودة وأجواء الأدب والفن، لكن علاقتى مع عودة ظلت حميمة ومتصلة، إذ كان يتردد على منزلنا للحوار مع والدى العالم الأزهرى المستنير، وكلما اشتاق إلى طعام والدتى الدمياطى المسبك، بينما فرضت أحداث الثورة الجزائرية لقاءنا اليومى مع قيادتها وأعضاء حكومتها المؤقتة بالقاهرة. ومع توالى الأيام كان عودة يشدنا دوما إلى بيوت ومقاهى ومنتديات اللاجئين السياسيين العرب والأفارقة، وإلى المسارح والسينمات والندوات الثقافية والسياسية.. وهكذا على مدى أربعين عاما تجسدت أمامى شخصيته وتبلورت معالمها وخياراتها واكتشفت كم هو مختلف نوعيا عن كل الظرفاء والصعاليك النبلاء الذين عرفتهم فى ذلك الزمان سواء فى ثقافته الموسوعية، ودأبه على القراءة والتحصيل، ونهمه إلى الجديد من المعارف، أو إيمانه المتفائل بمصر التى لا تضيع أبدا رغم الكوارث والزلازل والانكسارات، ورضائه وقناعته بحظوته الشخصية المتواضعة من مغانم الحياة، إذ دائما يقول: يكفى أننا تعلمنا ما وسعنا، وخضنا التجارب والمحن التى عجمت عودنا، واستمتعنا بالحب والفنون والآدابه وسافرنا إلى بلاد الله وعرفنا شعوب العالم، وكتبنا ما نشاء ولم نفرط فيما نعتقد أنه الخير والصواب والجمال. وربما من هنا شبهه البعض من أصدقائه بالفقير الهندى فى علاقته الصوفية بالحياة والناس واحتماله للمكاره، وزادت مصداقية هذا التشبيه إثر عودته من الهند، بعد سنوات من العمل مذيعا ومترجما فى إذاعة دلهى التى تبث برامجها باللغة العربية.. وخلالها عشق الشعب الهندى وصادق زعماته ومبدعيه واغترف من تراثه وتابع ولا يزال شئونه وشجونه، وله فى ذلك كتابات وكتب مهمة!

جهينة والخبر اليقين

محمد عودة من مواليد عام ١٩٢٠، ومسقط رأسه قرية «جهينة» مركز فاقوس محافظة الشرقية. ويشهد تاريخ العرب لجهينة أنها كانت أكثر قبائل الجزيرة العربية حكمة ومعرفة بالخبر اليقين. كان والده واحدا من تجار القطن الذين أفلسوا إبان احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينيات، لكنه لم يستسلم للكارثة، وقرر تعويض ما فاته من العلم. وفى حى الحسين حيث رحل مع أسرته إلى القاهرة، خرج مع ابنه محمد عودة فى أول صباح إلى محل الحلوجى لتناول الإفطار، وكان وجبة من الفول المدمس. وحكى له أن صاحب المحل كان يعد صباح كل يوم طبقا من الفول المدمس المنزوع القشر، ويحمله بنفسه إلى سعد زغلول باشا. فلما اقتربا من مدرسة خليل أغا الابتدائية ليبدأ أول عهده بالدراسة فى القاهرة، روى له والده أن منشئ المدرسة كان كبير الأغوات للوالدة باشا فى عهد الخديو إسماعيل وورث عنه حب العلم ورعايته للمتعلمين النابغين، ومن عجب أن يتفوق عودة فى دراسته الابتدائية، ويقع عليه الاختيار لإلقاء قصيدة ترحيب بزيارة الملك فؤاد للمدرسة، وسر جلالته سرورا بالغا لإلقائه، وأهداه طاقم أدوات مكتب من الجلد الفاخر، وعاد به فرحا إلى المنزل، لكن والده لم يشاركه فرحته ولعن سلسفيل جدود الملك، إذ كان والده وفديا! ومن يومها تولد لديه شعور معاد غامض للملك والملكية!

وبينما كان عودة يتوجه كل صباح إلى مدرسة خليل أغا الابتدائية ثم المدرسة السعيدية الثانوية فيما بعد، كان والده يتوجه للدراسة بالأزهر، وعندما يأتى المساء يجلسان متقابلين لاستذكار الدروس على مكتب واحد، فكان من الطبيعى أن تنشأ بينهما ألفة الصداقة والمكاشفة، والده يناديه باسمه مسبوقا بكلمة الأستاذ، وكان هو ينادى والده «الشيخ عبد الفتاح»!

منذ ذلك الزمان البعيد أدرك عودة الدرس: المال وكل عرض الدنيا وزينتها وحتى حياة الإنسان، عرضة للزوال لسبب أو لآخر، أما الدوام فلله وحده والبقاء للعلم الذى يستحيل انتزاعه من صاحبه، ومن هنا ظل العلم مصدر ثرائه، يزيد مع الأيام ولا ينقص، وحلقة اتصاله بالناس، ومحل قبوله

صفحات من كتاب:
صعاليك الزمن الجميل
يوسف الشريف
دار الشروق ٢٠٠٤



من عدمه للعابرين في حياته، إذ بقدر إدراكهم المعرفي وزادهم من الثقافة، يظل العابر عابرا مع ألف سلامة أو مقيما على الرحب والسعة، فلا وقت للجهالة ولا جدوى من صحبة الجهلاء.

في كلية الحقوق اكتشف محمد عودة أن ما يدرسه من فروع القانون، لا علاقة له بأوضاع المجتمع خارج أسوار الجامعة، وبينما كانت الحركة الطلابية تموج آنذاك وتضطرم بكل التيارات والمذاهب والآيديولوجيات، كان البحث عن الذات وخلاص مصر وتحررها يستبد بأبناء جيله، حتى بلغ التناقض ذروته الهزلية ذات يوم، حينما أشيع أن طالبا في دفعته اسمه موريس دوس سوف ينال رتبة الباشوية، ولم تلبث الشائعة أن أصبحت خبرا منشورا في الصحف.

والحكاية أن الملك فاروق الأول والأخير تبنى مشروعا للتقرب إلى الشعب باسم «مشروع الحفاء» يستهدف توفير حذاء لكل مواطن، وكانت الغالبية العظمى من الشعب لا تملك ذلك الترف وتسير بأقدام حافية. وتشجيعا للمساهمة في المشروع، قرر جلالته الإنعام برتبة الباشوية لمن يتبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه فأكثر، وتبرع ذلك الطالب الثري بالمبلغ وأصبحت الرتبة من نصيبه!

ثم يواصل محمد عودة ذكرياته عن مرحلة التكوين:

انهمكت في قراءة الكتب التي كنت اقترضتها منه.. وأهملت كتب القانون.. وأصبحت أكثر حماسة في البحث عن «الذات».

ولا ينكر عودة شأن أي مثقف عصري تأثره بالنظرة الماركسية في تحليلها العلمي لأوضاع المجتمع وما يعتمل في أحشائه من صراعات طبقية، وحدبها على العدل والمساواة. وهو قد نهل من تراث الاشتراكية المصفاة عبر صديقه الدكتور مصطفى مشرفة الشقيق الأصغر لعالم الذرة النابغة الدكتور علي مشرفة الذي اعترف أينشتاين بإضافته المهمة لنظرية «النسبية». وكان الدكتور مصطفى مشرفة عندما صحبني عودة إليه بمنزله في المعادي قد أقعده مرض شلل الأطفال، ورغم ذلك ظل محاورا واسع الثقافة في شتى المعارف بلا تعصب وفي خفة ظل تثير من حوله الضحكات والحبور.

وكان صاحب دار للنشر وله العديد من المؤلفات السياسية والأدبية القيمة معظمها باللغة الإنجليزية، أبرزها كتاب «مقدمة في تاريخ الشعب المصري» الذي صدر عن إحدى دور النشر الكبرى في بريطانيا إبان عمله أستاذا للأدب الإنجليزي في إحدى جامعاتها، ورواية «قنطرة الذي كفر» وقد شاركه عودة في تأليفها بالعامية، وتؤرخ لما جرى في مصر ولمصر منذ ثورة سنة ١٩١٩، إذ كان الدكتور مشرفة يرى أنه لم يعتد على



منذ مطلع أربعينيات القرن الماضي، ولا يزال محمد عودة سائحا سواحا على قدميه في دروب القاهرة، يجوب شوارعها وحواريها ومعالمها التاريخية، ولا يمل التردد على مقاهيها ومنتدياتها ومسارحها ومكتباتها

تاريخ شعب مثلما حدث للمصريين، وأن كل المؤرخين مصريين وأجانب يكتبونه على أنه تاريخ الملوك والحكام منذ الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى حتى محمد علي، وأنه قد آن الأوان لأن يكتب تاريخ الشعب بكل طبقاته وفئاته.. الفلاحين والعمال والموظفين والمفكرين والمهندسين، كل الذين صنعوا التاريخ بالفعل ليزهو به الحكام ويتفاخروا!

لقد تعلم محمد عودة من لينين وعبر الدكتور مصطفى مشرفة أن الاشتراكية ليست نظرية جامدة، بل متطورة بحسب ظروف كل شعب في العالم، وما يناسب روسيا من التطبيق الاشتراكي قد يحتاج إلى الملاءمة والتطويع حتى ينسجم مع أوضاع ومعتقدات غيرها من المجتمعات. والمشكلة في مصر أن التنظيمات الماركسية على حد تقدير عودة كانت وليدة وهيمنة فئة من اليهود، بداية من جوزيف روزنتال وهو جواهرجي سكندري في أعقاب اندلاع ثورة سنة ١٩١٩، حتى هنري كورييل الأرستقراطي القاهري في الأربعينيات، ولذلك كانت هذه التنظيمات من الدرجة الثالثة، لأنها ظلت أسيرة للنصوص الجامدة والتجارب الغربية البعيدة عن الواقع المصري، وغير مؤهلة بالتالي لخلق صيغ مستقلة تستوعب قيم ومبادئ المجتمع المصري، بينما كان حال الحزب الشيوعي الإيطالي - على سبيل المثال - مختلفا، فلم يجاف العامل الديني على سبيل المثال.. وإلا لما كان للبابا أن يصلي بنفسه على زعيم الحزب عند وفاته ويقيم قداسا لتأبينه!

روز اليوسف وسياسة الباب المفتوح

منذ مطلع أربعينيات القرن الماضي، ولا يزال محمد عودة سائحا سواحا على قدميه في دروب القاهرة، يجوب شوارعها وحواريها ومعالمها التاريخية، ولا يمل التردد على مقاهيها ومنتدياتها ومسارحها ومكتباتها، وهو شغوف بمخالطة طبقاتها الاجتماعية المختلفة، وفي سياحة متأنية وفاحصة، يرصد من خلالها مدى التغيير الذي يطرأ على العمارة والأسواق والزحام والعلاقات الاجتماعية بين الناس وأفكارهم واهتماماتهم وإلى أي مدى تفاؤلهم وإحباطهم ورضاهم أو سخطهم، لكأنه عمر بن الخطاب الذي كان يجوس الديار ويتقصى حال الرعية وأحوالها، وله في ذلك قول مأثور «لو تعثرت بغلة في العراق لسئلت.. لماذا لم أسو لها الطريق؟»! وبينما كانت جولات عمر الميدانية مصدر استتباب العدل والأمن والنظام وقبول المسلمين وأهل الكتاب ورضاهم، تظل جولات عودة الدورية مصدر إدراكه المعرفي للواقع مجردا من التهوين أو التهويل، ومرآة صادقة لكتاباته الصحفية وحواراته مع أصدقائه وتلاميذه، ومن هنا تميز بواقعيته وتجدده عن معظم أقرانه من الكتاب والمفكرين الذين يصدرون أحكامهم عبر النظريات والفلسفات أو عبر ما يصل إليهم عن هذا الواقع في الكتب والصحف ووسائل الإعلام والكلام المرسل فحسب!

فإذا أضفنا دأبه على البحث والقراءة المنهجية لعصور التاريخ وتجارب الأمم والشعوب، نستطيع عن معايشة واقتناع أن ننسب إلى عودة ميزة سياسية وفكرية أخرى فريدة، تكمن في قدراته المدهشة على التنبؤ بمستقبليات الأحداث وهي في طور الاختمار أو الاشتباك، وفقا لميكانيزم علمي يعتمد على تحليل المعطيات وتفاعلها الديناميكي مع الظروف والأجواء وتباين المواقف والاقتناعات إيجابا أم سلبا!

في القاهرة تفتحت مخبوءات شخصية محمد عودة وتحددت ملامحها. فهو قد عاش فيها من قبل سنوات دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية. لكنه بعد أن خاض تجربة العمل في المحاماة في مسقط رأسه بمحافظة الشرقية وقرر فراقها والاستقرار في القاهرة، كان عليه خوض غمار تجربة البحث عن عمل جديد، لكنه وقع في حيرة اختيار المهنة التي تناسبه. ولم يكن لديه من الصلات والمعارف في أوساط أصحاب النفوذ حتى يطلب منهم العون والمساعدة، فاضطر للعمل في مكتب محام كبير إلى حين عودة الدكتور مصطفى مشرفة من الخارج لاستكمال مشروع إعادة كتابة تاريخ مصر. حتى اكتشف أن مؤهلاته واهتماماته ترنو إلى الكتابة في الصحف والمجلات، وكان حال الصحافة عهدئذ تفضي في الغالب إلى الإغلاق وتشريد العاملين فيها، إما لتعثر أصحابها ماليًا، وإما لقرارات أو أحكام المصادرة تباعا لأسباب سياسية أو إلغاء رخصة الإصدار إلى غير رجعة. ولم تكن القاهرة قد عرفت بعد المؤسسات الصحفية الكبيرة التي تملك رصيدا ماليًا ضخما، ومطابع خاصة بها، ولديها كتاب منتظمون، وطاقم من المحررين والفنيين، اللهم سوى دار الأهرام ودار أخبار اليوم ودار الهلال. حتى روز اليوسف ذات التاريخ الوطني والإبداعي العريق كانت مستكنة آنذاك في مبنى صغير متهالك، وكانت صاحبتها السيدة فاطمة روز اليوسف تدير شئونها كست بيت مدبرة، ومعظم كتاب المجلة وهم من الأسماء اللامعة يتكسبون معاشهم من مصادر أخرى، بينما أكثر المحررين من الهواة والبراعم الصحفية الواعدة ويتقاضون مقابل ما ينشر لهم مكافآت متواضعة أو لمجرد الشهرة!

في البداية جرب محمد عودة حظه في عدد من الصحف والمجلات التي يصدرها هواة ومغامرون من عشاق الصحافة وذوي الميول الفكرية والسياسية والإبداعية التي تتبنى الأفكار الحرة الشجاعة وكل جديد وشاب يمثل طفرة في الخلق والابتكار وبينها مجلة صغيرة كانت ذائعة الصيت آنذاك وهي «مسامرات الجيب» وأفرغ فيها مخزونه من المعارف والرؤى، وانكب على ترجمة الكتب الإنجليزية والفرنسية الحديثة.

وانتقاءاته من المواد السياسية والأدبية والفنية المنشورة في الصحف الأجنبية. فلما أدرك «مسامرات الجيب» الإغلاق انتقل إلى صحيفة «الجمهور المصري» الأسبوعية، وكان رئيس التحرير أبو الخير نجيب صحفياً مقاتلاً، ووجد عودة نفسه وسط جيل من الصحفيين الوطنيين والمشاغبين والمغامرين، نجحوا أيما نجاح في بلورة نهج وأسلوب غير مسبوق في النقد والتحريض وإثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها في الأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار، إضافة إلى التحقيقات والخبطات الصحفية المثيرة.

وكان عودة قد صنع لنفسه في مشواره القصير اسما صحفيا معروفا، ومن ثم وجد طريقه سالكا إلى نيودلهي، وعمل مذيعا ومترجما في الإذاعة الهندية التي كانت تبث برامجها بالعربية، لكنه اضطر للعودة إلى مصر بعد عامين إثر اندلاع ثورة ٢٣ من يوليو، ووجد نفسه صحفيا في صحيفة «الشعب» تحت رئاسة عضو مجلس الثورة الصاغ «صلاح سالم» انتقل بعدها إلى دار الهلال، وفي مجلة المصور والاثنين والدنيا، تحول من كاتب ميداني يستقي مادته عبر المعايشة المباشرة للواقع. ورغم أنه مارس عمله في جدية وحماسة، وبخاصة أنه كان يشعر دائما بارتباطه الوثيق بالناس ونبضهم ومشكلاتهم وطموحاتهم، إلا أنه ضاق ذرعا بالنظام الحديدي الذي يفرضه أصحاب دار الهلال من آل زيدان لضبط إيقاع العمل و.. هذا جيد، إنما لأنه اكتشف أن هذا الانضباط يسري أيضا على علاقات العمل، كما أن النقد والمعارضة لهما سقف منخفض ومحافظ لا يجب تجاوزه.

ولا يتذكر عودة لماذا وكيف ساقته قدماه تلقائياً من دار الهلال إلى مبنى روز اليوسف المجاورة بشارع عبد الحميد سعيد، وصعد إلى الدور الأول يفتش عن أصدقائه من المحررين.. وفجأة خرج الفنان عبد الغني من غرفته، وكان سكرتيرا للتحرير آنذاك، ليجد عودة أمامه وجها لوجه، وصافحه بحرارة ورحب به، وكان قد قرأ له وعرفه عن بعد، وسحبه من يده إلى غرفته وطلب له كوبا من الشاي، ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الدشت»، وقال: اكتب لنا شيئا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات روز اليوسف. و.. تركه وغادر إلى صالة التحرير.. ولم تمض أيام حتى بادرت فاطمة اليوسف إلى تعيينه وأصبح من كتاب المجلة اللامعين!

«أرملة جمال عبد الناصر»

إذا كان هناك مرجعية مؤتمنة على فكر جمال عبد الناصر وتراثه، فلا شك في أنه محمد عودة. سمعته يوما يقول: إن كل الثورات الكبرى التي عرفها التاريخ الإنساني، لم تكن مبرأة من الأخطاء ولا الخطايا، وكان ذلك ما آلت إليه ثورة يوليو، حين قدر لها الصدام مع الطبقة الاجتماعية الحاكمة من الرأسماليين والإقطاعيين وعملاء الاستعمار ومخلفات العهد البائد من الزعامات والأحزاب، فكانت القوانين والإجراءات الاستثنائية ضرورة حتمية لتأمين الثورة، حتى تتفرغ لمهام التغيير وبناء المجتمع الجديد.



إن «عودة» ظل - ولا يزال - مبهورا شديد الإعجاب بالتجربة الهندية، وبثالوث زعامتها (غاندي. نهرو. أنديرا غاندي) لكنه واحد من كوادر أو كتاب حزب المؤتمر

وهو قد نذر حياته وفكره وقلمه انحيازا لنهج وسياسات وتفسير مواقف عبد الناصر، وإشاعة الوعي بمصداقية مشروعه الوطني والقومي، ورد الصاع صاعين لكل من يتطاول على الناصرية بالافتراء والتشويه، إلا أن عودة لا يفسد للود قضية مع الذين يختلفون مع الناصرية بشرط الالتزام بالموضوعية، وأن يكون البحث عن الحقيقة غاية الحوار وليس مضيعة للجهد والوقت في الجدل العقيم والسفسطة الفارغة. وأعتقد أن عودة الآن بات على اقتناع بضرورة مبادرة الناصريين قبل غيرهم إلى مراجعة التجربة الناصرية والبناء على إيجابياتها حتى تواكب المستجدات والمتغيرات الوطنية والقومية والعالمية منذ عام ١٩٧٠، مما يستدعي إعادة صياغة المشروع الناصري وتقديمه للأجيال الجديدة في زمان الردة والتبعية والقطرية وتنامي ظاهرة العولمة!

وهكذا بقدر زاد المحاور من الثقافة وموقفه الملتزم بقضايا الوطن وثوابت الأمة بقدر سعي عودة إليه والحفاوة به وصداقته. وبهذا المعيار - العلم والموقف والمبادئ - عرف عودة من البشر عدد شعر رأسه، كما فارق منهم عدد ما تساقط منه على مر السنين. فهو على سبيل المثال طالما أشاد بموهبة ونبوغ ووطنية صديقه الأديب الكبير توفيق الحكيم قولا وكتابة، وكان جليسه ومحاوره في لقاء الصباح بمقهى «جروبي» بميدان سليمان باشا لأكثر من ثلاثين عاما. ولم لا، وكلاهما ينشد في جمال عبد الناصر الأمل في البعث والتغيير، وهو كان البطل التاريخي الموعود الذي جسدته نبوءة الحكيم في روايته الرائعة «عودة الروح» التي كتبها إبان عهود الاستعمار والملكية والإقطاع، وربما من هنا نال الحكيم في عهد جمال عبد الناصر من الحظوة والتكريم ما لم ينله غيره من الأدباء والفنانين. فلما رحل عبد الناصر، وراح السادات يقتفي أثره بأستيكة على حد سخرية رجل الشارع المصري والعربي، وسار الحكيم في زفة دعاة الردة وألف كتابه «عودة الوعي»، عندئذ تحشد عودة بكل آلياته الفكرية وقدراته الفذة على الحوار، وانبرى للحكيم يصب جام غضبه وفجيعته في صديقه، واستهل كتابه «الوعي المفقود» بقصة الموسيقي الشاب الذي قال للمايسترو الكبير توسكانيني: «بالنسبة لتوسكانيني الفنان أحني رأسي، أما بالنسبة لتوسكانيني الإنسان.. فقد أخلع نعلي وأنهال به عليه» ثم راح يجرد الحكيم من أي مصداقية سياسية، فقط لأنه تنكر فجأة للمبادئ التي استكنت في ضميره وإبداعاته وحققت شهرته وانتشاره، ووصفه قائلا: «لم يكن هناك ابتذال للكاتب والكتابة أكثر رخصا من هذا» لكن «كان توفيق الحكيم على حقيقته مجردا من كل المسوح»، وقال: «ليس هذا الكتاب ردا على توفيق الحكيم، ولكنه دفاع عن الشرف السياسي والثقافي لمصر». وشرع يفند كل ما ذهب إليه الحكيم من برجه العاجي متنقلا من فكرة التعادلية إلى انتشائه بلقب «عدو المرأة» إلى انتسابه لدار أخبار اليوم ثم الأهرام التي اختارها منبرا للإشادة بثورة يوليو وزعيمها، بنفس درجة تبنيه المفاجئ للهجوم الكاسح في كتابه على التجربة الناصرية!

والحقيقة أنني كنت شاهدا عن قرب على تلك المعركة السياسية والأدبية المدوية. فكم رأيت عودة وسط مريدي جلسات الحكيم الخاصة التي يعقدها كل يوم جمعة، وهو رجل ودود يجعلك تحبه من أول لقاء، وعلى عهدنا به ظل يدافع عن الناصرية وعن الاشتراكية والقومية بضراوة، ولذلك عندما نمي إلى علم عودة أن الحكيم وضع كتابا تحت الطبع يندد فيه بعبد الناصر وما كان يؤمن به أو دعا إليه.. لم يصدق، واعتقد أنها مزحة أو مجرد وشاية، فكيف يصدق الخبر وهو الذي تبرع منذ أيام بخمسين جنيها رغم بخله الشديد لتخليد ذكرى عبد الناصر والإسهام في صنع تمثال له. كذلك عندما عرف الحكيم بأن عودة أعد كتابه «الوعي المفقود» ردا على ردته، عرض عليه أن ينشره على حسابه لعله يرضيه ويستبقي صداقته ويكفر عن خطئه، لكن عودة رفض. وأذكر أن عودة تأثر كثيرا وظل حزينا فترة طويلة لرحيل الحكيم وقال: كنت أحبه!

وهكذا بنفس المعيار وعلى نفس المنوال هاجم عودة أو خاصم بدرجات متفاوتة بعض أصدقائه ممن كانوا محسوبين على المرحلة الناصرية، ثم تورطوا في مرحلة الردة الساداتية وباتوا من دعاة الانفتاح السداح مداح والتطبيع مع إسرائيل أو التبعية لأمريكا، سواء عن قصد أو سذاجة أو خطأ في التحليل أو رهان على المجهول وقبض الريح!

مواجهة مع بو مدين

ولا يكتمل حديثنا عن محمد عودة قبل أن نتوقف عند محطات مهمة في سيرة حياته. ففي أوج انشغال ثورة يوليو بالقضايا القومية ودعمها لحركات التحرر في العالم الثالث كان هو أيضا في قمة تألقه وعطائه سواء بالكتابة عن هذا الدور أو بمعايشة أحداثها وتوثيق الصلة بأبطالها، فكان

يصحبنا إلى المقاهي والمنتديات والصالونات وكافتيريات الفنادق الكبرى والمتواضعة التي تجتذب القيادات واللاجئين السياسيين العرب في القاهرة، أو زيارة بيوت الدبلوماسيين والزعامات الشعبية لحركات التحرر وعدم الانحياز ممن تبوءوا فيما بعد سدة الحكم والسلطة في أوطانهم. بينما ظل عودة المرجعية التي يلجأ إليها المراسلون الأجانب المتخصصون في الشئون العربية!

ولأول مرة أسمع عبر عودة الكثير من التفاصيل المهمة والأسرار الخاصة أوج اشتعال ثورة الجزائر، وكيف أن الثورة سفكت من دماء أبنائها ما يكاد يعادل ضحاياهم من الجيش الفرنسي المحتل. وقال لأن المعركة مصيرية لا تحتمل الخطأ أو التردد، لذلك كان نصيب المنحرفين في صفوفها البتر، وكان عودة دائما يلفت نظر زملائه من الكتاب والصحفيين إلى التخلي عن منطق الإعجاب والإشادة والانحياز بجناح ما أو زعيم سياسي بعينه في الثورة الجزائرية، وقال إن هذا الأسلوب يثير حفيظة غيرهم من الأجنحة والزعامات ويعتقدون أن الصحافة المصرية تعبر عن موقف جمال عبد الناصر. وقد تسببت تلك الانتقائية المعيبة في مشكلات حادة بين ثوار الجزائر بل وفي كوارث شتى إلى حد الاحتكام للسلاح!

أذكر في عام ١٩٦٠ أن عودة كان مدعوا لمؤتمر في الجزائر، فلما التقى الرئيس هواري بومدين رجال الإعلام العرب، إذا به يبادره على مرأى ومسمع من الصحفيين وأجهزة الإعلام بالسؤال عن مصير صديقه أحمد بن بيلا، وكان آنذاك رهن الاعتقال. وتكهرب الجو، حتى وجد من يهمس في أذنه ويدعوه إلى خارج الاجتماع، ثم اختفى من المؤتمر في اليوم الثاني، وفوجئ بتقرير أمني حول ما جرى يسبق عودته إلى القاهرة، فيما نفى لنا الأخضر الإبراهيمي سفير الجزائر آنذاك أن تكون لحكومته يد فيما حدث، وعزى الأمر إلى استشعار السفارة المصرية بالجزائر الحرج، بزعم أن عودة تجاوز أو أخطأ بدعوى تدخله في شئون الجزائر الداخلية، رغم أنه كصحفي صاحب حق في أن يسأل ما يشاء، كما أن من واجب الصداقة والشهامة أن يطمئن على مصير صديقه بن بيلا!

وعلاقة عودة بالسياسيين والنخب الثقافية الأفريقية حقبتي الخمسينيات والستينيات، لم تكن مقصورة على حرصه على أن يظل سباقا لمعرفة شواغل حركات التحرر الإفريقية وتطوراتها ومتناقضاتها فحسب، بل وكان مشاركا في المؤتمرات والندوات التي تعقدها الجمعية الأفريقية حول شئون وشجون أفريقيا، وقد امتد هذا الدور إلى زوجات وعائلات المناضلين



يسكن عودة في شقة صغيرة لا تتعدى غرفتين في عمارة الأوقاف بالدقي، حيث تربطه علاقات إنسانية رائعة بالناس الذين هم فوق السطح: وهم سلالة البوابين والخدم

الأفارقة لتفقد أزرهم والاطمئنان على أحوالهم، أذكر منهم زوجة الزعيم الأفريقي «فيلكس مومي» وأولاد المناضل الراحل «باتريس لومومبا» وأولاد «نكروما».

من سخريات الشاعر كامل الشناوي عن عودة قوله: «عودة يذهب إلى الجيزة عن طريق طنطا»، وكان يعني القلق الذي يساور عودة دائما حول قضايا وطنه وأمته إلى أي مدى وجدوى شفافية المعالجة الوطنية والقومية لهذه القضايا. مما يجعله دائما في حركة تنقل ما بين مصر وغيرها من الدول العربية والأجنبية بحثا عن الحقيقة والخلاص!

وفي الهند رحبت صحيفة «شنكر» ذائعة الصيت بزيارة عودة لدلهي عام ١٩٦٥ وقالت: «أخيرا يصلنا عبق مصر وقبس من روحها وشرارة من عقلها الأستاذ الدكتور محمد عودة صديق الشعب الهندي». ولا نعتقد أن هناك ما يضارع عودة بين كتابنا في فهمه للشخصية الهندية وإدراكا لتراثها الحضاري، ومتابعة لقضاياها، وعندما سألناه كيف عاش بعيدا عن معشوقته مصر فترة عمله مذيعا في الإذاعة الهندية.. وقال: اجتزت هذه الفترة كمدمن الدخان عندما يقلع عنه.. كنت «حرمان مصر، ولم أكن أستطيع البقاء في الهند لولا أنني أحببتها لأنها كمصر وارثة لحضارات عريقة وظروفهما السياسية والاجتماعية متشابهة. ويجمع بين الثورة الهندية وثورة سنة ١٩١٩ المصرية وشائج تاريخية ونضالية مشتركة!

في كتابه «رحلة في قلب نهرو» عقد عودة مقارنة بين الثورة الصينية والثورة الهندية، وأرجع نجاح الأولى إلى التحام الوطنية بالماركسية، لأن الكونفوشيوسية تعاليم أخلاقية أو دين بغير إله، بينما نكبت الثانية الطريق عندما ارتطمت الوطنية الهندية بالماركسية، لأن البوذية أو البراهمية دين بإله، ومن ثم كان الصدام بينها والفلسفة الماركسية. ولذلك لم يتم الالتحام. وبينما نجحت الصين - على حد تقديره - في القضاء على الأفيون والذباب والدعارة والمجاعات.. ووفرت الطعام لكل فم، لم تتمكن الهند حتى الآن في ظل ديمقراطية «ويستمنستر» الليبرالية من القضاء على الفقر أو المرض!

والحقيقة أن عودة ظل ولايزال مبهورا شديد الاعجاب بالتجربة الهندية، وبثالوث زعامتها (غاندي - نهرو - أنديرا غاندي) لكأنه واحد من كوادر أو كتاب حزب المؤتمر حتى إن الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل وشى من باب الدعابة بعشقه الصوفي لأنديرا غاندي. وأذكر ذات يوم أنني وجدت الأستاذ محمد عودة حزينا مهموما، ولم أثقل عليه بالسؤال حتى لحق بمجلسنا عدد من الأصدقاء، وعندئذ بادر من تلقاء نفسه إلى الحديث عن واقعة ظلت تؤرقه منذ سماعه بها وقراءته عنها، وكانت حول كتاب صدر أخيرا بالإنجليزية بعنوان «حياة أنديرا غاندي»، وسرعان ما تلقفته مجلة «تايمز أند أوف إنديا» الهندية بنشر بعض من فصوله، وقامت الدنيا ولم تقعد، حيث خرجت جموع الهنود في مظاهرات احتجاج عارمة، وقاموا بإحراق جميع نسخ المجلة وطالبوا الحكومة بمنع دخول الكتاب وتداوله في الهند: إذ كان يجسد أسلوب المخابرات الأمريكية في «اغتيال شخصية» وسمعة خصومها، حتى لا يتحولوا إلى رموز وقدوة في البذل والعطاء والنضال من أجل تحرر الأوطان لدى الأجيال الجديدة. وكانت التهمة التي حاولت الكاتبة الأمريكية إلصاقها بأنديرا غاندي في كتابها أنها زير رجال على غرار التهمة المشبوهة التي لحقت بنهرو باعتباره زير نساء!

وقال عودة: إنهم يريدون تصوير عائلة نهرو على أنها منحلة، وهذه الحملة تأتي في الوقت الذي يحكم فيه الهند اليمين الهندوسي الأصولي المتحالف مع اليمين الرأسمالي الذي يسير بالهند في طريق التبعية للغرب، المعادي لاشتراكية نهرو. أنديرا كان شعارها «أريد القضاء على الفقر وهم يريدون القضاء علي، وإذا مت فسوف أموت واقفة». وتشويه عائلة نهرو يأتي بعد فضيحة مدوية في الهند وقعت منذ عدة أشهر، فقد حدث أن سبعة من الصحفيين العاملين في التليفزيون الهندي تنكروا في هيئة وسطاء لعقد صفقات كبيرة مع رجال من قادة الحزب وقادة الجيش وصوروهم بكاميرات خفية وسجلوا أصواتهم وهم يتفقون معهم على صفقات وعمولات ورشاوى كبيرة وأذاعوا ذلك كله على مساحة في الإنترنت، فحدث زلزال كبير في الهند بسبب هذه الفضيحة المدوية واستقال وزير الدفاع وفضح رئيس الحزب الحاكم الهندوسي الذي كان شعاره طهارة اليد. وشاهده الناس وهو يقدم الرشاوى ويعرض العمولات فكانت ضربة قاصمة من نوعها طيرت طهارة الأصوليين الهندوس وهزت مركزهم ليس في الهند فقط ولكن أيضا في العالم كله. فهل هي مجرد مصادفة أن يصدر اليوم كتاب يحتوي على فضائح مخجلة بحق عائلة نهرو، أم أن الهدف من هذا الكتاب جاء بقصد وتدبير للتغطية على فضيحة الحزب الحاكم المدوية؟ ولماذا يكرر الكتاب نفس الاتهامات المنحطة التي جاءت في كتاب «ماثاي» سكرتير نهرو الذي اشتروه فأصدر كتابا مشبوها عنوانه «يومياتي مع نهرو» وكانت يوميات منحطة لتلطيخ شخصيته قال فيها ماثاي إن نهرو كانت له رفيقة وأنه أنجب منها ابنة غير شرعية. بل وكان على علاقة غير شرعية بأنديرا استمرت ١٢ عاما. وقال إنه - أي السكرتير - كان على علاقة بكاملا زوجة نهرو وأشياء من هذا القبيل. وعندما ذهب لنشر كتابه رفض الناشر نشر هذا الفصل: فلماذا تنشر الكاتبة الأمريكية اليوم نفس الكلام في كتابها والذي لم يتمكن ماثاي من نشره من قبل؟ وما معنى أن تروج شائعات من نوع أن أنديرا كانت على علاقة غير شرعية بمدرب اليوجا الخاص بها وبمدرس في جامعة طاغور كان يعلمها



كتابات عودة لا يختلف ظاهرها عن باطنها.. فهو يحمل ضميرا لا تستطيع أعتى موجات المناصب والإغراءات اختراقه..

الفرنسية، وأن «فيروز غاندي» زوجها خانها مع سيدات كثيرات؟ المعركة في جوهرها إذن معركة سياسية اجتماعية هدفها تلطيخ سمعة نهرو وعائلته وخلفائه لأنهم رموز وطنية مضيئة تمثل قوى متناقضة مع التحالف الهندوسي الرأسمالي الغربي الحاكم الآن.

النوم في الضيشاوي

الحقيقة أن السفر مع محمد عودة ينطوي على متعة إنسانية وثقافية. فهو ظريف مطبوع وساخر لاذع، ومحاور بارع، وسرعان ما تنفتح مغاليق ذاكرته التاريخية وهو يروي على مسامعنا سيلا من حكاياته المدهشة عبر العصور، أو يفسر لنا واقعة ملتبسة في تاريخنا المعاصر. ثم هو دءوب على زيارة المتاحف والآثار والمكتبات. ومعه في لندن أخذني إلى المتحف البريطاني لمشاهدة قسم المصريات ثلاثة أيام تباعا، ويومين في مكتبة وزارة الخارجية البريطانية للاطلاع على وثائقها عن فترة الاستعمار البريطاني لمصر، وفي المساء يتراوح غرامه بين مشاهدة المسرحيات الغنائية أو حفلات الموسيقى الكلاسيك!

ومع عودة في مصر أو الخارج لا تسأله كيف أوتي من الجاذبية حتى يدبر كل هذه الحفلات والدعوات والمآدب. وكنت معه أنا والصديق الصحفي جلال عارف في موسكو التي قصدناها للاطمئنان على الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسي بعد أن ألم به المرض. وفوجئنا بأن بيوت علية القوم من السياسيين والمبدعين واللامعين السوفييت على أهبة الاستعداد لاستضافة عودة. أذكر من بينهم بريماكوف وبلاييف وأجراكرشيف وتمايف والشاعر حمزة توف والمستعربة لينا. وبينما كنا متجاورين في مسرح البولشوي وراقصات الباليه يتهادين كالنسائم في رقة وسمو، مال عودة برأسه وهمس في أذني: بقى موش حرام ملائكة البولشوي يدخلون النار.. وصاحبتنا إياها تدخل الجنة؟! وكان يعني امرأة قبيحة نعرفها تدعي التقوى والصلاح!

ولعودة قول مأثور: «أناضل مع الكادحين وأدافع عن المظلومين، وأستمتع بحياة الرغد ما وسعني مع الموسرين وأولاد الحظ والحظوة». ولعل الطعام الجيد أفضل الملذات التي يهفو إليها، وهو يتناول طعامه بتؤدة كما لو أنه يستحلبه ويجتر مذاقه، ولا يثني على إفطاره الخفيف سوى وجبة واحدة في الغداء أو العشاء مهما كان الطعام فاخرا. وكلما كان مدعوا على طعام، غالبا ما يضع المضيف يده على قلبه خشية اصطحابه عددا من المعارف أو الغرباء بما يفوق كمية الطعام، وقد نتكتم احتجاجنا على هذا التصرف خاصة إن كانوا من ثقلاء الظل. ثم نكتشف أن بصلة المحب خروف والبساط أحمدي وأن شخصيته الآسرة تؤدي دورها بنجاح في عقد الصلات مع هؤلاء الغرباء، لكأننا نعرفهم منذ زمن بعيد!

ومنذ الخمسينيات وعودة يسكن شقة صغيرة لا تتعدى غرفتين في عمارة الأوقاف بالدقي، حيث تربطه علاقات إنسانية رائعة بالناس الذين هم فوق السطح، وهم سلالة البوابين والخدم الذين سبق وعملوا فترات من الزمن في حراسة العمارة وخدمة سكانها، ثم اتخذوا من السطح تباعا سكنا عشوائيا ومجتمعا خاصا مختلفا عن الناس الذين هم فوق والناس الذين هم تحت. ولا يزال عودة يحلم بشقة أخرى أوسع رغم أنه لم ينجب أولادا ولا بنات. لكن لأن أصدقاء عودة وتلاميذه وحوارييه كثر، وهو يحب أن يراهم جميعا حوله، يسهر معهم ويحاورهم ويأتنس بهم. وكم شهدنا في سكنه الراهن أسعد أوقات حياتنا ولا نزال، وهذه المتعة الفكرية والإنسانية التي يضفيها على مجالسه شبه اليومية، ودائما نجد حاجتنا من الطعام والشراب رغم موارده المتواضعة، ولأنه يكره الرتابة والملالة والسأم، ويهفو إلى التجديد والتغيير، لذلك هو دائما في حالة استبدال وإحلال الجديد مكان القديم من أثاث ومفروشات شقته، وكم كانت سعادته عندما ألححنا عليه باقتناء «الدش»، ووجد ضالته في متابعة أخبار العالم. ومن عجب أن تنتبه الإذاعة والتليفزيون أخيرا لعودة وتدعوه إلى الشاشة والميكروفون بعد أن اكتشفت فيه محدثا بارعا ومحاورا متمكنا لا تنقصه السخرية وخفة الظل وإتقان اللغات الحية كأحد أبنائها. وبينما كان من الطبيعي أن ينال أجرا سخيا على أحاديثه وحواراته تلك، فوجئ بمن يطلب منه يوما مبلغا من المال بدعوى أن طاقم التليفزيون «عاوز يشرب شاي» واضطر إلى أن يدفع لهم المبلغ وهو في شدة الخجل لهم، رغم ما عاناه من قلب أثاث شقته رأسا على عقب وكم الوقت الضائع في التصوير والتسجيل!

واستجابة لإلحاحنا وزحمة المواصلات اقتنى عودة سيارة نصر ١٢٨ عام ١٩٦٨، وراح أحد أقاربه يدربه على قيادتها. لكن عودة تراجع عن استكمال التجربة وباع السيارة وقال: اكتشفت أنها لا تناسب نمط الحياة التي تعودت عليها وأدمنتها. ووجدت أن «من فات قديمه تاه» بمعنى حرمانه من استخدام قدميه في جولاته القاهرية الممتعة الدءوبة، والجلوس حيث شاء في المقاهي، ومنها إلى المكتبات والفرجة على الناس وواجهات المحلات. ثم الصعود أيضا على الأقدام إلى القلعة للاقتناس بمسبقه العبقري المهندس حسن فتحي أو زيارة مرسم الفنان التشكيلي الكبير حسن سليمان. وربما وحشته استثارة الشيخ سجاد جلال ودعاباته، ومن ثم يشد إلى بيته الرحال دون تعب أو كلل!

وقد عرف لعودة سكن خاص لأول مرة بعد زواجه من تلميذته النجيبة السيدة عائشة، وهي كانت - يرحمها الله - جميلة وفنانة رقيقة، وقد أبدعت في تنظيم حياته ووفرت له أسباب الاستقرار الاجتماعي. وقد جزع إلى حد توقع النهاية لحياته عندما أصيبت بمرض عضال، وتكبد ما فوق طاقته من الآلام النفسية والمال وحملها للعلاج في لندن بعد أن أعياها الشفاء في القاهرة، ومن نعم الله وفضله على عودة عندما داهمه المرض وأجرى العديد من العمليات الجراحية أخيرا، أن حالفه التوفيق والسعادة وتزوج السيدة منى التي أصبحت خير عون ورفيق له. وأضفت على حياته المزيد من البهجة والطمأنينة والمؤانسة!

والشاهد أنني حين تعرفت على محمد عودة لأول مرة، كان من سكان «البانسيونات» التي كانت تملكها عهدئذ سيدات وأرامل من «اليونانيات والأرمنيات والإيطاليات». وقد ظل متنقلا يسلمه بانسيون لآخر منذ ولوجه للعمل بالقاهرة في الأربعينيات، فكان عليه أن يواجه دائما مشكلة ذات شقين.. «الأول» تعثره في دفع الإيجار.. و«الثاني» يكمن في تسريب ثروته الوحيدة من الكتب تباعا واتخاذها من صاحبة البانسيون في الوقت المناسب وبعدها لا يهم أن تضع يدها على كامل منقولاته الشخصية إلى حين الوفاء بالإيجار المتأخر!

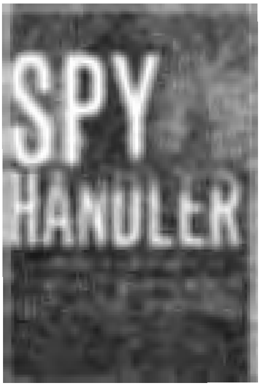
وكتابات عودة لا يختلف ظاهرها عن باطنها.. فهو يحمل ضميرا لا تستطيع أعتى موجات المناصب والإغراءات اختراقه.. لذلك يعمل له رجل السياسة ألف حساب لرأيه الصريح دوما في توجهاتهم ومواقفهم أو تراجعاتهم على البعد ومن دون الاقتراب منهم.. وذلك أن شخصيته لها صفات تشبه صفات الضمير، رغم أنها لا تظهر على السطح أحيانا. لكنها تختفي في أعماقه وتتحرك تلقائيا في مواجهة كل التصرفات الخاطئة والمعوجة على السطح في الوقت المناسب!

وعلى قدر معرفتي بعودة وخباياه ومكنوناته النفسية والفكرية، أحسب أن أحلامه الوطنية والقومية ظلت دوما متأججة وترفض أن تخبو أو تتوارى أمام توالي الهزائم والانكسارات ويأس أعداء الأمة وإجهاض ثوابتها تباعا، مع تفاؤله باجتياز الأمة العربية لمحنتها ونهوضها من كبوتها حتما بعد سقوط بغداد. كذلك تواضعت مواصفات المثالية التي كان ينشدها في أصدقائه وتلاميذه، فأصبحت خليطا من صفات جيدة وأخرى ليست كذلك، خاصة وقد اكتشف أن صراحته في حسابهم نوع من القسوة التي قد تفضي إلى انفضاضهم من حوله، فآثر القدوة والتوجيه ضمنيا إلى الطريق المستقيم!

ويرفض عودة أن يراه البعض زاهدا أو ناسكا أو راهبا. فلا أكاد أعرف في حياتي من يطاوله في حب الحياة والاستمتاع بمباهجها ولذائذها.. يقول: من لا يحب الحياة ويثق بها فمن رابع المستحيل أن يضيف إليها شيئا. ■

عندما يتصارع الكبار

حرب الجواسيس بين واشنطن وموسكو



حازم حسن صبحي

※※ قد يظن البعض أنها رواية من الخيال تصلح أن تكون فيلماً سينمائياً أو قد يرى البعض أن الوقائع بها مبالغ فيها ولا يمكن تصور حدوثها. إلا أن الواقع أن اثنين من كبار العاملين فى أجهزة المخابرات الأمريكية ذات الصيت والسمعة والباع، يعيشان فى رغد ورخاء المجتمع الأمريكي مجتمع دولة القطب الواحد قاما كل على حدة ودون تنسيق مع الآخر بالتطوع لتقديم خدمات تشمل معلومات فى غاية السرية إلى جهاز المخابرات السوفيتى الذى كان معروفاً باسم KGB ثم أصبح بعد انهيار الاتحاد السوفيتى معروفاً باسم SVR. وكانا يعلمان أن هذه الخدمات ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى وقد تصل عقوبتها فى حالة القبض عليهما إلى الإعدام. وكان تطوعهما تطوعاً محضاً ولم يبذل أى ضابط مخابرات سوفيتى أى جهد فى تجنيدهما. (وإن كان هناك ضابط مخابرات سوفيتى على درجة عالية من الخبرة والدراية المهنية قام بإدارتهما وتشغيلهما بكفاءة عالية). وعنصر الخيال فى قصة هذين الرجلين هو أنه من المعروف مهنياً أن ارتقاء أى فرد فى السلم الوظيفى لأى جهاز مخابرات يعتمد أساسا على تأكد الجهاز من ولاء وإخلاص وأمن هذا الفرد. فالأول كان رئيس وحدة مقاومة التجسس بإدارة الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا بوكالة المخابرات المركزية والثانى كان المسئول عن إدارة الاتحاد السوفيتى بمكتب التحقيقات الفيدرالية.. وبالرغم من ذلك فقد قاما بمحض إرادتهما بالاتصال بالسفارة السوفيتية فى واشنطن القريبة من أماكن عملهما وأماكن سكنهما عارضين خدماتهما مقابل المال.

الأول هو الدريش أيمز Aldrich H. Ames وكان يعمل فى وكالة المخابرات المركزية CIA والثانى هو روبرت فيليب هانسن Ropert Philip Hanssen وكان يعمل فى مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI. وهذان الجهازان هما أكثر أجهزة المخابرات الأمريكية لمعاناً وسمعة وسط مجتمع المخابرات الأمريكية الذى يشمل ما يزيد على عشرة أجهزة.

فى ١٦ أبريل ١٩٨٥ تقدم الدريش أيمز إلى مبنى السفارة السوفيتية فى الشارع رقم ١٦ بالعاصمة الأمريكية واشنطن، بعد أن أقنع رئاسته أنه ينوى مقابلة دبلوماسى سوفيتى يسعى إلى تجنيده، وطلب مقابلة مسئول المخابرات السوفيتية بالسفارة وعرض عليه تقديم خدماته مقابل المال.

وتعد قصة أيمز أكبر قصة اختراق حدثت فى تاريخ وكالة المخابرات الأمريكية

Spy Handler
Memoir of a KGB Officer
مذكرات ضابط بالمخابرات الروسية
مدير الجواسيس
Victor Cherkashin, with Gregory Feifer
Basic Books, 2005

وقد استمر تعامله مع السوفييت حتى قبض عليه فى ١٩٩٤/٦/٢١ أى حوالى عشر سنوات وبلغ إجمالى ما حصل عليه من أموال حوالى ٢.٥ مليون دولار فى مقابل تقديم وثائق ومعلومات سرية للغاية للسوفييت ترتب عليها إعدام عدد من عملاء CIA داخل الاتحاد السوفيتى وافشال العديد من عملياتها.

ويرجع استمرار هذه القصة لعشر سنوات إلى الإهمال والتراخى الأمنى اللذين كانا سائدين فى CIA وبالرغم من أن سلوكيات أيمز كانت ترشحه إلى التقاعد بسبب إفراطه فى شرب الكحوليات وتراخيه الأمنى، فقد تكرر أكثر من مرة تركه لوثائق سرية فى أماكن عامة واسترجاعها بعد قيام مواطنين عاديين بالإبلاغ عنها إلا أن هيئة المعلومات directorate of operation التى كان يعمل بها تغاضت عن هذه السلبيات ولم تتخذ مواقف حاسمة.

وقد عمل أيمز فى CIA منذ ١٩٦٢ وتزوج من امرأة كولومبية كان قد جندها للعمل مع الوكالة وقد ساعدته فيما بعد فى أثناء اتصاله بالسوفييت. وفى ١٩٨٣ عين رئيس فرع مقاومة التجسس بإدارة الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا بهيئة العمليات. وتم القبض عليهما عندما علمت CIA من خلال أحد عملائها داخل روسيا اسمه الكودى Avenger باتصالات أيمز وتحركاته.

أما روبرت هانسن فقد ظل يعمل فى خدمة السوفييت لأكثر من عشرين عاماً أى أكثر من ضعف الفترة التى عملها أيمز معهم. فى ١٩٨٠ أرسل هانسن رسالة مكتوبة موقعة باسم كودى هو حرف B إلى كبير مسئولى المخابرات السوفيتية فى السفارة بواشنطن (وهو نفس الرجل الذى تولى إدارة اتصال أيمز) عارضاً عليه استعداده للتعامل بإمدادهم بوثائق غاية فى السرية مقابل الحصول على أموال. ولم يتردد السوفييت فى قبول ضربة الحظ هذه واستمر التعامل بينهما. حصل فيه الروس على عشرات الألوف من الوثائق والمستندات السرية والخطط والنوايا الأمريكية. وقد بدأ التعامل أثناء ذروة الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن واستمر حتى بعد سقوط حائط برلين وانتهاء الحرب الباردة والإعلان عن الوفاق بين الدولتين.

فحروب المخابرات لا تعرف مراحل الصداقة ومراحل العداوة فهى حروب مستمرة تحدث بين الأعداء وتحدث بين الأصدقاء بل إنها قد تشتد فى ضراوتها فى أوقات السلم عن أوقات الحرب.

كان هانسن أكثر حرصاً وأمناً فى تعاملاته مع السوفييت من أيمز فكان يستخدم أسماء كودية وكان يرفض تماماً مقابلة السوفييت وجهاً لوجه وظل التعامل بينهم من خلال النقاط الميتة deaddrop وهى عبارة عن عدد من النقاط المتفق عليها فى حدائق ومتنزهات ولاية فيرجينيا القريبة من العاصمة واشنطن وكل نقطة لها اسم متفق عليه أيضاً وهناك نظام للإشارات يعبر عن وجود رسالة بالنقطة أو يعبر عن

تمام تفريغ النقطة وهذه الإشارات عبارة عن أشرطة لاصقة توضع في وضع أفقي للتعبير عن معنى وفي وضع رأسي للتعبير عن معنى آخر. كما اتفقا على أسلوب لتحديد توقيتات وأزمنة شحن وتفريغ النقاط فإذا ذكر هانسن تاريخاً وتوقيتاً يتم طرح رقم ٦ منه لمعرفة التاريخ والتوقيت الفعلي وإذا ذكر السوفييت تاريخاً وتوقيتاً يتم إضافة رقم ٦ عليه.

وكان الأمن المحكم لاتصالات هانسن هو سر استمرارها لأكثر من عشرين عاماً وبلغ إجمالي ما تقاضاه من السوفييت حوالي ١,٦ مليون دولار أي أن تكلفة الجاسوسيين الإجمالية بلغت أربعة ملايين دولار. ويرجع انخفاض أجر هانسن عن أيمز إلى أن اتصالات هانسن كانت بها فترات توقف مطولة.

وقد قبض على هانسن في فبراير ٢٠٠١ وبنفس الكيفية التي سقط به أيمز عندما استطاعت CIA من خلال عميل لها داخل المخابرات الروسية الحصول على إحدى الحقائب البلاستيكية التي كان هانسن يستخدمها في وضع رسائله وتم فحص بصمات الأصابع على الحقيبة فتبين أن إحداها تخص روبرت هانسن.

وبعد القبض على هانسن والقيام بتفتيش منزله وجد في مذكراته الشخصية مجموعة كتابات وانطباعات كتبها بنفسه ورد فيها الآتي «إن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن تشبيهها بطفل متخلف عقلياً قوي البنية وخطير ولكنه غير ناضج ومن السهل توجيهه. ولكن لا تنخدع بالمظهر فهو أيضاً يستطيع بسرعة أن يتحول إلى عبقري إذا اقتنع بهدف ما».

شكلت قصة هذين الجاسوسين فترة صراع بين أجهزة مخابرات واشنطن وموسكو إلا أنها كانت ضربة موجعة لمجتمع المخابرات الأمريكي بسبب فداحة الاختراق الذي سببه تطوع هانسن وأيمز لخدمة مخابرات موسكو. وقد شهد هذا الصراع عدة جولات كان أولها تعرف موسكو على موظفيها الذين يعملون بسفارتها في واشنطن وتم تجنيدهم بواسطة المخابرات الأمريكية فقامت باستدعائهم إلى موسكو ومحاكمتهم وإعدام اثنين منهما، هما موترونين Motronin ومارتينوف Martynov بعد محاكمة سريعة.

وفي جولة أخرى استطاعت واشنطن من خلال عملاء لها داخل موسكو التعرف على تجسس أيمز وهانسن فتم القبض عليهما ومحاكمتهما والحكم عليهما بالسجن مدى الحياة وقد تم تخفيف حكم الإعدام بسبب تعاونهما مع سلطات التحقيق في كشف التعاملات التي أجرياها مع موسكو.

وإذا بحثنا عن العناصر المشتركة بين العمليتين نجد أن مسرح التعامل فيها كان مدينة واشنطن وكانت السفارة السوفيتية هي مركز الثقل وكان أسلوب الاتصالات وتبادل الرسائل هو النقاط الميتة والتي تم بمقتضاه تبادل أعداد ضخمة من الوثائق مقابل مبالغ مالية كبيرة وبالرغم من اعتراض الكثيرين على هذا الأسلوب بسبب ضعفه الأمني إلا أنه كان ناجحاً جداً في عمليتي أيمز وهانسن ولعل حدائق ومتنزهات فيرجينيا ذات الممرات الطويلة والمتعرجة وذات الأشجار الكثيفة كانت عاملاً مساعداً في نجاح هذا الأسلوب.

إلا أن أهم عنصر مشترك هو أن العمليتين بدأتا بالتطوع المحض فيما يسمى مهنياً بالعملاء القادمين walk-in agents وهذا في حد ذاته يستدعي دراسة خاصة للمجتمع الأمريكي الذي لم تشفع له مستويات الرخاء العالية والقدرة المادية الكبيرة والتي لا مثيل لها من تمرد هذين الشخصين وتحول ولائهما بمقدار ١٨٠ درجة. بل إن الالتزام الديني أيضاً كان موجوداً بدرجة لدى هانسن. فإذا كان أيمز مفرطاً في شرب الكحول وأسرته متصورة عليه وعلى زوجته فإن هانسن كان رجلاً أمريكياً محافظاً متزوجاً وأباً لستة أبناء ومسيحي كاثوليكي شديد التحفظ ينتمي لجماعة كاثوليكية تسمى Opus Dei ولها تعاليم متشددة تصل في بعض الأحيان إلى درجة ارتداء الأسلاك الشائكة لإسالة الدماء باعتبار أن الإحساس بالألم هو نوع من القدسية.

إن هذا الإطار الاجتماعي المحافظ دينياً والمستقر مادياً وأسرياً لم يكن كافياً لمنع هانسن من التطوع للتجسس.

أما العنصر المشترك الأخير فهو البطل المجهول وراء هاتين العمليتين وهو مسئول المخابرات السوفيتية في سفارة واشنطن الذي أدار بكفاءة اتصالات هانسن وأيمز وحقق منهما مكاسب عظيمة لجهاز مخابراته وظل اسمه مجهولاً عن الإعلام حتى تم القبض عليهما وقد أدلى بحديث لمجلة نيوزويك في يناير ٢٠٠٥ كما ألف كتاباً نشر حديثاً باسم مدير الجواسيس Handler إنه فيكتور شيركاشين Victor Sherkashin.

تولى فيكتور شيركاشين رئاسة مكتب المخابرات السوفيتية في السفارة بواشنطن وساقته الأقدار لكي يكون المسئول عن إدارة الاتصالات مع أخطر جاسوسين في تاريخ مجتمع المخابرات وكان عليه أن يحافظ على أمن وسلامة الاتصالات دون حدوث خلط بينهما ودون تعريض أي من العناصر المشتركة إلى القبض بواسطة السلطات الأمريكية. واستطاع شيركاشين المحنك أن يستحوذ على كميات هائلة من الوثائق والمستندات والخطط السرية وهو يدير العمليتين وسط عاصمة الدولة المخترقة.

وكان لديه بعد نظر احترافي: ففي إحدى المناسبات ذهب إلى حفل استقبال رسمي يعلم أن الدرويش أيمز سيكون موجوداً به وتعمد أن يقابله وجهاً لوجه ويتبادلا حديثاً عاماً مقتضباً ثم تركه. وعندما سئل بواسطة الصحافة بعد تقاعده وبعد كشف عملية أيمز.. ألم يكن ما فعلته يعتبر خطأ مهنياً قد يعرض أمن الاتصالات مع أيمز إلى الكشف أجاب.. على العكس فأنا أعلم أن وكالة المخابرات

حروب المخابرات لا تعرف مراحل الصداقة ومراحل العداوة فهي حروب مستمرة تحدث بين الأعداء وتحدث بين الأصدقاء بل إنها قد تشتد في ضراوتها في أوقات السلم عن أوقات الحرب

المركزية تجري بشكل دوري عمليات كشف الكذب على العاملين بها للتأكد من سلامتهم الأمنية وأعلم أن من بين الأسئلة الدائمة في هذه الاختبارات سؤالاً يقول: هل قابلت في الفترة الأخيرة أحد رجال المخابرات السوفيتية وأجريت معه اتصالاً؟ وحتى لا يتعرض أيمز لأي انفعالات أثناء اختباره عندما يسأل هذا السؤال تعمدت أن أقابله بشكل طبيعي لا يثير الشكوك لأضمن له النجاح في عبور السؤال.

وفي مناسبة أخرى عندما علم شركاشين بالقبض على العميلين السوفيتيين موترونين ومارتينوف واتخاذ قرار بإعدامهما اعترض على ذلك وطلب بدلاً من الإعدام الاستفادة بهما كعملاء ثلاثيين triple agents مما سيعود بفائدة كبيرة على موسكو.

فالعميل الثلاثي يستطيع كشف نوايا جهاز المخابرات الذي يعمل ضده لأنه سيأخذ تعليماته منه ويعطيها للجهاز الذي يعمل معه وستكون هذه التعليمات معبرة عن نوايا وخطط الجهاز الذي يعمل ضده.

لقد كان شركاشين ضابط العمليات case officer وقد أدلى بحديث صحفي إلى جريدة الصنداي تايمز في ٩٨/٦/٨ وكان قد تم القبض على أيمز في حين أن هانسن كان لايزال يعمل واقتصر حديثه على أيمز دون أي إشارة إلى وجود عملاء آخرين.

وفي ٢٠٠٥/١/١٠ أدلى بحديث آخر إلى مجلة النيوزويك أعطى فيه للصحافة الغربية تفسيراً لعملية التجسس التطوعي لهانسن وأيمز ومن قبلهما جون ووكر ورونالد بيلتون وجميعهم من العاملين في أجهزة المخابرات الأمريكية ويفترض فيهم أعلى درجات الأمن والولاء.

فقال..

«إن التصوير المستمر والمتكرر في الإعلام الأمريكي وبصفة خاصة أفلام هوليوود السينمائية الذي يظهر الفرد الأمريكي أقوى وأذكى وأغنى ويمتلك تركيبات عجيبة من العضلات ويستطيع إطلاق النيران في كل الاتجاهات أثرت على النفسية الأمريكية وجعلتها تصاب بالغرور والصلف ومن ثم تفقد الرؤية الصحيحة. وهذا التأثير امتد إلى المؤسسات الأمريكية ومنها أجهزة المخابرات فجعلها تعطي صلاحيات أكبر للأفراد وتتراخى في المتابعة الدقيقة لمستوياتهم الأمنية ولم تدرك هذه المؤسسات أن الفرد الأمريكي هو إنسان عادي جداً وفي أحيان كثيرة يكون أقل من العادي بسبب حياة الترف الزائدة التي يعيش فيها.

إن هذا الوضع جعل البعض يتمرد على الغرور والصلف مثلما حدث مع هانسن أو يسعى للكسب المادي أولاً وقبل كل شيء مثلما حدث مع أيمز وفي الحالتين نحن أمام حالة ضعف في الإيمان وضعف في الولاء ناتجة من صميم الحياة الأمريكية وهذا هو مربط الفرس».

ولقد حاولت الصحافة الأمريكية أن تقصر التفسير لظاهرتي هانسن وأيمز على مجرد الجشع المادي فقط إلا أن شركاشين أورد هذا التفسير الذي يعبر عن خلل اجتماعي كبير داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كشف الصراع بين موسكو وواشنطن الكثير من العيوب فيهما. فمن الإهمال والتراخي في إدارة الأمن الذي أسفر عن فضيحتي هانسن وأيمز إلى السرعة في التصرف بدون تمهل في إعدام موترونين ومارتينوف ثم التناقض الصارخ بين صورة السوبر مان الأمريكي وضعف الولاء لدى هانسن وأيمز وغيرهما.

حقاً عندما يتصارع الكبار تسقط الأقنعة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

جهاد - انتشار وانحسار الإسلام السياسي

جيل كيبل
ترجمة: نبيل سعد
مراجعة: د. أنور مغيث
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٥
٥٥٣ صفحة



هذا الكتاب هو أول دراسة شاملة لحركة الإسلام السياسي التي انطلقت في سبعينيات القرن الماضي حتى أيامنا هذه. تتيح هذه الدراسة التي تبنت منظوراً سياسياً واجتماعياً، كيف تفتت الإسلام السياسي بعد صعود جامح بلغ ذروته مع الثورة الإيرانية والجهاد في أفغانستان إلى اتجاهات متعارضة: انتهى بعضه إلى حلول وسط ديمقراطية، في حين انساق البعض الآخر إلى العنف والهروب إلى الأمام عبر الإرهاب الدولي.

وهذه الطبعة من الكتاب - المزيدة والمنقحة - ترافق القارئ حتى الأيام التي أعقبت عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والانتفاضة الفلسطينية الثانية، وكذلك إلى الأيام التي أعقبت النجاحات الانتخابية للإسلاميين المعتدلين في تركيا، والسجالات التي تدور بين المسلمين في أوروبا الغربية.

وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى إحدى عشرة لغة وظهرت طبعته الأولى عام ٢٠٠٠. وهو الآن يعد مرجعاً أساسياً لحركة الإسلام السياسي في كافة أرجاء العالم.

الإنسان العاقل وزاده الخيال

رجائي عطية
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٨١ صفحة



الإنسان كائن عاقل.. بوصلته عقله وزاده الخيال.. فالخيال هو الذي يميز الإنسان عن سائر الكائنات، والخيال هو زاد ومدد العقل الذي يحلق به الإنسان في المكان والزمان.. ينتقل في المكان بغير سفر. ويستحضر به أزمنة مرت، ويتصور به الغيب ويستشرف من خلاله المستقبل، دون أن يفارق اللحظة التي يعيشها.

يؤكد المؤلف أن في خيال الآدمي - مع عقله - سر قدرته على الفكر والإبداع، فالخيال - من وجهة نظره - قطعة من وعي الإنسان لا تفارقه إلى أن يرحل عن الدنيا.

ومن الحماقة أن يستهين أي آدمي عاقل بوجود الخيال ودوره الأساسي في حياة كل منا، فأوقات الآدميين ليست إلا ميادين اصطلاحية لخيالهم بالنسبة لحياتهم، يعيشون بها حركات الزمان في المكان كما تصوروها.

وفضائل الإنسان العظيمة كلها نبت لخيال الآدمي.. ولولا الخيال ما عرف البشر هذه الفضائل، ولولاه أيضاً ما كان هناك رجال ونساء أفذاذ ركبوا الصعب وكرسوا العمر وثابروا وقاوموا وصبروا، وما عرف تاريخ البشر قيمة ومكانة وجدوى وكرامة الإخلاص والصدق والاستقامة والشجاعة والمثابرة والبطولة والوفاء والتضحية والإيمان، فالآدمي مركب بالغ الدقة والإحكام والإتقان.

وهذا الكتاب يحشد العديد من القضايا والمواقف التي يعيشها كل إنسان، يرصدها المؤلف ببراعة وبعمق شديدين تؤهل القارئ لكي يفهم حياته بشكل أكثر وعياً ليعيشها بسعادة أكثر.

ثوار ومشاغبون

محمد الشافعي
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ١٦١ صفحة، ٥٢٥ قرشاً



الثائر الحقيقي من وجهة نظر المؤلف لابد أن يكون مسكوناً بالإبداع، لكي يمتلك القدرة على البناء.. كما أن المبدع الحقيقي لابد أن يكون مسكوناً بالثورة لكي يمتلك القدرة على الإضافة.

وفي هذا الكتاب يلقي المؤلف الضوء على بعض رواد الثورة والشغب في الفكر والفن والأدب، موضحاً عظمة هؤلاء الرواد الذين كانت حياتهم سلسلة طويلة من الدروس والعبر، التي تجعل منهم «النموذج الأبهى» للقدوة الجميلة التي أصبحنا نفتقدها الآن بشدة.

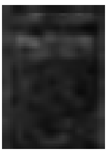
وكما يقول المؤلف فإنه توقف في كتابه هذا عند أصحاب الإبداعات الخارقة والعطاءات الخالدة التي أثرت بشكل كبير في تاريخ الأمة. ومن هذه الشخصيات: رفاعة رافع الطهطاوي شيخ مشايخ المعارف المصرية الذي تحول إلى جسر للتنوير من خلال نقله لمعارف وثقافة الغرب إلى العرب الذين كانوا - آنذاك - يعيشون حقبة حالكة من تاريخهم. كما كان سلامة موسى الجامعة التي تعلم فيها عشرات المبدعين في مناخ يؤكد على حرية التعبير ورحابة العقل.

أما عبد الرحمن الشرقاوي فكان مبدعاً موسوعياً ظل طوال عمره ينادي بفكرة العدالة. ويأتي يوسف السباعي في طليعة الأدباء الذين شغلتهم فكرة العمل العام حيث كان المحرك الرئيسي لكل الكيانات الثقافية التي مازالت تؤدي دورها حتى الآن.

وهكذا يتناول الكتاب سيرة حياة ١١ نجماً لامعاً في سماء الفكر والثقافة والفن في مصر، ليلقي الضوء على أهم ما قدموه طوال تاريخهم.

الحديث النبوي وعلم النفس

د. محمد عثمان نجاتي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٦٠ صفحة



يعتبر هذا الكتاب تكملة للكتاب السابق للمؤلف «القرآن وعلم النفس» وهما يقدمان وجهة نظر المؤلف عن التصور الإسلامي الصحيح عن الإنسان. ودراسته لما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من مفاهيم نفسية وحقائق تتعلق بالحياة النفسية للإنسان.

وفي هذا الكتاب يعرض المؤلف ما ورد في الحديث النبوي متعلقاً بالنواحي المختلفة من سلوك الإنسان، مثل دوافع السلوك، والانفعالات، والإدراك الحسي، والتفكير، والنمو، والشخصية، والصحة النفسية، والعلاج النفسي. وحاول المؤلف على قدر الإمكان المقارنة بين ما جاء في الحديث متعلقاً بهذه الموضوعات وما يذهب إليه علم النفس.

ويأتي هذان الكتابان كمحصلة لاهتمام المؤلف منذ فترة طويلة بدراسة المفاهيم النفسية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بهدف الوصول إلى فهم دقيق للتصور الإسلامي للإنسان، ومعرفة وجهة نظر الإسلام في العوامل الرئيسية للشخصية السوية والصحة النفسية وأسباب الانحراف والشذوذ والمرض النفسي، والطرق السليمة لتعديل السلوك والعلاج النفسي، وأسباب سعادة الإنسان، وأسباب شقائه، ومنهج الحياة الأمثل للإنسان لكي يعيش عيشة آمنة مطمئنة سعيدة.

ويقول المؤلف إن علم النفس الذي يدرس الآن في الجامعات العربية والإسلامية إنما هو مستمد من الغرب وهو يعتمد في نتائج البحوث التي أجريت، في الأغلب، على دراسة مجتمعات غربية غير إسلامية لها تصورها الخاص عن الإنسان، ولها فلسفتها الخاصة في الحياة. ولها ثقافتها ومعاييرها وقيمها الخاصة، وهو ما يمكن ملاحظته في نظرية سيجموند فرويد عن دور الجنس في التحليل النفسي أو في تمجيد الثقافة الأمريكية المعاصرة للإنجاز في العمل وأهمية التنافس والتفوق كمعيارين للنجاح.

ومن هنا، فإن أهمية هذا الكتاب تتضح في اعتماد المؤلف على الثقافة الخاصة التي تميز المجتمعات العربية والإسلامية وسعيه لتقديم مدرسة جديدة يمكن أن تسمى بالمدرسة الإسلامية في علم النفس.

سينما العالم الثالث والغرب

روي آرمز
ترجمة: أبية الحمزاوي
القاهرة: مكتبة الإسكندرية، مركز الفنون، ٢٠٠٤، ٢٤٨ صفحة



يركز هذا الكتاب على تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تطور ما يمكن تسميته «سينما لا غربية» في العديد من دول العالم الثالث، في نفس الوقت الذي كان فيه رواد صناعة السينما خارج أوروبا واليابان وأمريكا الشمالية يعملون ضمن شروط يسيطر فيها الفيلم الأجنبي على الشاشات المحلية، وحيث يسخر التوزيع المحلي لترويج منتجات مستوردة تعطي للسينما وظيفة تجارية ترفيهية يمكن أن تكون غريبة عن التقاليد المحلية.

يعتمد الكتاب في دراسته لسينما العالم الثالث على نظرية المركز والمحيط بين الدول العظمى والبلدان التابعة، حيث كانت محاولات إقامة صناعة سينمائية في دول العالم الثالث محاولة من رأس المال

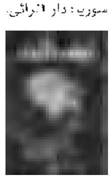
في هذه الدول لتأكيد وجوده، وحصوله على حصة متزايدة في السوق المحلي. كما كان الغرب يجهل تماما أن إنتاجاً سينمائياً يزدهر في أجزاء عديدة من العالم اللاغربي في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، حيث كانت الهند مثلاً تنتج أفلاماً أكثر من بريطانيا العظمى.

ويستعرض الكتاب ضمن أحد فصوله السينما في مصر، مشيراً إلى الدور الذي لعبته القوى الأوروبية بعد عام ١٨٤٠ في إجهاض تجربة محمد علي ومحاولته بناء مصر كقوة رأسمالية مستقلة ذاتياً، وتطور الإنتاج السينمائي الخاص في مصر، وتدخل الدولة في صناعة السينما خلال المرحلة الناصرية، مستعرضاً بعض الأمثلة من الأفلام المصرية وكيف عبرت عن أوضاع اقتصادية شهدتها مصر طوال القرن الماضي.

العولمة والأمركة

موفق النقيب

سوريا: دار الرائي، ٢٠٠٤، ٣٤٤ صفحة



تكتسب «العولمة» أهمية لم يسبق لأي موضوع آخر أن اكتسبته في تاريخ البشرية. فالعولمة اشتملت كمفهوم كافة جوانب الحياة البشرية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً وحضارة وسلوكيات، وتبنى على أساسها استراتيجيات عمل وآليات تحرك وأنماط تفكير وسلوك.

وفي ذات الوقت، عملت الولايات المتحدة الأمريكية ومازالت، على لي عنق العولمة كي تدخل كما يقول المؤلف في عنق زجاجة الرؤية الأمريكية بكافة جوانبها، والتي تتحكم فيها الرغبة الأمريكية الإمبراطورية بفرض سيطرة عالية تقدم من خلالها الحلول المناسبة لمصالحها الاستراتيجية.

وعلى جانب آخر، أخذت القوى العالمية التي تنضوي تحت تحالفات أو منظمات دولية تسعى لإخفاء صورة إيجابية على مسائل العولمة وللاتجاه نحو صفات إنسانية وحضارية تسمح بتكريس ما يسمى بحوار الحضارات، والاستفادة من الجوانب الإيجابية في الحضارات لصياغة حالة عولمية منفتحة تخدم مصالح البشرية، وتستفيد من أخطاء الماضي، وتؤسس بحالة متقدمة في مسيرة التطور البشري مع الحفاظ على الخصائص والهويات المتميزة لكل مجتمع أو لكل تجمع دولي أو إقليمي.

وقد شكلت هذه المعادلة بطرفيها المتضادين: طرف الرؤية الأمريكية، وطرف العولمة العالمية الأخرى، حالة من الصراع العالمي الذي أخذ يسود العالم في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط القطب السوفيتي وكتلته الاشتراكية.

وقد أخذ هذا الصراع أشكالا مختلفة، تراوح بين الصراع النظري والتقني من خلال منظمة التجارة العالمية والمنظمات الدولية الأخرى، والصراع المكشوف في ساحات إقليمية كما يحصل في أفغانستان والعراق وفلسطين والبلقان.

وهذا الكتاب يرصد أبعاد هذا الصراع والتجاذب والتنافر في طروحات العولمة، وانعكاسات الصراع الدولي على العالم العربي والخطاب الإسلامي ومخططات أمريكا في المنطقة العربية، والصراع العربي الإسرائيلي.

فلسطين ـ الفلسطينيون والقانون الدولي

فرانسيس بويل

ترجمة: د. عبد الله الأشعل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ٢٨٥ صفحة



هذا الكتاب من الكتب النادرة، فهو بقلم أستاذ أمريكي متخصص في القانون الدولي يجمع بين الدقة العلمية والإنصاف الظاهر لحقوق الشعب الفلسطيني. لذلك فهو يعد باللغة الإنجليزية مرجعاً مهما للمتحدثين بها، كما تعد ترجمته العربية مرجعاً مفيداً لقراء العربية يفوق المصادر العربية المتاحة في دقته وتفصيله.

ويقدم الكتاب معلومات أساسية حول مبادئ حقوق الإنسان الدولية القانونية التي تنطبق على الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وملاءمتها للتوصل إلى أي تسوية شاملة للسلام في الشرق الأوسط بين إسرائيل وفلسطين، وكذلك بين إسرائيل والدول العربية المجاورة.

يتناول الكتاب رؤية المؤلف للأكاذيب التي تستند إليها السياسة الخارجية الأمريكية في العديد من مناطق العالم وعلى رأسها الشرق الأوسط، ويقول المؤلف أن اللوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة والمنتفعين منه في الكونجرس الأمريكي حاولوا بشكل مستمر ممارسة الضغط على الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين لكي يعترفوا بالقدس عاصمة لإسرائيل، حتى لو أدى هذا إلى إشعال الرأي العام في العالم الإسلامي كله الذي يشكل سدس سكان العالم.

ويتتبع الكتاب مراحل الكفاح الفلسطيني منذ انتداب عصبة الأمم على فلسطين مروراً بالانتفاضة وأوسلو وانتفاضة الأقصى والجدار العازل وسياسات واشنطن المعادية للحقوق الفلسطينية المشروعة والمقررة قانونياً، كما يحوي الكتاب قائمة ببليوجرافية لأعمال الإبادة التي مارستها إسرائيل على الفلسطينيين خلال انتفاضة الأقصى.

تحطيم الأسطورة ـ تخطي الإسلام للعنف

بروس ب. لورنس

تعريب: عساف علم الدين

مراجعة: د. رضوان السيد

السعودية: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤، ٢٢١ صفحة



يحاول هذا الكتاب أن يقدم فهماً مختلفاً عما هو شائع في الغرب عن الإسلام والمسلمين. فكما يقول المؤلف إن الإسلام يحفل بالرؤى التعددية للواقع كما أن المسلمين متسامحون على نحو كبير. ويتساءل: إذا كان الوضع هكذا، فلماذا ينظر إلى المسلمين وإلى الإسلام كدين غريب في أفضل الحالات أو دين عنيف في أسوئها؟ يجيب المؤلف أن السبب الرئيسي لهذه النظرة السلبية للإسلام، وأن الإسلام ينبع من شرق أوسط عربي معاد للآخر في نفس الوقت الذي لا يزال معظم الصحفيين وكثيرون من صناع القرارات السياسية في الغرب يتجاهلون أي رؤية موضوعية للإسلام ويرددون نفس مقولات الملوك الأوروبيين الذين شنوا حروبهم الصليبية على العرب قبل نحو ألف عام.

يوضح المؤلف أنه بعد مرحلة الحرب الباردة، بدأ الغرب يردد وجود الخطر الإسلامي الأخضر، بعد انهيار الخطر الشيوعي الأحمر، كما أن العدو الإسلامي هو بكل تأكيد عبارة عن محارب أجنبي تم استحضار صورته من الماضي، أو إرهابي محتمل يراقب أمريكا المعاصرة. فإن أن النساء المسلمات دوماً يتعرضن لقمع أزواجهن المستبدين، دون الإشارة بأي حال من الأحوال للمشاركة الفعالة للنساء المسلمات في مجتمعاتهن وباختصار فإن الرجال المسلمين يكرهون الغرب ويسيئون معاملة نسائهم.

وهذه الصورة تعتمد على جعل الإسلام ديناً للذكر المتخلف والعنيف، وتسويق هذه الصورة بشكل نمطي على كل المسلمين في كافة أرجاء العالم.

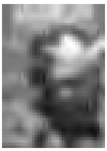
وقد نجح الكتاب في تفنيد هذه التصورات غير الحقيقية للإسلام والمسلمين، محاولاً تقديم صورة غربية موضوعية عن الإسلام وأنه ليس دين عنف كما تحاول الدعايات الغربية الرخيصة تصويره، مستشهداً بالعديد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين.

القتل السياسي ـ حرب أرئيل شارون ضد الفلسطينيين

باروخ كيمير لينغ

ترجمة: عمار أحمد حامد

سوريا: دار الرائي، ٢٠٠٤، ٢٠٠ صفحة



القتل السياسي هو عملية متعددة المستويات، ليس بالضرورة أن تعتمد على تعاليم وأوامر عسكرية، ولكنها تستهدف في الأساس إنهاء الوجود الفلسطيني ككيان اقتصادي وسياسي واجتماعي شرعي. وقد تستوجب هذه العملية قيام شارون بعملية تطهير عرقي من الأرض المعروفة باسم أرض إسرائيل بشكل كامل أو جزئي. الا أن هذه الخطوة ستؤدي إلى تعفن النسيج الداخلي للمجتمع الإسرائيلي، كما تهدم الأساس الأخلاقي للدولة اليهودية في الشرق الأوسط. ومن هذا المنطلق ستكون النتيجة بمثابة قتل سياسي مزدوج للكيان الفلسطيني، والكيان اليهودي في آن.

وتبدو جذور الأزمة ـ كما يرى المؤلف ـ أن النظام الثقافي والسياسي الإسرائيلي غير قادر على ممارسة تطهير عرقي على نطاق واسع، في نفس الوقت غير قادر على طرح تسوية حقيقية مقبولة عند معظم الفلسطينيين.

ويؤكد المؤلف أنه بما أن السياسة الحالية والقيود الأخلاقية لن تسمح بالتطهير العرقي في الوقت الحالي، إلا أن هناك عدة عوامل ستجعل من هذا الأمر واقعاً في زمن ما من المستقبل. فالشعب الإسرائيلي اليوم ـ على عكس ما كان عليه في الماضي غير البعيد ـ يعتبر أن نقل السكان الفلسطينيين ـ التعبير اللطيف للتطهير العرقي ـ هو الموضوع الشرعي للنقاش، خاصة أن الأيديولوجيا المنتشرة وسط اليمين الإسرائيلي والفصائل الدينية هو تنظيف أرض إسرائيل من العرب، لتؤسس إسرائيل سابقة في العالم كله في مجال التطهير العرقي.

ورغم تأكيد الكتاب على التفوق العسكري والاقتصادي والتكنولوجي الإسرائيلي، إلا أن هذا الكيان الإسرائيلي

ولد فى الخطيئة وعلى أنقاض ثقافة أخرى تعانى من التطهير السياسى والعرقى، ورغم ذلك لم تنجح الدولة الجديدة فى إبادة الثقافة الأصلية المنافسة كما فعلت المجتمعات الاستيطانية المهاجرة الأخرى.

وإزاء هذا الوضع غير المسبوق فى تاريخ الصراعات البشرية، يؤكد المؤلف أن طرفى النزاع فهما أخيراً أنهما فى وضع اللا انتصار، وأنه لا الجيش ولا الاستراتيجية السياسية، أو كلاهما معاً ـ ستؤديان إلى زوال الخصم، وأنه إذا استمر الصراع والكره فسيؤدى هذا إلى حالة من الإنهاك طويل الأمد، التى سينجم عنها دمار وزوال المجتمع الإسرائيلى، إذا ما تصاعد الصراع ووصل إلى حرب إقليمية سواء استخدمت الأسلحة غير التقليدية أم لم تستخدم، كما أن عدم التوصل إلى تسوية بين الإسرائيليين والفلسطينيين سيؤدى بالدولة اليهودية المعاصرة إلى أن تصبح مجرد «هامش» فى تاريخ العالم.

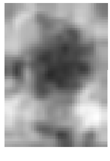
*

القواعد الذهبية للحياة اليومية

أومرام ميخائيل إيفانهوف

ترجمة: موريس جلال

سوريا: دار الرشد، ٢٠٠٤، ٣٤٤ صفحة



لنفرض أنك مضيت متنزهاً فى غابة، وتهت فيها بعد أن ضللت الطريق، فسلكت درباً أفضى بك إلى منطقة مستنقعات موبوءة بالذباب والبعوض والأفاعى، وأصبحت مهدداً ومحاصراً.. فما الذى يمكنك أن تفعله؟!

الحل الوحيد الذى يقدمه هذا الكتاب هو أن تهرب وتعود أدراجك فترتد إلى الخلف بقصد استعادة طريقك.

وعلى الصعيد النفسى، إذا داهمتك الأفكار والمشاعر السلبية، فمن الأفضل أن تتجنب المجابهة، لأنك إذا لبثت طويلاً فى الظلام، فلن تقهر الظلام، بل هو الذى سيقهرك. وإن بقيت طويلاً فى الحقد، فإنه سوف يهلكك، وإذ بقيت فى الخوف والمتع السيئة، فإنها ستتغلب عليك، وعليك أن تستبسل وتناضل بقصد تعزيز قواك على الصعيد الجسدى، أما على الصعيد النفسى فمن الأفضل ألا تجابه القوى المعادية بل ينبغى عليك أن تقول: كيف أنقذ نفسى منها؟

هذه هى حكمة الكتاب الأساسية التى وضعها المعلم والفيلسوف أومرام إيفانهوف ١٩٠٠ ـ ١٩٨٦ الفرنسى ذو الأصل البلغارى.

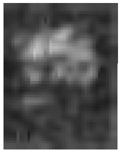
والمؤلف يراهن على ضرورة التوفيق بين الحياة المادية والروحية، مع ضرورة أن يكرس كل إنسان حياته لأجل هدف سام يسعى لتحقيقه، وبهذه الوسائل يستطيع الإنسان أن يعيش حياة هادئة هانئة رغم المشاكل والصعوبات والأزمات التى تواجهه.

*

الرسوم الممنوعة

جورج البهجورى

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٥، ١٦٨ صفحة



فى هذا الكتاب يحكى الفنان جورج البهجورى حكايته مع الكاريكاتير بالقلم وبالريشة معاً.

فى صفحاته الأولى يحكى البهجورى كيف عشق الرسم منذ طفولته، وكيف كان يعبر عن مشاعره بالرسم، فقد كان يرسم المدرس بالطباشير على السبورة، كما كان يرسم كبار أفراد عائلته بشكل ساخر وكان يخفى عنهم رسوماته خوفاً من عقابهم، وكانت مشكلة منع أسرته له من الكلام فى حضرة الكبار دافعاً له للرسم، خاصة بعد أن أصبح ـ كما يقول ـ مريضاً بالخجل ولعثمة الكلام. وعندما دخل أخوه الأكبر الجامعة الأمريكية بمنحة لتفوقه بعد أن عجز الوالد عن تعليمه، أخذه من يده إلى أستاذ كبير للرسم فى كلية الفنون الجميلة رحب به وأعطاه أول درس فى الرسم بقلم الفحم، وكان هذا الأستاذ هو الفنان كمال أمين. وفى الكلية التقى البهجورى بالعديد من الأساتذة: أحمد صبرى، وبيكار، وحمودة، وكامل مصطفى، والبنانى، والجزار، والسجينى، وعرفه بيكار على صاروخان.

وفى هذه الصفحات يروى البهجورى العديد من المواقف التى مر بها فى حياته وأشهر رسوماته، وعلاقاته بفنانى الكاريكاتير، وكيف التحق بروزاليوسف، وكيف تشكل وعيه السياسى هناك، وكيف تعرف على صلاح جاهين الذى بدأ الرسم فى روزاليوسف وعلاقاته بحجازى وبهجت واللباد، وأيضاً العديد من الكتاب مثل أحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس وعبد الرحمن الشرقاوى وفتحى غانم وغيرهم.

أما الجزء الثانى من الكتاب فقد خصصه البهجورى لعشرات الرسوم الكاريكاتيرية التى تتراوح بين رؤاه السياسية والاجتماعية والفنية، التى تثير البسمة وتدفع العقل للتفكير وطرح التساؤلات فى آن.

*

آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن

نعوم تشومسكى

ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٤٢٢ صفحة



فى فصول هذا الكتاب السبعة، قدم تشومسكى أفكاراً جديدة للدراسات الفلسفية التى تعرضت لقضايا اللغة والذهن، وهو ينطلق من أن «أكثر معرفتنا باللغة فطرية إلى حد يفوق ما كان متوقعاً من قبل»، ويؤكد أيضاً على «أن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة فى الدماغ منذ البداية، وهو ما يعنى أن الطفل ليس بحاجة إلى أن يتعلم من العدم خصائص اللغة التى يتعرض لها».

يتناول الفصل الأول أفكار تشومسكى فى الوقت الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، موضحاً أن «وراثة» هذه الملكة يمكن أن تكون هدفاً بعيداً للبحث العلمى، ويبين هذا الفصل نزعة تشومسكى التى صارت مألوفة الآن حيث يضرب أمثلة بسيطة ليرتب عليها نتائج عميقة، فعلى سبيل المثال إذا احتوت مكتبة على نسختين من رواية الحرب والسلام لتولستوى واستعار كل واحدة منهما شخص مختلف، فهل أخذ الشخصان الكتاب نفسه أم أخذا كتابين مختلفين؟ وكلتا الإجابتين ملائمة تبعاً لما إذا كنا ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة مادية أو وحدة مجردة.

ويوجه الفصل الثانى «تفسير استخدام اللغة» نقداً لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أن اللغة شأن خارجى خاصة الفيلسوف الأمريكى المعاصر هيلارى بتنام، ويقدم تشومسكى سلسلة طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التى مفادها أن أكثر معالجات اللغة نجاحاً هى التى تصاغ فى ضوء الحواسب الآلية التى تجرى تجاربها على التمثيلات الذهنية الداخلية.

ويضرب تشومسكى أمثلة على صحة وجهة نظر القائلين بأن اللغة موضوع داخلى، مثل «يصبغ جون البيت بنياً» وبالقطع فإن السطح الخارجى للبيت هو الذى يصبغ له سطحه الداخلى، ومع ذلك فلا يمكن أن يكون معنى البيت مقصوراً على سطحه الخارج.

ويفعل الفصل الثالث هذه الأفكار بشكل أوسع، ويتناول فيه المؤلف تفنيد أفكار الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين ويلارد كوين ومايكل دومسيت فى عدد من القضايا مثل عدم وثوقية الترجمة.

أما الفصل الرابع فيؤكد على أنه ينبغى أن تخضع اللغة لنماذج وشروط إضافية على تلك التى تراعى فى العلوم الطبيعية عموماً. ويبدأ تشومسكى بملاحظة أن مصطلح «ذهن» يحدد ببساطة بعض مظاهر العالم المعينة التى نود أن تخضعها للبحث العلمى، ثم يتناول عرضاً دقيقاً للأفكار ـ من حيث صلتها بدراسة اللغة بشكل خاص ـ بدءاً من ديكارت إلى وقتنا الحاضر.

ويتناول الفصل الخامس عدداً من القضايا السابقة لكن مع التركيز مباشرة بصورة أكثر على اللغة ومعرفة اللغة فيرى تشومسكى أن اللسانيات تنتمى إلى العلوم الطبيعية.

ويبحث الفصل السادس فى بعض القضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بين البحث العلمى الطبيعى وما يسمى غالباً «بالعلم الشعبى» وهو العلم الذى يهتم بالكيفية التى يؤول بها الناس ثبات الموضوع وطبيعة الحركة ومسبباته.

ويطرح الفصل السابع مناقشة أوسع لقضايا اللغة والذهن منها ما يقال عن أن هناك ما يسوغ الاعتقاد بأن لدى البشر «عضواً مخصوصاً مقصوراً على استخدام اللغة وتأويلها ويسميه تشومسكى «الملكة اللغوية»، والتى يقول إنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالات تتنوع بطرق محدودة تبعاً لتنوع التجربة. وتسهم هذه الحالات بتفاعلها مع أنظمة أخرى ـ معرفية وإحساسية حركية ـ فى تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها.

يطرح الكتاب أيضاً بقلم المترجم سيرة حياة مختصرة لنعوم تشومسكى منذ مولده عام ١٩٢٨ لأبوين روسيين هاجرا لأمريكا عام ١٩١٣ هرباً من تجنيد أبيه فى الجيش القيصرى رغماً عنه، وانكباب تشومسكى على القراءة منذ صباه وقراءته لنصف دائرة معارف تتكون من عدد من المجلدات الضخمة وهو فى السابعة من عمره، بالإضافة إلى اهتمامه المبكر باللغة العبرية، ودراسته فى أمريكا وتأثره بالأفكار اليسارية التى كان يعتنقها عدد من المفكرين اليهود النازحين من روسيا وأوروبا الشرقية.

*

ناس وسياسة واقتصاد

رسوم: نبيل تاج
القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٤، ١١٢ صفحة، ٣٦ جنيهًا



هذا الكتاب غير عادي من ناحيتين:

الناحية الأولى هي أنه ربما يكون من أوائل الكتب التي تحكي بالرسوم مسيرة الحياة الاقتصادية في مصر خلال سنوات طويلة مليئة بالحركة، والصعود والهبوط، والمشاكل والأزمات، والانفراجات والإصلاحات، ومن ثم فهو تسجيل كامل بالرسم تصل تلك الظواهر.

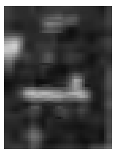
أما الناحية الثانية، فتتعلق بريشة الفنان الكبير تاج الذي رسم بيده وفكره هذه الظواهر. فجاءت الرسوم خير تعبير عنها، بل ربما - وبغير تجاوز - كان الرسم - أحيانًا - أكثر تعبيرًا وقوة عن الموضوع ذاته. هذه الرسوم ترتقي إلى مستوى العالمية - وليس في هذا أي قدر من المبالغة. فالصحف العالمية نقلت رسوماته في بعض القضايا، وكثير من الاقتصاديين استأذنوا الفنان الكبير في استخدام أحد رسوماته البارزة كأغلفة لبعض كتبهم.

وتاج ليس مجرد فنان، ولكنه كتلة من الإحساس الفني الناضج الرقيق، مع فكر عميق متكامل في شتى الموضوعات. وله إلمام واسع بالقضايا الاقتصادية والسياسية، وهذا سر إبداع رسوماته على أغلفة مجلة الاقتصادي. فالرسم عنده قضية وموضوع ورأي وإضافة جديدة، رغم تشابه الموضوعات والظواهر الاقتصادية وتكرارها.

٭

أنا والعولمة - عالم بديل ممكن

سوسان جورج
ترجمة: محمد مستجير مصطفى
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٥، ٢٤٠صفحة



تبدو رنة كلمة العولمة وكأنها تعني نظامًا اقتصاديًا يدمج جميع البلدان، وجميع الطبقات، وجميع الشعوب، في كل واحد منسجم، لكنها في الواقع تعني العكس تمامًا: شروطًا سياسية غير متساوية للغاية لاندماج البلدان ذات مستويات التطور المختلفة في الاقتصاد العالمي، واستبعادًا لم يسبق له مثيل في كل من الشمال والجنوب من العملية الاقتصادية، وبالتالي من المجتمع. فملايين الناس يكتشفون فجأة أنهم أصبحوا زائدين عن الحاجة، وغير ضروريين في كل من الإنتاج والاستهلاك. وفي حين اعتاد التقدميون مواجهة الاستغلال، إلا أنه قد أصبح ميزة الآن أن يستغلك أحد فأنت على الأقل لازال لديك عمل ودور.

وفي ظل هذا النظام، فقد زادت أرقام مبيعات بعض الشركات عن إجمالي الناتج القومي لمعظم الدول، وعلى سبيل المثال فإن شركة الكيسنون موبيل أكبر من باكستان وجنرال موتورز أكبر من الجزائر، وفورد وديملار أكبر من نيجيريا أو المغرب وهكذا..

ويؤكد الكتاب أن الشركات العملاقة والمؤسسات المالية الكبرى أمامها الآن مساحة واسعة لوضع القواعد التي تحكم الجميع، وخاصة لأنها كثيرًا ما تسيطر على وسائل الإعلام، وهي تسعى إلى قدرة أكبر لتبني السياسات الوطنية والدولية لتتواءم مع احتياجاتها. فالعولمة في حقيقتها هي آخر مراحل الرأسمالية العالمية والإطار السياسي التي يساعدها على الازدهار. والكلمة لها مدلولات أيديولوجية لأنها تنقل الأفكار التي تخدم على خير وجه مصالح المستفيدين من الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة. وهم حين يستخدمون الكلمة يريدون منك أن تعتقد أن العولمة كلية ومفيدة للجميع. إلا أن هذا هراء، لكنه هراء فعال. يساعد أحيانًا في تحاشي الغضب والتمرد الشعبيين.

ومن حسن الحظ أن كلا من الغضب والتمرد في تصاعد.

والكتاب أساسًا همه الرئيسي هو فضح العولمة التي تريدها الشركات الكبرى في الغرب، ويتوجه إلى الكثيرين في شتى بقاع العالم الذي يأملون ويؤمنون بأن التغيير ممكن، وأن العالم لابد أن يكون أكثر عدالة.

٭

خريف الثورة - صعود وهبوط العالم العربي

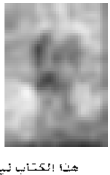
أحمد المسلماني
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥، ٣٠٠صفحة



يؤكد المؤلف في مقدمته لكتابه أن مجمل الثورات العربية لم تحقق شيئًا،

الرئيس الشهيد رفيق الحريري: الحلم، الحقيقة، الخسارة

مجموعة مؤلفين
ترجمة وإعداد: رامي الريس
لبنان: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥، ١٨٠ صفحة، ٨ دولارات



هذا الكتاب ليس دراسة سياسية تبحث وتغوص في أعماق ظاهرة رفيق الحريري، بأبعادها اللبنانية والعربية والدولية، ولا يمكن تصنيفه سلفًا في قائمة الكتب العديدة المنتظر ظهورها تباعًا لقراءة الأسباب الكامنة وراء اغتياله في تمام الساعة الواحدة إلا خمس دقائق يوم الاثنين ١٤ فبراير الماضي في بيروت.

فهذا الكتاب يجمع بين دفتيه بعض ما كتبه مواطنون تعبيرا عن عواطفهم إزاء فاجعة اغتيال الحريري، فسطروا مشاعرهم الصادقة على صفحات الصحف والمجلات والدوريات ومواقع الإنترنت.. فهي كتابات ـ ببساطة شديدة ـ تعبر عن آراء الناس، نظرتهم، همومهم، خوفهم، قلقهم، حزنهم.. ولكنها بالقدر ذاته تحكي عن أملهم، شوقهم، أحلامهم، عناءهم.

ولم يكن الهدف من إصدار هذا الكتاب رصد التحليلات السياسية والأمنية والقضائية، بقدر ما هو محاولة لإبراز صورة رفيق الحريري الزعيم اللبناني العربي من وجهة نظر المواطن العادي الذي لم يتعرف عليه إلا بواسطة الإعلام أو المؤتمرات الصحفية، أو الإنجازات التي طبعها باسمه في مختلف المناطق اللبنانية.

وكما يقول الكتاب في مقدمته فإن الحريري أنجز في عقدين ونصف (١٩٨٠ - ٢٠٠٥) في المجالين الشخصي والعام، ما يعجز غيره عن إنجازه في أجيال. ومع ذلك كانت هناك أحلام كبيرة يتمنى الشهيد تحقيقها منها أمله في استقامة مجال الحياة السياسية اللبنانية، وفي مجال تطبيق اتفاق الطائف، وفي مجال تسريع الإصلاح والاندماج في الاقتصاديين العربي والعالمي ودخول السوق العالمية بقوة.

والواقع أن هناك قصورًا شديدًا في هذه المجالات كلها، ولا يعود ذلك إلى صعوبات الظروف فقط، بل إلى غياب الإرادة السياسية والانضباط السياسي.. ومن هنا فإن للكلمات التي قيلت في الرئيس الحريري دلالات كبرى، من حيث إنها تعني الأمل وتعني الالتزام، وتعني الثقة بشخص الفقيد ونهجه الوطني والقومي.

وقد كان الحريري في حياته السياسية صاحب مشروع يتعلق ببناء الدولة، وبالنهوض السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبالتقدم، لكنه كان قبل ذلك كله وبعده حريصًا على البعدين الوطني والقومي في مسيرة حياته السياسية وفي مشروعه، وقد أراد الذين اغتالوه النيل من هذين البعدين والقضاء على فكرة وإمكانية الجمع بينهما.

لكن التوحد حول شهادته، ومن حوله أسرته وتياره ونهجه، كل ذلك فوت الهدف على الأعداء والمتآمرين.

وكما يقول السياسي اللبناني فؤاد السنيورة، إنه إذا كان من الصحيح أن الكثير مما تمناه الحريري وعمل من أجله قد تحقق، إلا أنه تبقى الكثير مما كان يخطط لفعله ويحلم بتحقيقه، ويعود السبب في ذلك لعاملين: الأول يتمثل في الإعاقات والإشكالات المقصودة التي واجهت الحكومات التي ترأسها على مدى السنوات الماضية ولاسيما الحكومتين اللتين ترأسهما خلال السنوات الأخيرة.

والثاني يعود إلى ذلك الكم الكبير من الآمال العراض والبرامج التي كان يحملها ويطورها في فكره لكي تتلاءم مع رؤاه للبنان ودوره في المنطقة العربية في القرن الواحد والعشرين.. وفي هذا المجال كان يحلو للرئيس الحريري قول الشاعر: «إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام».

والكتاب في مجمله، وإن كان يعتبر مرثية للحريري، إلا أنه في الأساس يعبر عن روح هذا الشهيد البطل الذي واجه الخراب ودمار الحرب في لبنان، بسلاح الأمل والمثابرة والتفاؤل والعمل الجاد من أجل صنع لبنان جديد يسوده السلام والبناء، لا الحرب والدمار.. وفي حياة الحريري استطاع أن يصنع المعجزات، وكانت أيضًا لحظة استشهاده صيحة تحذير من هدم كل ما بناه الحريري مع سواعد كل طوائف وأبناء الشعب اللبناني.

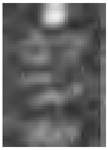
وأن الميزة الأعظم التي ابتسم العرب من أجلها كل شيء وهي ميزة الاستقلال وقيم النظام الجمهوري، سرعان ما تآكلت بعد نصف قرن فقط، لتبقى مآسي عصر الثورة وترحل فضيلتها الوحيدة في هدوء، فهذه الثورات أنهت احتلال الخارج وأبقت احتلال الداخل، أي أنها بدلت المستعمرين الأجانب، وقامت بصياغة استعمار وطني جديد احتل فيه الثوريون السلطة ليبدأ إحساس عام بالنشوة والانطلاق، ثم أتت النوازل تباعاً.. كارثة وراء أخرى.

وفي هذا الكتاب يغوص المؤلف في عصر الثورات العربية في سنوات الصعود، ثم يتابعها عن كثب في سنوات الانكسار، وهو يحاول أن يجيب على سؤال محوري وهو: ماذا جرى للثورة في العالم العربي؟

والكتاب كما يقول د. عبد الوهاب المسيري في تعليقه عليه يجيب على هذا السؤال بشكل سرد ممتع للأحداث، حشد واع للتفاصيل بطريقة تعطيها دلالة عميقة، وهو ما أنقذ الكتاب من السقوط في الرؤية الأيديولوجية الاختزالية التي تلوي عنق المعلومات وتنتقي منها ما يمكن حشره داخل نمط مسبق.

الانتخابات التشريعية في إيران مجلس الشورى السابع ومستقبل المشروع الإصلاحي

المحرر: د. محمد السعيد إدريس
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ٢٠٠ صفحات

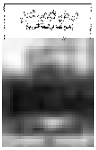


وراء الهياكل السياسية الإيرانية الموجودة حالياً، تاريخ ثقافي وسياسي كبير يتسم بالثراء والتركيب والحمولات الرمزية والثقافة الدينية والحداثية، ومن ثم تبدو الصفوة الدينية المحافظة والإصلاحية أيضاً، حاملة تناقضات عديدة بسبب انعكاس بعض هذا التاريخ على إدراكها السياسي لمستقبل التركيبة الداخلية للنظام السياسي الإيراني، في ظل تحولات نوعية في النظام الدولي، وفي سياقاته الإقليمية العديدة، خاصة في ظل انهيار النظام والدولة في العراق، وضغوط الولايات المتحدة. عبر احتلالها للعراق مع القوات البريطانية والتحالف الدولي . على بعض توجهات السياسة الإيرانية الخارجية، وفي المجال النووي.

يستعرض الكتاب عبر بحوث المشاركين فيه وهم د. محمد السعيد عبد المؤمن، ود. نيفين عبد المنعم، وأحمد السيد النجار، ود. باكينام الشرقاوي، وأحمد منيسي، ود. مدحت أحمد حماد، ومحمد عباس ناجي: تشكيل مجلس الشورى السابع في إيران، والمشروع الإصلاحي بقيادة الرئيس محمد خاتمي الذي أوشك على نهاية ولايته، والصراع الداخلي مع المحافظين. كما يتناول السياقات الدستورية والقانونية وبيئة العملية الانتخابية، والقوى السياسية المشاركة فيها، والبرامج الحزبية والسياسية، وقضايا المعركة السياسية داخل إيران وتفاعلاتها ونتائجها، فضلاً عن دور المرأة، وتقديم رؤية مستقبلية للمشروع الإصلاحي في إيران.

من يشتري الكونجرس الأمريكي «ملامح الفساد في السلطة التشريعية»

تشارلز لويس
ترجمة: عمار أحمد حامد
دمشق: دار الرائي، ٢٠٠٤، ١٦٧ صفحة



يلقي هذا الكتاب الضوء على الفساد المستشري في السلطة التشريعية في الولايات المتحدة الأمريكية، بالتفصيل وبالوثائق. وهو ما جعل هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة، نظراً لأنه يأتي في الوقت الذي تحاول فيه الولايات المتحدة طرح نفسها كقوة إمبراطورية تحمل لواء الديمقراطية وتنادي بإصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية والإدارية في العالم الثالث.

دوريات

العربي

الكويت: العدد ٥٥٧، أبريل ٢٠٠٥



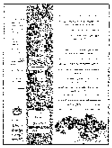
يحفل هذا العدد بموضوعات متنوعة ومتميزة، منها موضوع عن «قادش مدينة الحرب والسلام»، ويلقي الضوء على بعض فصول التاريخ الفرعوني. وبالعدد أيضاً موضوع عن مدينة براغ ومشاهد من زمن الحرية.

ويلقي العدد الضوء أيضاً على الكتابة النسائية في المغرب، وأيضاً عن العرب وكيف اكتشفوا الأدب الأطفال، بالإضافة إلى دراسة عن د. أحمد زكي.

وفي باب مستقبليات، توجد ثلاث دراسات، الأولى عن حوار الحضارات.. لماذا وكيف ومع من؟ والثانية بعنوان «الهندسة الخليجية اسمها التقارب العربي»، والثالثة «نحو غد أكثر شيخوخة».

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، مارس ٢٠٠٥



تتصدر هذا العدد مقابلة بعنوان «الانتخابات العراقية ومشاهد المستقبل» يتناول فيها خير الدين حسيب المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية ما لم يتناوله في المقابلات السابقة حول الشأن العراقي.

وينشر هذا العدد أيضاً شهادة أنتوني كوردسمان أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي مترجمة وهي بعنوان «نحو استراتيجية أمريكية فعالة في العراق».

كما تنشر خلاصة تقرير مترجمة أيضاً بعنوان «رسم خريطة المستقبل العالمي» من إعداد مجلس المخابرات القومي الأمريكي.

وفي العدد ملف بعنوان «الاستبداد والتغلب في نظم الحكم العربية المعاصرة»، وتقرير شامل بنشاط مركز دراسات الوحدة العربية خلال عام ٢٠٠٤، والمتوقع خلال عام ٢٠٠٥.

كما تنشر المجلة تقريرا عن «الوقفيات الخيرية في الوطن العربي وتعزيز الثقافة والمعرفة العربية: مؤسسة القطان الفلسطينية نموذجاً» أعده إلياس نصر الله.

القافلة

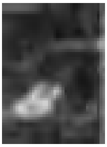
السعودية: شركة أرامكو، ٢٠٠٥

بين نواح اقتصادية وثقافية وتاريخية تثير موضوعات هذا العدد أكثر من قضية، منها موضوع بعنوان «البورصة، لغة الإشارات المتكافئة بين الماضي والحاضر» وثالث عن مدينة مكة التي نعرفها والتي لا نعرفها أيضاً.

كما يضم العدد أيضاً موضوعات شيقة عن عالم الوجبات السريعة، وعن الملح، والمتاعب الصحية للسفر بالجو وغيرها.

الثقافة العالمية

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٢٩



يزخر العدد ١٢٩ (مارس - أبريل) من مجلة الثقافة العالمية باثني عشر موضوعاً متميزاً.

يأتي مقال «الموسيقى في رأسك» ليبحث في الانفعال الإنساني الناشئ عن الموسيقى وارتباط ذلك بالذاكرة والأعصاب.

ويحتضن هذا العدد أيضاً مجموعة قيمة من المقالات الطبية والعلمية أبرزها: «الكمال في قفص الاتهام» «نظريات كل شيء» «الكوفيين: سيد منشطات العصر» والقصة اليونيسية للحمض النووي»، حيث يقدم كل مقال آخر ما توصل له العلم لخدمة الحياة البشرية.

الطب والقانون في مصر في القرن التاسع عشر

الجسد والحداثة: الطب والقانون في مصر الحديثة

خالد فهمي

ترجمة: شريف يونس

القاهرة: سلسلة مصر النهضة ـ مركز تاريخ مصر المعاصر بهيئة دار الكتب والوثائق القومية عدد (٥٨) ٢٠٠٤

منذ سنوات قليلة قدم خالد فهمي نفسه للقارئ العربي بكتابه المهم «كل رجال الباشا» الذي ترجمه شريف يونس باقتدار عام ٢٠٠٤ والذي كان أطروحته للدكتوراة من جامعة أكسفورد، فأثار به نقاشًا علميًا في الأوساط الأكاديمية والثقافية، حتى لقد تحمس البعض لأطروحاته ووصفها بأنها تمثل تحديًا للنمط الوطني السائد في الكتابة التاريخية ومسلماتها، فضلاً عما تميزت به هذه الأطروحات من إثارة للمشكلات المنهجية من خلال مقدمات وفرضيات نظرية تفتح النقاش وتجسد الوعي بالمعرفة التاريخية.. فقد قدم لنا خالد فهمي مناقشة لمفهوم السلطة عند ميشيل فوكو، ذلك المفهوم الذي أصبح يحتل مكانة واضحة في مختلف العلوم الاجتماعية خلال السنوات الأخيرة، وهو ما عالجه مؤلفنا في صدر دراسته عن الجيش المصري في عهد محمد علي في ضوء فلسفة السلطة التي كانت «تخضع أفراد» هذه المؤسسة العسكرية لتحقيق انتصارات السيادة، وفي ظني أن خالد فهمي أراد بذلك أن يوضح ضرورة التعامل بصورة أو بأخرى، مع مثل هذه المفاهيم والفرضيات النظرية عند معالجة قضايا تاريخنا القومي.

ولعل ما سبق قاده إلى أن ينظر إلى الخطاب القومي للتاريخ المصري في نظرة نقدية، باعتباره خطابًا يركز على تاريخ الحكام والقادة العظام بدرجة غاب معها تاريخ «الأفراد العاديين»: رجالاً ونساء، في الريف والحضر. ومن هنا قدم دراسته لـ «كل رجال الباشا» أي لجنود وأنفار جيش محمد علي باشا. فقدم تاريخًا اجتماعيًا ينصب عليهم وليس على القادة، مؤملاً أن يكون ذلك إسهامًا في رسم صورة أكبر عن «التاريخ الاجتماعي» لمصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ذلك التاريخ الذي يحتاج، من وجهة نظره، إلى دراسات أوسع وأكبر، تركز على تاريخ «المصريين العاديين» أو على تاريخ الأفراد والناس، أو ما يسميه البعض «التاريخ من أسفل» البناء الاجتماعي.

ومن الأطروحات التي لقيت عناية خاصة في كتابات مؤلفنا قضية الحداثة ونقدها: فهو إذ يشير إلى عدد من الكتابات التي يرى أنها شككت في النظرة التي تمنح محمد علي موقعًا متميزًا في تاريخ مصر الحديثة، بعد وضع متردٍ عند قدومه إليها، وإن كنا لا نعتقد أن هذا هو هدفنا الأساسي، وإنما جعلت تدحض الأفكار السائدة عن ركود مصر وتخلفها أثناء الحكم العثماني (وهو على الأخص كتابات بيتر جران عام ١٩٧٩، وكينيث كونو عام ١٩٩٢ ثم نيللي حنا عام ١٩٩٨) فإن خالد فهمي يرى أن هذه الكتابات انطلقت في نقدها للنظرة التقليدية لمصر في العصر العثماني من زاوية نقد مفهوم المركزية الأوروبية التي بنيت عليها الكثير من النظريات التقليدية للتحديث، وأنها في نقدها لهذه المركزية لم تنقد المبادئ النظرية التي قامت عليها هذه الحداثة، وإنما «تخيلت» هوية محلية مصرية مركزية تقوم على نفس أسس المفهوم الغربي للحداثة.. إلخ.

ومن هنا يرى خالد فهمي ضرورة طرح نظرة مغايرة ـ تثير جدلاً ـ لتلك النظرة المألوفة في الكتابات المدرسية والأكاديمية، بل في الروايات والأغاني الوطنية «التي تبدو فيها مصر شخصية واضحة المعالم متجانسة الصفات صاحبة إرادة وتمثل داعيًا يعمل في التاريخ ويتجلى فيه، فهو يراها مجرد ولاية عثمانية يندرج تاريخها في النصف الأول من القرن التاسع عشر في سياق التاريخ العثماني العام.. وأيًا كانت أوجه الاختلاف أو الاتفاق في رؤيته لمفهوم الحداثة والقومية، عند الكتابة عن تحديث مصر، فإن من المهم ضرورة ألا ننساق وراء المفاهيم الغربية دون نقد أو تمحيص.

وفي كتابه الجديد «دراسات عن تاريخ الطب والقانون في مصر الحديثة» يواصل خالد فهمي تدعيم وتأكيد أطروحاته عن الحداثة وعن تحديث مصر في القرن التاسع عشر، مؤلفًا من فصول ودراسات كتبها عن تطور الطب بمعناه الحديث أو تحديث الطب، وعن تطور النظام القانوني الجديد، غير المستوحى من الشريعة الإسلامية، مؤلفًا منها جميعا رؤيته للتاريخ الاجتماعي للطب والقانون.. وقد تبدو هذه الفصول للوهلة الأولى وكأنها تتناول موضوعين منفصلين، حتى بحكم تناولها لثنائية المعرفة والسلطة، غير أن القراءة الواعية والمتعمقة تثبت الترابط العضوي والمنهجي للجانبين معا، فضلاً عن ارتباطهما بمفهوم التحديث والحداثة والجسد، وارتباط المعرفة الطبية والمعرفة القانونية بآليات وممارسات السلطة الحديثة.

وكعادته، لا يحفل مؤلفنا بتاريخ الحكام أو الصفوة، وإنما بتاريخ الناس العاديين، فيرى أن المدخل الذي يعالج به موضوعه ليس هو المدخل المألوف الذي يصفه بأنه «تقليدي»، ذلك الذي يعني بكتابات النخبة أو الصفوة المشتغلة بالطب أو القانون، وبكتابات الصيادلة والحكماء، وطبيعة الأمراض وطرائق علاجها، أو حتى ذلك الذي يعني بدراسة كتابات الفقهاء والمحامين، ممن عنوا بتطوير النظام القانوني في مصر في القرن التاسع عشر، وإنما جاء مدخله الجديد دراسة موقف عامة المصريين، أو الأهالي، ممن تأثرت أجسادهم بالتغيرات المستحدثة، وكانت مادة لها، مبررا ذلك بأن هذا المدخل يتناول المسكوت عنه في كتابات المؤرخين المعاصرين للفترة أو اللاحقين لها.

وقد اقتضى ذلك من خالد فهمي أن يقيم كتابات هؤلاء وأولئك ممن أرخوا لتطورات الطب والقانون في مصر الحديثة «بطريقة تقليدية» ـ حسب قوله وإن كنا نراها على جانب كبير من الأهمية ـ مثل أندرسن وسفران وفرحات زيادة ولطيفة سالم.. وغيرهم، ممن رأى أن كتاباتهم ربطت بين تطورات مصر وبين ما حدث في أوروبا، وأنها لم تنتبه بما يكفي للسياق العثماني الذي جرت فيه هذه الإصلاحات خاصة في الجانب القانوني، فضلاً عن إغفالها لدراسة مدى استجابة عامة المصريين لهذه الإصلاحات وتركيزها على دور الدولة ممثلة في الحاكم، لا في المؤسسة. ومع ذلك يرى مؤلفنا أن من أهم مميزات هذه الكتابات الإيمان بتقدم تاريخ القانون المصري في القرن التاسع عشر نحو غاية محددة تتمثل في الانتصار للعقلانية، وإحلال العدل والإنصاف محل الظلم والاستبداد.

لقد أراد خالد فهمي أن يقدم في هذا الكتاب زوايا جديدة لتاريخ مختلف للقرن التاسع عشر، أو لما يسمى بعصر النهضة الأول، من خلال مادة وثائقية مستقاة من ممارسات الحياة اليومية لعامة الناس ورؤيتهم لما يجري حولهم، وليست مستقاة من المصادر المألوفة عن هذا العصر، والتي تعتمد على كتابات مفكري النهضة، والتي قدمت رؤيتهم ومحاولاتهم للنهوض بالمجتمع المصري.

وإذ يعالج مؤلفنا العلاقة المعقدة بين الشريعة والإجراءات والتحقيقات الجنائية التي أدخلت حديثًا، والتي لا تستند في مرجعيتها إلى الفقه الإسلامي، فإنه يدرس موقف الفقهاء ورجال الدين من التقنيات الجديدة المتعلقة بالتشريح وغيره، عند التحقيق في حالات الاشتباه الجنائي وقضايا القتل والاغتصاب وهتك العرض وإسقاط الحوامل، محاولاً توضيح موقف الشريعة من ذلك.. وهو إذا يتحدث عن القانون الجنائي في مصر في القرن التاسع عشر، ويقدم وصفًا للإدارة الصحية خلاله، فإنه يخرج بنتيجة مؤداها أن إدخال الأساليب الحديثة في الإثباتات الجنائية لم يجاف الشريعة، وإنما كان يستهدف إعلاءها، وليس استبدالها بنظام علماني من جراء التأثر بالغرب.

وبنفس النظرة يتناول خالد فهمي دراسة موضوع مدرسة القابلات في مصر عام ١٨٣٢، فلم ينظر إليها باعتبارها مثلاً من أمثلة المؤسسات التي وضع أساسها حاكم مستنير لتحديث مصر في مجال التعليم الطبي وتحسين وضع المرأة المصرية، وإنما رأى أن ينظر إليها باعتبارها موضعًا للصراع دارت فيه معارك عن «الحداثة» و«العلم».

ومن القضايا المهمة التي أثارها هذا الكتاب قضية العقاب الجسدي وأشكاله في النظام القانوني المصري، حيث تتبع المؤلف هذه القضية في تطورها الذي أفضى إلى ظهور معنى جديد للحقيقة، وتقنيات جديدة للعقاب، ورابطة جديدة بين القانون والعدالة، ومن ثم لتصور جديد للعدالة نفسها، فدرس مسألة التعذيب لإثبات الدليل، والدور المهم للطب الشرعي، الذي وفر للسلطات وسائل آمنة وموثوق بها لإقامة الإثبات القانوني، بدلاً من الاعتراف المنتزع بالتعذيب، وفي اعتقادنا أن هذا الكتاب الجاد والجيد عن تاريخ الطب والقانون في مصر في القرن التاسع عشر، لمؤرخ ناقد راسخ القدم، يمتلك رؤى وأطروحات جديدة، قد نتفق معه أو نختلف معه بشأنها، ومن ثم يجب، قبل ذلك أن نهتم وأن نحفل بها، شأن الأعمال الجادة التي تثير النقاش والجدل العلمي الخصب والبناء، الذي يستهدف إذكاء المعرفة العلمية بتاريخ مصر ونهضتها.

أحمد زكريا الشلق

Traveling Through Egypt
(السفر عبر مصر)

Deborah Manley and Sahar Abdel-Hakim
AUC Press

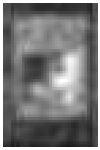


يشمل الكتاب مقالات عن السياحة فى مصر لعدد كبير من الأقلام من بينها مقالات لعبد اللطيف بغدادى. جيوفانى بلزونى، ليونارد كوترل، ابن بطوطة أحمد حسنين، بيير لوتيمارك توين جون جاردنر ولكنسون وآخرين.

※

Revival and Reform in Islam The Legacy of Mohammed al Shawkani
(التجديد والإصلاح فى الإسلام)

Bernard Haykel
New York University, 2003, 248pp., £50.00



يلقى هذا الكتاب الضوء على تاريخ التحول من الشيعية التقليدية إلى الإصلاح السنى فى اليمن فى فترة ما قبل التحديث.

※

Media and the Path to Peace
(وسائل الإعلام والطريق إلى السلام)

Gadi Wolfsfeld
Hebrew University of Jerusalem, 2004, 284pp., £45.00

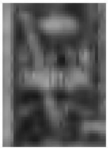


يختبر هذا الكتاب الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام الإخبارية فى عملية السلام. يجادل جادى ولفسفيلد بأن الصحافة غالبا ما تلعب دورا هداما، إلا أن هذا الدور يختلف حسب الزمن والظروف السياسية. يسعى هذا الكتاب لشرح تلك الاختلافات عن خلال اختيار حالات ثلاث كبرى: عملية السلام فى اوسلو بين إسرائيل والفلسطينيين، عملية السلام بين إسرائيل والأردن، وأخيرا العملية التى تحيط باتفاقية جود فرايداى فى أيرلندا الشمالية.

※

The Fifth Discipline
(المبدأ الخامس)

Peter M. Senge
Random House, 2004, 430pp., £16.99



يحدد خبير الإدارة بيتر سينج المبادئ الخمسة للأعمال التى تساعد معا على بناء الشركات. إن تلك الشركات ستكون ناجحة فى العقد القادم بسبب قدرتها على التعلم، واستيعاب أفكار ونظريات وممارسات جديدة فى مختلف المستويات الوظيفية واستخدامها فى الميزات التنافسية.

※

The Next Big Idea
(فكرة مستقبلية لامعة)

Carol Kennedy
Random House, 2004, 208pp., £10.00



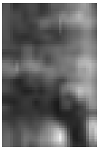
كيف يمكن للأعمال أن تسير استراتيجيتها وخطة نموها فى عصر الاقتصاد الرقمى؟ كيف يمكن الاحتفاظ بالموظفين الذين هم على درجة جيدة من المهارة فى البيئة الجديدة التى تتميز بزيادة الأجور وحزم الاختيارات المهنية؟ هل ستبرز نظرية مسيطرة للإدارة لاستيعاب ثورة الانترنت؟

يقوم هذا الكتاب على البحث والمقابلات الشخصية مع شخصيات رائدة فى عالم الأعمال بالإضافة إلى أكاديميين من الولايات المتحدة وبريطانيا. إن هذا الكتاب يتطلع إلى نظرة استشراقية إلى مسألة كيف ستعمل الأعمال فى عالم الاقتصاد الجديد.

※

The End of Globalization
(نهاية العولمة)

Alan Rugman
Random House..2004, 288pp., £15.99.



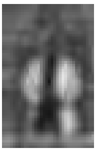
يعد البروفيسور آلان رجمان واحدا من الأكاديميين الرائدين فى مجال الأعمال والاستراتيجية العالمية. يجادل رجمان فى هذا الكتاب أننا نشاهد حاليا نهاية عصر العولمة ويصل إلى مرحلة جديدة من البحث والتحليل لكى يجادل بأن العولمة لم تحدث فى الواقع أبدا.

مستخدما تحليلا مستقى من الشركات العالمية الرائدة، ينظر البروفيسور رجمان بشكل تفصيلى فى التعقيدات الناجمة عن نهاية العولمة، متضمنا مناقشة عميقة لاستراتيجية المؤسسات التجارية، الهياكل المؤسسية، والمناهج التحليلية.

※

The Empty Raincoat
(معطف المطر الفارغ)

Charles Handy
Random House, 2004, 288pp., £8.99



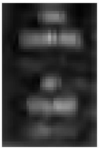
نحن الآن فى عالم مساهمى رؤوس الأموال، ولكن الكل يعانى من خطر مستقبلى محدق.

فى هذا الكتاب يصل تشارلز هاندى إلى فلسفة فيما وراء آليات عالم الأعمال، فيما وراء الاختيارات المادية، لكى يحاول أن يؤسس بيئة بديلة حيث يمكن لأخلاقيات العمل أن تحتوى على حس طبيعى بالاستمرار والاتصالات وحس بالتوجه السليم. بحس من الدقة، واليقظة، يسعى هاندى لأن يقلب التناقض إلى تقدم حقيقى.

※

The Coming Collapse of China
(الانهيار القادم للصين)

Gordon G Chang
Random House. 2004, 384 pp., £ 7.99



تشمل الطبعة المنقحة من هذا الكتاب القضايا المتعلقة بانضمام الصين إلى منظمة التجارة الدولية كما يشمل الكتاب مقدمة جديدة.

يعد هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن مستقبل الصين، حيث روعة أسلوب الكاتب ومعرفته الجيدة بالصين تجعله مرجعا لكل المهتمين بالتاريخ المعاصر لذلك البلد.

إن العالم يرى مستقبلا رائعا للصين. على الرغم من ذلك، فهناك تحت سطح هذه الحداثة، أمورا أخرى. يتنبأ تشانج بالانهيار الداخلى الوشيك للاقتصاد وحكومة الصين الشعبية، مما سيعود بنتائجه الوخيمة على بقية دول العالم.

※

Beyond the Summit.. Setting and Sorpassing Extraordinary Business Goals
(ما وراء القمة.. وضع وتجاوز أهداف الأعمال الاستثنائية)

Todd Skinner
Random House, 2004, 256pp., £16.99

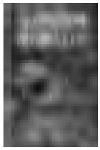


يعد الكاتب تود سكينر واحدا من أكثر متسلقى الجبال فى العالم. إن تسلقه الأسطورى الأول لارتفاع يبلغ ٢٠,٥٠٠ قدم يظل أكثر أشكال الصعود صعوبة من الناحية التقنية فى جبال الهيملايا. إن الدروس التى استفادها خلال تاريخ عمله يمكن تطبيقها بشكل مساو فى عالم الأعمال. أمضى سكينر العشر سنوات الأخيرة فى تعليم شركات مثل أبل وفيرجن كيف يمكنهم استخدام تجربتهم لكى يصبحوا أكثر نجاحا. يشمل الكتاب خمسين درسا، تسجت معا فى قصة مغامرات آسرة.

※

The Origin of Wealth
(أصل الثروة)

Eric Beinhocker
Random House, 400pp., £ 24.99



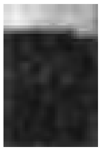
كيف يمكن للعلم والاقتصاد أن يسيرا في خط واحد.

من الواضح الآن أن قوى العولمة، والترقيم، وتحرير المؤسسات من التنظيم، تقود إلى ثورة في الاقتصاد العالمي. ما ليس معروفا بدرجة كبيرة هو حدوث ثورة فيما يتعلق بطريقة تفكيرنا عن الاقتصاد. في الجامعات، ومراكز البحث وفي الشركات عبر العالم، حيث الباحثون يستحثون مجالات متنوعة مثل علوم الفكر المعرفي نظريات النشوء ودراسة النظم المعقدة وذلك من أجل إعادة التفكير بشكل جذري في معتقداتنا الأساسية حول الاقتصاد وعلومه. يبين هذا الكتاب كيف يمكن للتحول الأساسي في علم الاقتصاد بوصفه مجالا فكريا أن يؤثر على عالم الأعمال.

※

The Origins and Evolution of Islamic Law
(أصول تطور القانون الإسلامي)

Wael B. Hallaq
McGill University, Montréal, 2004, 280pp., £40.00.



من خلال دراسة فترة تمتد لأكثر من ثلاثة قرون، يقدم كتاب أصول تطور القانون الإسلامي، سردا هاما عن كيفية تطوير الإسلام لقانونه الخاص، في الوقت الذي استفاد فيه من مصادر الثقافة القانونية في الدول الشرقية القديمة المجاورة. يكشف الكتاب عن التأثير المتبادل بين القانون والسياسة، ويشرح كيف أن القضاة والصفوة الحاكمة قاموا بعملية تقعية متبادلة جعلت، على نحو متناقض، من تطبيق القانون الإسلامي أمرا مستقلا عن الدولة.

يعد هذا الكتاب مرجعا هاما لدارسي الإسلام والمؤرخين القانونيين أيضا.

※

How to Become a Great Boss
(كيف يمكن أن تصبح مديرا عظيما؟)

Jeffery Fox
Random House, 2004, 196pp., £8.99



يقدم هذا الكتاب نصائح عن كيفية الحصول على أفضل النتائج فيما يتعلق بقوة العمل يساعد هذا الكتاب المدراء في كيفية اختيار فريق العمل المناسب لتحقيق أفضل النتائج العملية.

※

War of Words
Language and Conflict in the Middle East
(حرب الكلمات)

Yasir Suleiman
University of Edinburgh, 2004, 388pp., £45.00.



يختبر هذا الكتاب العلاقة ما بين الهوية القومية واللغة، الطريقة التي يمكن أن يتم التلاعب باللغة للإشارة إلى الاختلافات السياسية والثقافية التاريخية.

و بوصفها لغة لها تراث مسجل بعيد القدم، وبوصفها لغة يتحدث بها أغلبية الشعوب التي تقطن منطقة الشرق الأوسط. ولكن بلكنات مختلفة، فإن اللغة العربية تعد بشكل خاص آلية ملائمة لمثل هذا التحقيق.

إنها أيضا أداة متخلخلة للكشف عن أوجه الصراع في الشرق الأوسط.

إن كتاب ياسر سليمان يعد عملا جيداً حول الوضع اللغوي في منطقة الشرق الأوسط، جذوره الثقافية والاجتماعية - السياسية وعلاقة كل ذلك بدراسة الصراع في المنطقة.

※

The Quick and Easy Way to Effective Speaking
(الطريق السريع والسهل للأحاديث المؤثرة)

Dale Carnegie
Random House, 2004, 288pp. £8.99



إن الخطباء يصنعون ولا يولدون. هكذا يعتقد ديل كارنيجي، الخبير الرائد في مجال مهارات الأعمال الخاصة.

على الرغم من ذلك، فإن الرضا الشخصي والاجتماعي والنجاح في مجال الأعمال يعتمد بشكل كبير على قدرة الشخص على الاتصال بشكل واضح.

إن التحدث مع العامة هي مهارة هامة يمكن لأي شخص أن يكتسبها وأن يقوم بتطويرها.

※

An Introduction to Christianity
(مقدمة للمسيحية)

Linda Woodhead
University of Lancaster, 2004, 447pp., £45.00



يتناول هذا الكتاب الشخصيات الأساسية الهامة، والأحداث والأفكار المرتبطة عبر ألفي عام من التاريخ المسيحي ويضعها في سياقها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

إن هذا الكتاب يعالج مسألة الدين في بعديها المادي والروحاني ويكتشف عن تفاعلاتها مع المحيط الأوسع مثل المال والسياسة والقوة والنوع والأسرة، بالإضافة إلى الثقافات والمجتمعات غير المسيحية

. ويلقي الضوء بشكل خاص على الطرق التي استوعبت بها المسيحية وجسدت السلطة.

إن هذا الكتاب يعد مرجعا لدارسي الأديان ولجمهور القراء العام أيضا.

※

A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples
(تاريخ فلسطين المعاصرة)

Ian Pappe
University of Haifa, 2004, 356pp., £45.00



يكتب إيان بابي عن قصة فلسطين، أرض يسكنها شعبان. يبدأ الكاتب بالمرحلة العثمانية ويتابع تاريخ فلسطين إلى يومنا هذا. يشمل هذا الكتاب الأحداث والصراع في هذا البلد كخلفية يشرح من خلالها بناء القوميتين الصهيونية والفلسطينية.

※

History of Modern Tunisia
(تاريخ تونس المعاصرة)

Kenneth Perkins
University of South Carolina



يتابع الكاتب تاريخ تونس من منتصف القرن التاسع عشر إلى الوقت الحالي. يختبر الكاتب بشكل أساسي سنوات الاحتلال الفرنسي من عام ١٨٨١ و حتى عام ١٩٥٦، حينما حقق التونسيون الاستقلال. ثم يتحول الكاتب ليصف العملية التالية من بناء الدولة.

※

The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited
(نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين)

Benny Morris
Ben Gurion University, 2004, 664pp., £70.00



في طبعة منقحة من كتاب موريس السابق، الذي قام بالكشف عن الحقائق التي كمنت وراء الهجرة الجماعية للفلسطينيين عام ١٩٤٨: هناك مواد جديدة تتعلق بالمعارك، أعمال الطرد والتعسف التي أدت إلى انفصال المجتمعات الفلسطينية.

※

«العربى التائه».. والحرية الهادية

■■ قبل أسابيع تنادى العرب - أو بالأحرى نودوا ربما مجبرين - إلى قمتهم السنوية التى يتصادف - وهى للمفارقة التاريخية مصادفة سنوية - أن تتزامن مع مناسبة هى الأكثر التباساً فى الضمير العربى فى تاريخنا الحديث: الحرب على العراق. والتى أدت فى نهاية المطاف ليس فقط إلى سقوط عاصمة العرب الشرقية؛ وإنما إلى زلزال بلغ من عنفه أن غباره، رغم مرور عامين، مازال كثيفاً يغطى الأفق، ويحجب المسافات المفترضة بين كثير من المفاهيم التى ظلت مستقرة لعقود، مضيعاً معالم طرق كانت بداياتها قد تاهت أصلاً من تحت أقدام العرب الذين لم يدركوا مبكراً أنهم يدلفون إلى الفية ثالثة لها بحكم تطور التاريخ قوانين جديدة: غالبة وحاكمة.

قبل أعوام أربعة كاملة، ومع بداية قرن جديد، ولم تكن النيران قد لونت الأفق العراقى بعد، رغم سنوات الحصار ومناوشات الصواريخ والطائرات، كتب أستاذنا «هيكل» سلسلة فى هذه المطبوعة - بدأها بحديث عن مؤتمر القمة العربى فى عمان (مارس ٢٠٠٠) كان عنوانه «نهايات طرق». وخرجت السلسلة بعدها فى كتاب رأى الأستاذ فى مقدمته بأن الظاهر «ولسوء الحظ أن الطرق تبدو عند نهاياتها.. وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق، مستطرداً «أنه مع بداية هذا القرن الجديد الحادى والعشرين فإنه يبدو أن العربى أصبح هو التائه، وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قروناً عن اليهودى التائه، موضحاً - بقلق ظاهر - أنه «فى قرن سبق، فإن ذلك اليهودى التائه وجد لنفسه مكاناً حط فيه رحاله، وحصن موقعه. وفى الوقت نفسه فإن العربى اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائهاً بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز».

وهكذا - يقول الأستاذ هيكل - بدأ القرن الحادى والعشرون.. «واليهودى الذى كان تائهاً بات متحصناً فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى الذى كان راسخاً فى الطبيعة والتاريخ، أصبح هو الشارد فى التيه: قد يعرف من أين؟ - لكنه لا يعرف إلى أين؟!».

❋ ❋ ❋

مرت أعوام أربعة، وهاهم العرب الذين كانوا قد ذهبوا إلى عمان ٢٠٠١ يذهبون إلى الجزائر، وقد وصلت نسبة الغياب حرجاً أو تقاعساً أو احتجاجاً.. أو حتى قرفاً إلى ٥٠٪ (غاب ١٣ من القادة).

مرت أعوام أربعة، عصفت فيها الرياح العاتية بأوضاع بدت أبدية. ومرت فى الأنهر كثير من المياه والدماء.. والأفكار. وبات واضحاً أن بعضاً من الأعاصير إنما استهدف «البناء العربى» ذاته، والذى رأى راسمو الخرائط الجديدة، أن لا مكان له فى نظام إقليمى جديد. وفى أجواء ما بعد الأعاصير تلك المثقلة بالغموض والمرتبكة بالقلق، ذهب العرب (بعضهم) إلى الجزائر.. فماذا جرى؟

فى حين انشغل العرب - مختلفين - باختيار من يتولى منهم تسويق مبادرتهم القديمة «العادلة» (بيروت ٢٠٠٢) والتى تقاعسوا لأعوام ثلاثة - ضعفاً أو افتقاراً للإرادة - عن دفعها إلى الواجهة، انشغل الإسرائيليون «بالعمل على الأرض» والبناء الفعلى لـ ٣٥٠٠ وحدة سكنية جديدة توسيعاً لمستعمرات ضواحى القدس.

وتاركين لجماعة الجزائر «الأمل الكاذب» فى تنفيذ تفاهمات شرم الشيخ، بات واضحاً - على الأرض - أن الأمر ليس أبداً كما هلل له البعض وقتها - لحسابات داخلية. فلا انسحاب إلا عن أريحا. أما فى غيرها فلم يتعد الأمر إعادة لانتشار القوات، تواكب مع تأكيد واضح لشارون على تصميمه على الاحتفاظ بالمستعمرات الكبرى فى الضفة الغربية.. والاستمرار فى توسيعها «مهما كانت التحفظات الدولية» فى إشارة لخطاب الضمانات الذى منحه بوش لشارون فى أبريل الماضى (عشية قمة تونس) وسكت عنه العرب. ولا عزاء لمسكنات التفاهمات فى شرم الشيخ، ولا لخارطة طريق موعودة.

والحال هكذا، كان طبيعياً ألا تتطلع الجماهير العربية المحبطة إلى شاشات التليفزيون المفتوحة على الجزائر، إلا عندما يصعد القذافى إلى المنصة ليقذف فى وجه الجميع قفازه، وألفاظه.. وأفكاره الصادمة.

❋ ❋ ❋

هل صورة الواقع العربى - كما بدت فى الجزائر - بهذه الكآبة؟

ربما لا يكون هذا صحيحاً على إطلاقه. فهناك دائماً بارقة أمل. والحاصل أننا لا نستطيع أن نقرأ أوراق القمة إلا إذا وضعناها على نفس الطاولة مع رد الفعل الإسرائيلى - وربما الأمريكى أيضاً - عليها.

سيلفان شالوم سارع معلقاً غير متردد فى أن يصف الجامعة العربية بأنها «كيان مهترئ.. لم يستوعب المتغيرات على الأرض.. ومازال يتحدث لغة الماضى».

ماذا يقصد وزير الخارجية الإسرائيلى بلغة الماضى.. وما هى المتغيرات التى يتحدث عنها؟

لا يخفى على أحد أن القمة أجهضت محاولة «مفاجئة» للالتفاف حول مبدأ «الأرض مقابل السلام» بدعوى أن مزيداً من التطبيع مع إسرائيل من شأنه أن يحثها على المضى فى خطة سلام يبدو أن خطواتها تداعب الآمال أكثر مما ترسم آثاراً على الأرض.

شيمون بيريز لم يخرج فى تعليقه عما قاله شالوم عندما اعتبر أن المجتمعين فى الجزائر «لم يأتوا بجديد، لأنهم مازالوا يحاولون تسويق مبادرتهم القديمة التى أعلنوها فى بيروت قبل ثلاث سنوات».

جديد القمة إذن - ونشكرها عليه - هو عدم خروجها بجديد، كان الآخرون ينتظرونه منها أو يدفعونها إليه.

❋ ❋ ❋

بحسابات الجغرافيا: بعيدة هى فعلاً المسافة بين بيروت (٢٠٠٢) فى شرق العالم العربى والجزائر (٢٠٠٥) فى غربه. ولكن بحساب التاريخ، وإذا وضعنا فى الاعتبار ما جرى هنا خلال السنوات الثلاث، تصبح فعلاً تلك المسافة بعيدة جداً: من صرخات العراقيين تحت أضواء «الصدمة والترويع» فى بغداد.. إلى صيحات المتظاهرين تحت أنوار الشموع فى بيروت طلباً «للحقيقة».

وفى حين لا يرى البعض إلا موطئ قدمه معتبراً أن الحركة البادية فى المنطقة تحركها أحداث محلية؛ وفاة عرفات واغتيال الحريرى وإصرار السيستانى - لا الأمريكان - على إجراء الانتخابات العراقية فى موعدها، يرى آخرون «الظل الأمريكى» فى خلفية الصورة دائماً. إن لم يكن بالتخطيط والتدبير لأحداث بدت عفوية، فبالضرورة بالاستفادة منها ودفع تيارها نحو مجرى معد سلفاً.

كأنما هو قدر «العربى التائه»، بعد أن وضعته حرب الخليج الثانية بين «مطرقة المحتل وسندان الطاغية». فها هو اليوم قبل أن يتمالك نفسه ويتعافى فكرياً، يوضع أمام اختيار آخر صعب: افتئات على «مواطنته» فى الداخل أو مقايضة على «وطنيته» من الخارج.

كأنما هما شقا رحى. وكأنما مكتوب عليه - إذ يبحث عن حريته - أن يختار بين مستبد مضيع لها أو متكسب بائع لها.. أو أن ينتظر «فى نهاية النفق» من يأتى له بها مقايضاً.

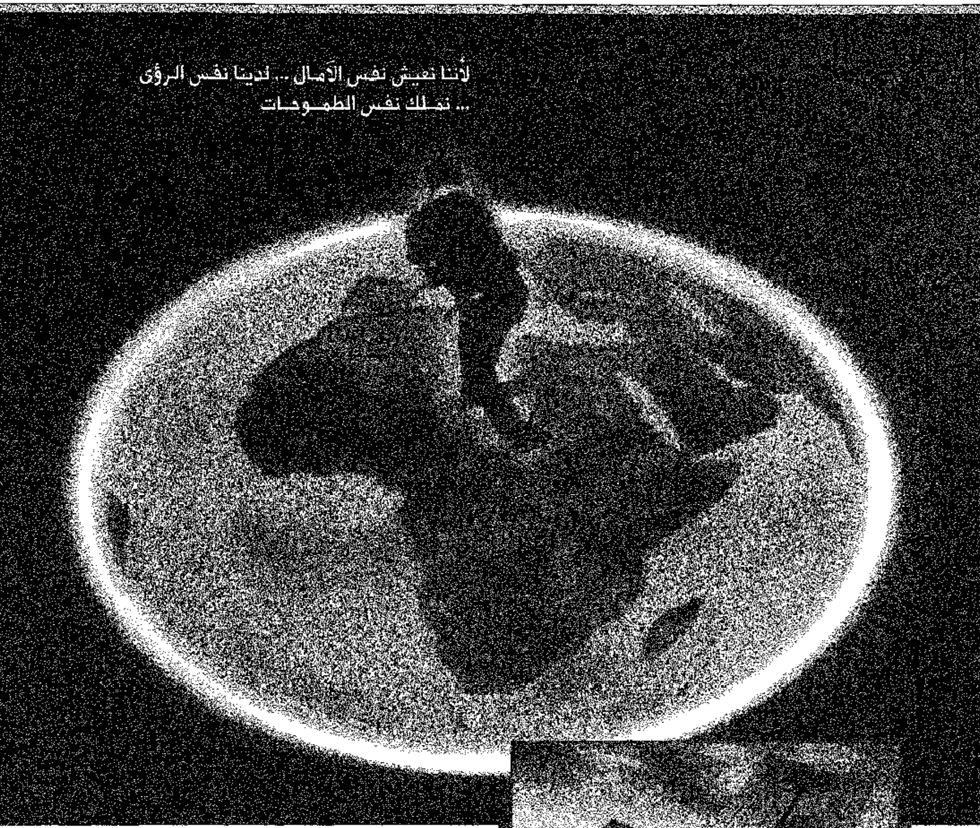
ونخشى أنه فى الغابات الكثيفة لنظام عالمى جديد، وفى غياب واضح لسياسات كما لسياسيين بحجم الآمال والتحديات، يتوه العرب - أو بالأحرى نظامهم الإقليمى - بين «جماهيرية» القذافى المتجاوزة، وحنكة الذين آثروا الاختفاء بالغياب، وبين سياسات المراهنة والصفقات، محافظةً على الأنظمة لا على غيرها.. فى حين يعلم مرتادو الغابات من صيادين ورحالة أن لا مراهنة - هناك - تضمن الحفاظ على الأمن. ولا صفقةً تنفع مع الثعالب أو الضباع أو الأسود.

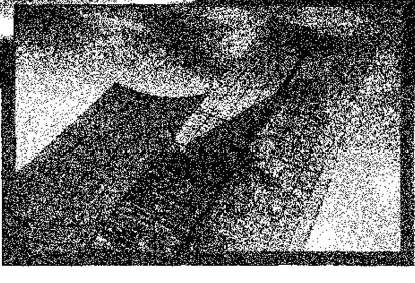
❋ ❋ ❋

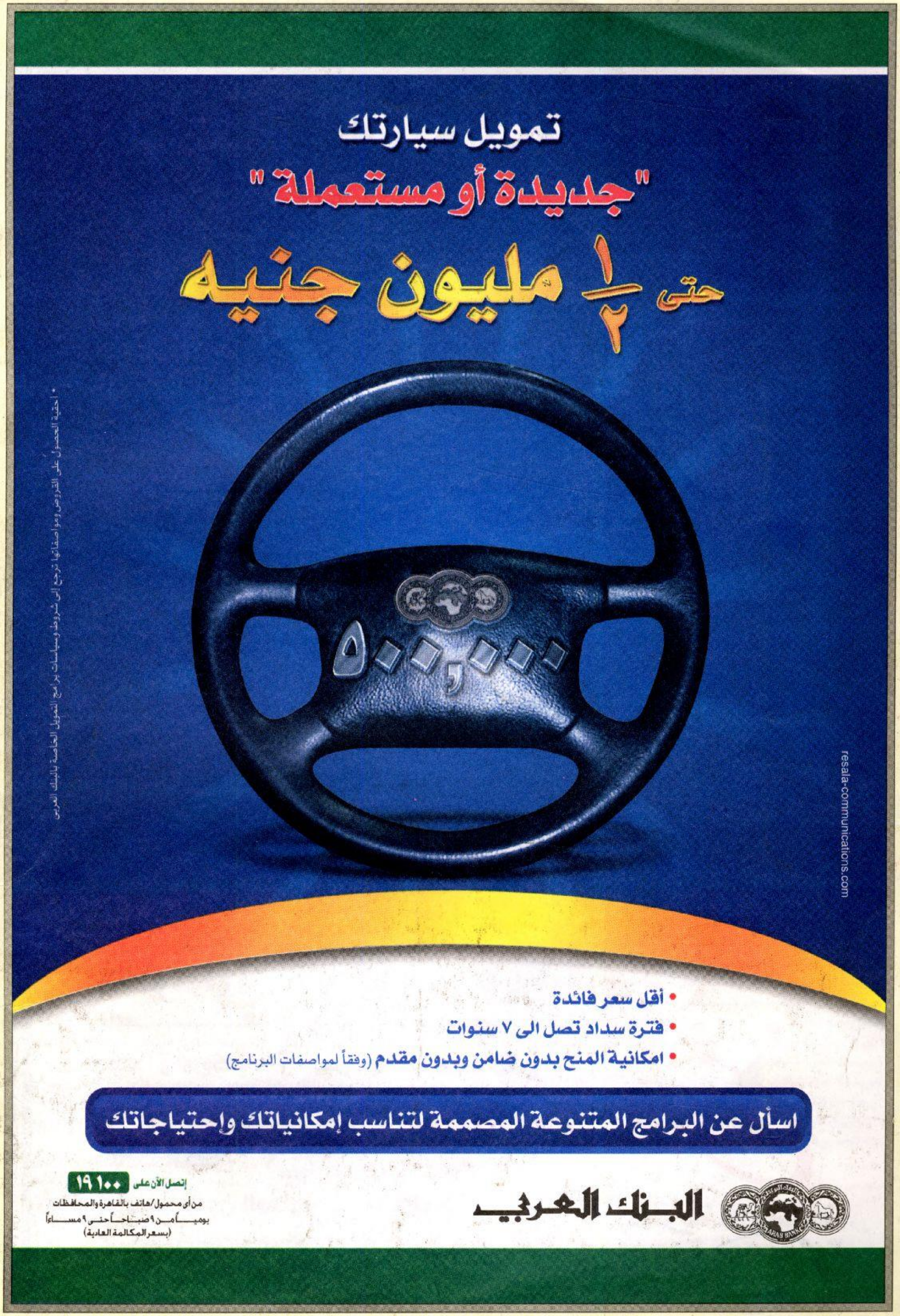
يميل الصحفيون عادة إلى إنهاء تقاريرهم السنوية حول القمة بالسؤال التقليدى حول ما إذا كانت تلك هى آخر القمم؟ والإجابة شديدة البساطة. فرغم ما يبدو أنه استجداء سنوى للأمين العام «لحق الجامعة على العرب»، ورغم أنه قد لا يكون فى «الأنظمة العربية» ما يغرى بالدفاع عنها؛ إلا أن دروس التاريخ تقول إن فى «النظام العربى» ما يستوجب التمسك به. وفى أجواء ما يبدو «سايكس بيكو» جديدة.. يصبح الواجب «فرض عين».

نشكر للعائدين من الجزائر «ذهابهم». ونعلم أن هذا - على الأقل - أضعف الإيمان. ولكننا نعلم أيضاً أن «البوصلة» هى أول ما يبحث عنه التائهون فى صحراء غابت معالمها، أو غابة تكاثفت أغصانها لتحجب الشمس ومعالم الطريق. ويعرف الفيزيائيون، فضلاً عن المجربين، أن البوصلة لا تدلُّ على طريق أو اتجاهات صحيحة، إلا إذا توافر لحركتها شرطٌ واحدٌ فقط.. الحرية. ■

أيمــــن الصيــــاد


لأننا نعيش نفس الآمال ... لدينا نفس الرؤى
... نملك نفس الطموحات





تمويل سيارتك
"جديدة أو مستعملة"
حتى ½ مليون جنيه
٥٠٠,٠٠٠
* أحقية الحصول على القروض ومواصفاتها ترجع الى شروط وسياسات برامج التمويل الخاصة بالبنك العربي
resala-communications.com
• أقل سعر فائدة
• فترة سداد تصل الى ٧ سنوات
• امكانية المنح بدون ضامن وبدون مقدم (وفقاً لمواصفات البرنامج)
اسأل عن البرامج المتنوعة المصممة لتناسب إمكانياتك وإحتياجاتك
البنك العربي
إتصل الآن على ١٩١٠٠
من أى محمول/هاتف بالقاهرة والمحافظات
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
(بسعر المكالمة العادية)